ذخائر المغرب العربي

11

أبو حمّو موسى الزيّاني

حياته وآثاره

تأليف
عبد الحميد حاجيات
أستاذ التاريخ
في كلية الآداب بالجزائر

SNED
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

أبو
حمو موسى الزياني

عبد الحميد حاجيات
أستاذ التاريخ
في كلية الآداب بالجزائر

أبو حمو موسى الزياني

حياته وآثاره

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

١٣٩٤ هجرية ١٩٧٤ ميلادي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لا شك أن أبا حمّو الثاني يحتل مكانة خاصة في تاريخ الدولة العبـــد الوادية أو الزيّانية ، وهو ، في آن واحد ، أحد سلاطينهـــا المشهورين، وأديب ترك لنا آثارا شعرية ونثرية لا تخلو من أهمية ، وقد كان بلاطه ملتقى العلماء والشعراء ، كما كان عهده عهد ازدهار وتفتح في سائر الميادين.

ولهذا السلطان الاديب شخصية جذابة ، وهمة عالية ، وخصال سامية مكّنته من احياء مجد اجداده ، بعد أن تقلّص ظله مدة حوالي عشرين عاما، وجعلته يقف أمـــام الشدائد وتقلبات الدهر ، ويواجهها بثبات وعزم ، ويصمد لها صمودا لم يشاهد التاريخ مثله الا عند القليل من القادة ورجال الحكم .

والغرض من هذه الدراسة ، محاولة ابراز هذه الشخصية الفذة ، الشهيرة بين رجالات تاريخ المغرب العربي المجيد ، ومحاولة كشف مالا يزال يحوم حولها من غموض ، وقد وافق شروعنا في عملنا هذا حلول الذكرى المئوية السادسة لوفاته . فكان مجهودنا مساهمة متواضعة في الاحتفال بهذه الذكرى والتعبير على ما تكن نفوسنا من احترام وتقدير لاحد أعلام بلادنا .

واذا كان الباحث في تـاريخ المغرب في العصر الوسيط يشكو عادة من قلة المصادر ، فالأمر يختلف عن ذلك بالنسبة لموضوعنا ، وذلك أن أبا حمو الثاني قد حظي بوفادة مؤرخين جليلين همـــا عبد الرحمن بن خلدون ، صاحب كتاب «العبر» ، واخوه يحيى ، مؤلف كتاب «بغية الرواد» ، وقد أقاما مدة في بلاطه جماتها يطلعان عن كثب على جانب وافر من المعطيات السياسية والحضارية لدولته ، ويقومان بتدوين ذلك وتسجيله فيما ألفاه من الكتب .

ومن المصادر الهامة لموضوعنا هذا ، كتـــاب «زهر البستان»، لمؤرخ مجهول ، وقد ألف في عهد أبي حمو الثاني ، فيكون مؤلفه شاهد عيان ، مما يجعل هذا المصدر وثيقة تاريخية لا يستغني عنها ، وقد عثرنا على السفر الثاني منه في احدى مكتبات أوربا ، وهو يتناول السنوات الأربع الأولى ويحتوي على معلومات قيمة وتفاصيل كثيرة حول هذه الفترة الحاسمة من حياة ابي حمو السياسية .

هذا وقد استعملنا ايضا كتاب « نظم الدر والعقيان » للتنسي ، الذي لم ينشر بعد ، وغيره من المصادر المطبوعة والمخطوطـــة لتاريخ المغرب في القرن الثامن الهجري .

غير أننا لم نجد دائما ، في غضون هذه المؤلفات، مايشفي الغليل فاضطررنا في كثير من المناسبات الى الاقتصار على ما ألفيناه فيها من الاخبار ، و حاولنا مرار كشف الغطاء عن مواقف غامضة ، فاجتهدنا في تفهم الأوضاع الاجتماعية ، والعوامل النفسيـــة ، والدوافع الاقتصادية،وغير ذلك من المؤثرات التي يحسب لها حسابها في دراسة التاريخ.

ثم اننا لم نكتف بالتعرض لحياة أبي حمو وسياسته بل تناولنا أيضاً بالبحث

بعض النصوص المختارة من كتاب «واسطة السلوك» لأبي حمو ، ثم أضفنا الى ذلك جميع ماوصل الينا من شعره .

وأملنا أننا نكون قد ألفتنا أنظار الباحثين من أبناء الجيل الصاعد الى الاقبال على دراسة هذه الفترة الهامة من تاريخ المغرب الحافل بالبطولات والأمجاد ، والى التنقيب عما حققته الأجيال الماضية من ازدهار حضاري ونشاط فكري .

القسم الأوّل

الدّولة العبْد الوادية قبل إمارة أبي حمّو الثّاني

الباب الأول

الاوضاع السياسية

داسيس الدولة العبد الوادية :

تعتبر معركة العقاب (1212/609) أهم العوامل الــتي أدت الى تفكك الدولة الموحدية ، وتصدّع الصرح الذي شيّده عبد المؤمن ومن خلفه من كبار أمراء هذه الدولة .

ومن العوامل الأخرى التي أضعفت شأنها ، ما حدث بعد ذلك من تأزم الوضع بين السادة ، أمراء الأسرة المومنيــة ، والأشياخ ، ممثلي القبائل المناصرة للدعوة الموحدية ، واشتدّت هذه الأزمة السياسية بعد وفاة العــادل ، سنة (624 هـ) ، وانتصاب ادريس المأمون على العرش ، فنتج عن ذلك صراع عنيف ، أدّى إلى قيام منافس للمأمون ، يدعى يحيى المعتصم ، بتأييد من الأشياخ ، ولم تنته الفتن التي نشأت بين الفريقين إلا بوفاة يحيى المعتصم ، حوالي سنة 633 هـ .

وفي تلك الأثناء، كان نفوذ السلطة الموحدية قد ضعف في إفريقية والمغرب الأوسط، وتلاشى شيئاً فشيئاً، حتى لم يبق بها من المناطق الخاضعة لسلطتهم إلا تلمسان وما يليها.

وبينما كان الحفصيون يقدمون على إلغاء تبعيتهم للأسرة المومنية، بإفريقية، كانت مختلف القبائل الزناتية، في المغرب الأوسط، تقتطع أراضي التل الغنية، فاستقلت مغراوة بناحية شلف، واحتل بنو توجين جبل وانشريس، وبنو راشد الجبل الذي أصبح يحمل اسمهم، وبنو عبد الواد الأراضي التابعة لتلمسان.

ولم يستولِ بنو عبد الواد على تلمسان إلا بعد أن حدثت اضطرابات خطيرة بها، وثار أحد رجال لمتونة المستخدمين آنذاك في الجند، على الوالي، واعتقله، فكان دخول بني عبد الواد تلمسان، سنة (627 هـ)، بقيادة جابر بن يوسف، خطوة أولى نحو تأسيس دولتهم.

ثم آلت امارة بني عبد الواد، بعد وفاة جابر، الى ابنه الحسن (629 هـ) فأخيه عثمان (630 – 631 هـ) ثم الى ابن عمه زيدان بن زيان (631 – 633) واصطدم زيدان بمعارضة قوية من بعض عناصر قبيلته، فحاربهم ولكنه قتل أثناء معركة دارت رحاها خارج تلمسان (633 هـ) فخلفه أخوه يغمراسن.

وكان أول عمل سياسي قام به يغمراسن أن أعلن استقلال قبيلته

بالحكم ، مع الاعتراف الرمزي بالخلافة الموحدية ، فتأسست بذلك الامارة العبد الوادية .

يغمراسن بن زيان :

وتمسّك يغمراسن بالبيعة للرشيد بن المأمون الموحدي ، ثم حاول الاستيلاء على ناحيـــة شلف ، فاستغاث أمراء مغراوة بأبي زكرياء الحفصي ، ونهض هذا الأخير بجيوشه الى تلمسان ، فاحتلها ، سنة (640 هـ) ، ثم رأى أن يعقد الصلح مع يغمراسن على أن تقـــام الخطبة باسمه دون الرشيد، وبعد ذلك زحف السعيد الموحدي (640 – 646 هـ) بجيش قوي ، في اتجاه المغرب الأوسط ، فتصدى له يغمراسن واعتصم بجبل جنوب وجدة ، وهنـــاك وقع السعيد في كمين نصبه له جنود يغمراسن فقتـل وانهـــزم جيشه ، وغنم بنو عبد الواد ذخائره (646 هـ) .

ومن هنـــا بدأت الدولة العبد الوادية تشكل قوة يعتدّ بها ، في المغرب ، وأصبحت تطمح الى الاستيـلاء على المغرب الأوسط كله ، وعلى الناحية الشرقية من المغرب الأقصى ، مما يلي نهر ملوية ، فـكان عهد يغمراسن ، بعد ذلك ، متجهاً نحو تحقيق هـذه السياسة ، فخاض الأمير العبد الوادي غمارَ كثـير من الحروب ، ضد بني مرين وأحلافهم من العرب ، غرباً ، وضد بني توجين وأولاد منديل ، شرقاً ، وإذا كانت جهود يغمراسن هذه لم تـكلل بانتصارات باهرة ، فانها تمخضت عن اتساع

رقعة الامارة العبد الوادية على حساب الامــــارات المجاورة ، وسمحت بالصمود أمام هجمات بني مرين ، وإبعاد خطرهم عن المغرب الأوسط .

ابو سعيد عثمان الأول :

أما أبو سعيد703 هـ فانه بدأ حكمه بانتهاج سياسة مسالمة لبني مرين ، ومواصلة جهود أبيه في الجهة الشرقيـــة ، وصادف ذلك حدوث فتن خطيرة بافريقيــة ، وذلك أن الأمير أبا زكرياء ابن السلطان أبي اسحاق الحفصي ، صهر أبي سعيد عثمان العبد الوادي ، كان قد زحف بمساعدة العرب الدواودة ، الى بجاية ، وانتزعهـــا من يد السلطان الحفصي أبي حفص ، فاستنجد هذا الأخير بأبي سعيد بن يغمراسن ، الذي كان قـد أرسل اليه ببيعته ، قبل ذلك .

وعندئذ ، رأى أبو سعيد أن بيعته لأبي حفص تحتّم عليه قطيعـة صهره أبي زكرياء ، وتلبية استغاثة السلطان الحفصي ، ولا شك أنــــه كان يرمي ، من وراء ذلك ، الى انتهـــاز الفرصة لتنفيذ الخطة التي رسمها اسياسته ، وهي التوسع شرقاً ، على حساب الامارات المجاورة .

وفي سنة(686 هـ)، نهض بجيوشه في اتجاه بجاية وبدأ بغزو بلاد بني توجين ومغراوة ، وأغار على سهل متيجة ثم راح يحاصر بجاية ، ولكنها امتنعت عليه ، ولم يحقق الهدف الرئيسي من حركته هذه ، وعاد الى عاصمته ، فاستولى في طريقه على مازونة وتنس .

وواصل أبو سعيد غاراته على جبل وانشريس ومنطقة شلف ، في السنوات التالية ، فقضى على سلطة إمارتي بني توجين ومغراوة في تلك البلاد .

غير أنه تعرّض ، ابتداء من سنة (695 هـ) ، الى خطر بني مرين ، الذين أخذوا يقومون بحملات عديدة تجاه تلمسان وناحيتها ، وفي أواسط سنة (698 هـ)،ضرب أبو يعقوب يوسف المريني الحصار حول تلمسان ، وبنى خارجها مدينة المنصورة ، مؤكداً بذلك عزمه على تضييق الخناق على العاصمة العبد الوادية ، وإرغامها ، طال الأمد أم قصر ، على الاستسلام ، وتمادى الحصار سنين طويلة ، ذاق أهل تلمسان ، أثناءها ، الأمرّين ، وعانوا من أخطار الحرب ، من قتل بالأسلحة والمجانيق ومن آلام الجوع والأمراض ، ما أهلك معظم سكانها ، وقضى على الكثير من عمرانها ، إلا أن المدينة لم تستسلم ، ولم يفتّ من عزيمة أهلها ما لحق بهم من أذى ومحنة .

وفي غرة ذي القعدة من سنة (703 هـ) ، توفي السلطان أبو سعيد الأول ، فخلفه ابنه أبو زيان محمد .

ابو زيان محمد

وواصل أبو زيان وقومه الكفاح المرير ضد العدو المحاصر في صبر نادر ، وعزيمة فولاذية ، متحملين كل المشاقّ ، لئلا تقع عاصمتهم في

قبضة بني مرين ، وفي يوم من ذي الحجة سنة (706 هـ) ، جاء نبأ مقتل السلطان المريني ، فارتفعت معنويّات المحصورين ، وعـــاد الأمل الى نفوسهم ، ودبّ الشقاق بين أفراد عشيرة السلطان المريني المقتول ، مما أدى الى رفع الحصار ، وعودة الجيش المريني الى وطنـه ، فانفرجت بذلك الشدة ، وانتهت محنة دامت أكثر من ثماني سنوات .

وسرعان ما قام أبو زيان وأخوه أبو حمو ، باسترجاع نفوذ دولتهما في شرق البلاد ، فأعادا الى حظيرتها منطقة شلف ، وجبل وانشريس ، والمدية وغيرها من المدن ، ثم قفل الأخوان راجعين الى تلمسان (رمضان 707 هـ) .

وحين وصوله الى عاصمته ، أمر أبو زيان بإصلاح ما أفسدته الحرب في المباني والقصور والأسوار والمزارع ، ولكنه مرض بعد ذلك بقليل وتوفي في(21 شوال 707 هـ) .

ابو حمو موسى الاول :

وعيّـن بعده للامارة أخـوه أبو حمو الأوّل ، وكان مشهوراً بالحزم والشجاعــــة والإقدام ، والتقوى ، وحب العلم ، وفي أيامه ، حظيت الدولة بمسالمة بني مرين، فأمنت من خطر الحروب والغارات ،واستعادت قوتها وبهجتها ، وتفرّغ أبو حمو لتمهيد المنطقة الشرقية، وإقرار سلطته في سائر جهاتها ، وراوده حلم أبيـه بالاستيلاء على بجاية فوجّـه الجيوش

اليها سنة (715 هـ ، ثم سنة 716 هـ) ، فحاصرت بجاية ، وجاست خلال ناحيتي قسنطينة وعنابة ، وأفسدت مزارعها وبعض عمرانها ، ولكن الشقاق دبّ بين قوّاد الجيوش العبد الوادية ، واختلفت كلمتهم ، وكاد يؤدي بهم ذلك إلى إشهار الأسلحة بين عساكرهم ، فكان لذلك أسوأ الأثر في سير عملياتهم الحربية ، وانتهت حملتهم من دون أن يحققوا هدفهم ، فعادوا الى تلمسان .

وكان أبو حمو ، الى ذلك فظاً غليظاً ، لا يتأخر عن معاملة أقربائه بشدة ، وكان ابنه تاشفين ينال من هذه المعاملة القاسية نصيباً وافراً ، ويستهدف مراراً إلى تعيير أبيه ، وإلى شتمه أمام الملا ، مما جعل شعور الأمير الشاب نحو والده يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى كره وحقد ، وأخيراً عرض عليه بعض الأعلاج من بطانته تدبير مؤامرة لعزل أبيه عن الحكم وسجنه ، وقتل من يكون معه من بطانته ، فطاوعهم على ذلك ، واجتمعوا يوم(22 جمادى الأولى 718هـ)،وقصدوا قصر أبي حمو،ودخلوا عليه وهو في مجلس أنس مع المقرّبين من بطانته ، فبدأ الأعلاج بقتل السلطان ، خلافاً لما اتفقوا عليه مع أبي تاشفين ، ثم قتلوا جميع جلسائه، وانتصب أبو تاشفين على العرش العبد الوادي .

ابو تاشفين الاول :

وفي عهد أبي تاشفين الأول عرفت الدولة العبد الوادية أوج ازدهارها ، فنشطت فيها الفنون والصناعات ، واتسع العمران ،وأحرز

المغرب الأوسط على تقدم حضاري كبير ، ذلك أن أبا تاشفين كان شديد الميل الى الفنون والبناء ، وكثير الاقبـال على الملذات واللهو ، مما جعله ينصرف إلى التشييد والتنميق .

وكانت سياسته ترمي أيضاً ، إلى متابعـــة التوسّع في الناحية الشرقية ، على حساب الامارة الحفصية ، وبدأ بتوجيه غارات عديدة الى إفريقية ، وخاصة الى ناحية بجاية ، حيث كانت الجيوش العبد الوادية تقوم بحملات كل سنة .

وفي سنة(726 هـ) ، اشتدت وطأة بني عبد الواد على بجاية وبنىهؤلاء مدينة ، على بعد مرحلة منهـــا ، وجعلوها قاعدة أمامية لعمليّـاتهم الحربية ، وواصلوا حصار بجـــاية ، كما أغاروا على نواحي قسنطينة وعنابة .

وصادف ذلك خروج بني سليم عن طاعـــة السلطان أبي يحيى الحفصي ، وثورتهم عليه ، وبيعتهم لمنافسه في العرش الأمـــير ابن أبي عمران ، واتصلوا بأبي تاشفين ، راغبين منه المساعـــدة في مقاومتهم لأبي يحيى ، فوافقهم على ذلك .

الصراع بين ابو تاشفين الاول و ابو يحيو الحفصو :

بدأ الصراع بين السلطانين قبل ذلك بسنوات ، وذلك أن السلطان

أبا يحيى كان يسخّر جيوشه لاغاثة بجاية ، ومدافعة بني عبد الواد عنها ، أما أبو تاشفين ، فلم يترك فرصة لمساعدة الثائرين على أبي يحيى ،وإمدادهم بالجنود والأموال .

وفي سنة(730 هـ) ، قدم أبو يحيى بجيش هامّ لصد الجيش العبد الوادي عن بجاية ، ووقع اللقـــاء بين الفريقين بوادي شارف ، شرقي القطاع القسنطيني ، فانهزم أبو يحيى شر هزيمة ، ولم يتمكن من صد هجوم بني عبد الواد الذين انتصروا عليه في هذه المعركة « واستولوا فيها على حرمه وذخائره ، وأفلت هو من الكائنة جريحاً الى قسنطينة ، ثم دخلوا تونس ، فأقاموا فيها أربعين يوماً ، وأسلموها لابن أبي عمران وحمزة بن عمر السليمي ، وقفلوا راجعين . » [1]

وهكذا استطاع بنو عبد الواد أن ينتهزوا فرصة قيـــام الفتن بإفريقية ، فتحالف أبو تاشفين مع أعـداء السلطان الحفصي ونجحت حركة جيوشه الى إفريقية كل النجاح .

استغاثة ابو يحيى الحفصي ببني مرين :

وأمام الفوضى التي أصبحت تسود بلاده ، لم يجد السلطان أبو يحيى بدّاً من الاستغاثة ببني مرين ، فأرسل الى فاس وفداً ليطلب من

---

(1) بغية الرواد ، ج 1 ، ص 139 .

أبي سعيد المريني مساعدته على دفع خطر بني عبد الواد ، ويعرض عليه عقد زواج بين ابنه أبي الحسن وإحدى الأميرات الحفصيات ، فاستقبل السلطان المريني هذا الوفد أحسن استقبال ، ووافق على تلبية طلب أبي يحيى ، وعلى عقد الزواج .

وكان ذلك ، بدون شك ، فرصة نادرة ، أراد بنو مرين اغتنامها ، ليحقّقوا حلماً كان يراود أذهانهم منذ عهد طويل ، وهو القضاء على دولة بني عبد الواد ، والاستيلاء على المغرب الأوسط .

فبعث أبو سعيد المريني رسلاً الى أبي تاشفين الأول ، يطلب منه الكفّ عن مهاجمة بلاد إفريقية ، والإقلاع عن حصار بجاية ، فكان الجواب بالرفض ، وفي تلك الأثناء توفي السلطان المريني ، وخلفه ابنه أبو الحسن ، فاعاد الطلب الذي قدمه أبوه ، شافعاً للسلطان الحفصي ، فكان رد أبي تاشفين لشفاعته أسوأ من الأول .

وعندئذ لم يبق أمل في استمرار السلم بين الدولتين وشرع أبو الحسن يستعدّ للهجوم على المغرب الأوسط ، ويتاهّب للحرب .

استيلاء ابو الحسن المريني على المغرب الأوسط:

وفي سنة(732 هـ) ، زحف أبو الحسن الى نواحي تلمسان ، ونزل شمالها بتاسالة ، مهدداً العاصمة العبد الوادية ، ثم أرسل الى صهره

الحفصي ، يدعوه الى مهاجمة العسكر العبد الوادي المتمركز قرب بجاية ، فنهض أبو يحيى الحفصي متجهاً نحو بجاية ، وعندمـــا علم جنود العسكر العبد الوادي باقترابه ، فرّوا من مقرّهم ، وأسلموه للحفصيين (733 هـ) .

ثم حاصر أبو الحسن تلمسان ، سنة (735 هـ) ، وأحكم حصارها ، واستعمل في حربها أحدث الآلات المعهـــودة آنذاك ، ولم يتمكن المحصورون من حمل الجيش المريني على الإفراج عن المدينـــة ، وكان أبو الحسن ، أثناء الحصار ، يبعث العساكر الى نواحي المغرب الأوسط، فاحتل جميعها ، كما أعاد تشييد مدينة المنصورة المحاذية لتلمسان .

وفي(22 رمضان737هـ – 24 ابريل 1337م)اقتحم الجيش المريني العاصمة العبد الوادية ، وملكها عنوة ، وانحاز أبو تاشفين وثلاثـــة من أبنائه ووزيره موسى بن علي الغُزّي إلى باب القصر ، يقـــاتلون دون الحرم والأولاد ، الى أن قتـــلوا جميعاً فكان ذلك أول انتصار هامّ حققه بنو مرين في المغرب الأوسط ، عظم به نفوذ أبي الحسن المريني وظهر بمظهر الملك القوي ، وذاع صيته في الآفاق ، وتأكّد لدى الجميع أن نجم بني عبد الواد قد أفل ، وأن دورهم التاريخي قد انتهى .

هذا وقد عامل السلطان المريني المنتصر أمراء بـــني عبد الواد ، وفرسانهم معـــاملة حسنة ، فشملهم بعطفـــه ، وأبقى لهم مناصبهم وامتيازاتهم ، وكفل أبنـــاء أبي تاشفين الصغار ، وأنزلهم في قصوره ،

واستعمل من توسّم فيه الكفاءة والشجاعة من الفرسان في جيشه وفي إدارته ، فحصلت له بذلك زعامة المغربين الأوسط والأقصى .

حركة ابو الحسن الى الأندلس :

ثم تفرغ أبو الحسن لشؤون الأندلس ، وعزم على تلبية استغاثة ابن الأحمر ، وصد عدوان النصارى على جنوب الجزيرة ، وانتصر الاسطول المريني، في أول الأمر، على الاسطول الاسباني (6 شوال 740هـ/ 5 أبريل 1340 م) . ثم اتصل الجيش المريني بجيش ابن الأحمر ، وحاصروا مدينة طريف ، فامتنعت عليهم ، وفي تلك الأثنـاء قدم جيش أسباني لإغاثة المدينة ، فاصطدم بجيش المسلمين ، وعندئذ خرجت الحامية الأسبانية المحاصرة ، فوجد المسلمون أنفسهم بين نارين ، وانهزموا شر هزيمـة ، وقتل أو أسر عدد كبير منهم (ربيع الثاني 741هـ/ أكتوبر 1340 م) فكانت وقيعة طريف أكبر انتصار أحرز عليه الأسبان بعد العقاب ، وعادت فلول الجيش المريني الى المغرب بالخيبة والفشل ، وقد حطت الهزيمة من معنوياتهـــا ولم يفكر أبو الحسن ، بعد ذلك في النهوض الى الجزيرة ، فكانت هذه الحركة آخر محاولة قام بها المرينيون في الأندلس .

وعندئذ ، وجه أبو الحسن عنايته الى ممتلكاته في المغرب ، فواصل نشاطـه العمراني ، مشيّـداً القصور والمساجد والأضرحة والمدارس ، ونالت تلمسان من هذه الانجازات حظاً وافراً ، كما لا تزال تشهد على

ذلك الآثار القائمة بالمنصورة وبقرية العُبّاد ، في ضاحيتها ، وتعدّ من أجمل نماذج الفن الإسلامي بالمغرب .

زحف ابو الحسن الى افريقية :

ولم يتمكن السلطان أبو الحسن من تحقيق أطماعه في البلاد الحفصية طوال عهد صهره أبي يحيى الحفصي ، وبعد وفاة أبي يحيى (2 رجب 747 هـ) ، اصطدم ولي العهد أبو العباس ، بمنافسة أخيه أبي حفص عمر ، ولم يتأخر هذا الأخير عن قتل أبي العباس ، والاستيلاء على العرش الحفصي .

وأمام هذه الحوادث ، رأى أبو الحسن أن يتدخل في شؤون إفريقية ، فعزم على الزحف اليها بجيوشه ، ومحاربة الأمير أبي حفص عمر ، زاعماً أنه بذلك ينتقم لمقتل ولي العهد الشرعي أبي العباس .

وفي (صفر 748 هـ)، غادر السلطان المريني تلمسان،حيث كان مقيما، بعد أن عين عليها وعلى المغرب الأوسط ابنه أبا عنان ، وتوجه نحو إفريقية ، فاحتل بجاية ، وقسنطينة ، وعنابة ، ثم تونس (جمادى الأولى 748هـ/ سبتمبر 1347م) وأقام بالعاصمة الحفصية ما يقرب من سنتين،وفي تلك المدة اجتمع ، لأول مرة ، ملك المغرب ، لبني مرين ، وبلغوا أوج عظمتهم آنذاك .

هزيمة ابو الحسن قرب القيروان :

الا أن أبا الحسن المريني واجه ، بعد استيلائه على تونس ، مشاكل خطيرة من جهة عدو لم يكن ينتظره ، وذلك أن قبائل العرب بإفريقية أبت أن تخضع لاستبداده، وأن تسلّم في امتيازاتها بجنوب إفريقية، وصمم أبو الحسن على محاربتهم الى ان يذعنوا لطاعته ، واجتمعت كلمة قبائل العرب ، ، وتصدوا لمحاربته ، فالتقوا بجيشه قرب القيروان، وهزموه، ثم حاصروه بالقيروان (محرم 749 هـ / أبريل 1348 م) .

ثم أفلت أبو الحسن من الحصار ، وعاد الى تونس ، فوجد بها عدوا أدهى وأمرّ من الذي لقيه بالقيروان ، الا وهو وباء الطاعون الذي مات منه خلق كثير من أتباعه ، من بينهم علماء مشهورون من بلاطه ، وساءت الحال في باقي المغرب ، بعد هزيمة القيروان ، وخصوصاً بتلمسان ، وفاس ، وشاع خبر وفاة أبي الحسن بالطاعون فخشي أبو عنان أن يؤول الملك الى غيره من الأمراء المرينيين، وكان ابن أخ له قد دعا لنفسه بالامارة بفاس ، فغادر أبو عنان تلمسان بعد أن نصب عليها أبا يحيى عثمان بن جرار ، المنتسب الى قبيلة بني عبد الواد ، واتجه الى فاس، حيث تغلّب بسهولة على منافسه في الحكم، وانتصب على العرش المريني.

وهكذا ، كانت حركة أبي الحسن الى افريقية مغامرة فاشلة ، أدت الى تصدّع ذلك الصرح الشامخ الذي شيّده أسلافه بعد جهود شاقة ، وأصبح في موقف حرج. فمقامه بافريقية محفوف بالاخطار ، وعرشه مهدد

من طرف ابنه أبي عنان ، ومن جهة أخرى ، فقد فطن لذلك أمراء بني عبد الواد وفرسانهم ، المنخرطون آنـــذاك في جيش ابي الحسن ، فالتفّـوا حول أميرين من بينهم ، هما أبو سعيد بن عبد الرحمان بن يحيي ابن يغمراسن ، وأخوه أبو ثابت ، وغادروا بلاد افريقية متجهين نحو عاصمة أجدادهم تلمسان لاحياء الدولة العبد الوادية .

احياء الدولة العبد الوادية على يد الاميرين ابي سعيد وابو ثابت :

واجتاز الأميران وجمعهما إفريقية والمغرب الأوسط ، حتى وصلوا الى سكّـاك في ملتقى وادي الصفصيف بوادي يسّر ،قرب تلمسان، وهناك اعترضت سبيلهم فرقة أرسلها ابن جرار لصدهم ، بقيادة أخيه ، ولكنها هزمت ، وتابع الأميران سيرهما ، فدخلا تلمسان ، في 22 جمادى الآخرة 749 هـ ، وأعادا لقبيلتهما ملكها .

وبادر الأميران بتنظيم شؤون الدولة،فتقلّـد أبو سعيد مراسيم الملك من سرير وخطبة وسكة ، بينما اختص أبو ثابت بقيادة الجيوش .

أما أبو عنان ، فإنه تظاهر بقبول الأمر الواقـــع ، وذلك أنه كان يريد أن يجعل من امارة تلمسان سدّا فاصلا بينه وبين أبيه ، والظاهر أن كل واحد من الطرفين كان يحتاج الى تأييد الطرف الآخر ويرغب في عقد حلف معه لمواجهة عدو مشترك ، هو السلطان أبو الحسن المريني .

وبدأ أبو ثابت باسترجاع نفوذ الدولة العبد الوادية في المغرب الأوسط ،

فأخضع الساحل الواقع شمالي تلمسان واحتل مدينتي ندرومة وهنين ، ثم نهض الى وهران وكان يحكمها بنو أجانا، فحاصرها أياماً ، ثم خرجت اليه حامية وهران،وهاجمت جيشه بعنف ، فخذله بنو راشد ، آنذاك ، وانحازوا الى جانب بني أجانا ، فانهزم بنو عبد الواد وأفلت أبو ثابت من المعركة ونجا الى عاصمته (آواخر 749 ه) .

وفي تلك الاثناء ، جاء نبأ قيام الناصر بن أبي الحسن بحركة معادية ، على رأس جيش معزز بقبائل عرب المغرب الأوسط ، مثـــل سُوَيد والدّيالِم والعَـطّـاف وحُصَـين . فأرسل أبو ثابت الى أبي عنان يخبره بأمرهم ، ويطلب منه المساعدة .

وفي (محرم750 ه)، بعث أبو عنان جميع من كانفي بلاده منفرسان بني عبد الواد ، لمؤازرة أبي ثابت في صدّ هجـــوم الناصر فنهض أبو ثابت بقومه متّجها نحو الشرق ، ولقي الناصر في منطقة شلف ، بواديَ ورك ، وانتصر عليه ، فتراجع الناصر الى بلادإفريقية .

وفي جمادىالأولى(750 ه)، غزا أبو ثابت وهران، بعد أن أعدّ لها العدّة، وفتحها عنوة، ثم غزا ناحية شلف في أواخر شوال(750 ه)، وهزم قبيلة مغراوة بوادي رهيو ، ثم بعثت مدينة مازونةببيعتها للأميرين .

فشل هجوم ابو الحسن المريني علو ناحية شلف :

وفي أوائل سنة (751 ه)، وصل الى تلمسان نبأ نزول أبي الحسن

المريني الجزائر ، عن طريق البحر ، قادماً من بجاية ، وانضمام سويد اليه، بقيادة ونزمار بن عريف ، وقبيلة توجين برئاسة عدّي بن يوسف ، فبعث أبو عنان حصة مرينية للمساهمة في مدافعة هذا الهجوم ، بينما قام أبو ثابت بعملية واسعة النطاق في الناحية الشرقية ففتح المدية ، وعيّن عليها عمران بن موسى الجبنوني،ثم اقتحم جبال تيطري ، جنوب المدية، وأخضع بها عرب حصين ، وتوغل الى فحص حمزة ، ثم عاد الى تلمسان (رجب 751 هـ) .

وبعد ذلك بقليل ، هاجم ابو الحسن المريني وابنه الناصر المنطقة الشرقية ، فاستولى الناصر على المدية ومليانة ، وقتل عمران الجبنوني ، فتوجّه أبو ثابت ، فورا ،الى لقائه بعد أن جمع ما استطاع من الجيوش، وانضمّت إليه مغراوة برئاسة علي بن راشد ، وكان اللقاء بتيعزيزن ، في ناحية شلف (10 شعبان (751 هـ) ، فانتصر أبو ثابت وانجلت المعركة عن مقتل الناصر وبعض كبار أنصار أبي الحسن ، ونجا هذا الأخير مع الشيخ ونزمار بن عريف ، زعيم سويد ، فتوجّها مع فلول الجيش الى الجنوب ، ثم قصدا المغرب الأقصى عن طريق الصحراء، وعاد أبو ثابت الى تلمسان ، فدخلها في فاتح (شوال 751 هـ).

وهكذا استطاع ابو ثابت أن يبعد خطر ابي الحسن وأحلافه عن المغرب الأوسط ، وأدرك السلطان أبو الحسن المريني أن محاولة أخرى لاسترجاع هذه المنطقة قد تشغله لمدة عن هدفه الرئيسي، وهو استرجاع عرشه وجعل حدّ لتمرّد ابنه ابي عنان .

الصراع بين ابي الحسن وابنه ابو عنان :

وتابع ابو الحسن سيره نحو جنوب المغرب الأقصى ، فاستولى على سجلماسة ، بمساعدة سويد ، ولكنه سرعان ما اضطر الى مغادرتها ، لأن أبا عنان زحف إليها بجيشه ، مما سبّب فرار سويد .

ثم احتل ابو الحسن مراكش ، وشرع يحاول استرجاع ممتلكاته في المغرب الأقصى ، غير ان أبا عنان لم يمهله ونهض الى محاربته ، فالتقى الفريقان على ضفاف وادي ام الربيع (ربيع 751 ﻫ/مايو 1350م)، فهزم ابو الحسن شر هزيمة ، وافلت من ساحة القتال ، فالتجـــأ الى الجنوب حيث آوته قبيلة هنتاته .

وفاة ابي الحسن المريني :

ثم حاصره ابو عنان في تلك الناحية ، وضّيق عليه الخناق الى ان نزل عن رغبته ، وتنازل له على العرش ، مقابل مبلغ مالي وبعض الثياب النفيسة ، ولم يتحمل ابو الحسن ما كلّفه كل ذلك من متاعب ومشاقّ ، فمرض اثناء ذلك ، واشتدّ به داؤه،الى ان لقي حتفه بجبال هنتاته 27 ربيع الاول 752 ﻫ/ 24 مايو 1351 ﻫ)، ودفن بعد ذلك بمقبرة بني مرين بشالة،

واصبح ابو عنان السلطان الشرعي للدولة المرينية،إلا ان حكمه كان لا يتجاوز حدود المغرب الأقصى ومنطقة صغيرة في جنوب الأندلس ، اما بنو عبد الواد، فانهم اغتنموا فرصة انشغال ابي عنان بمحاربة ابيه ، لمواصلة جهودهم في استرجاع المنطقة الشرقية .

زحف ابي ثابت الى المنطقة الشرقية :

وفي هـــذه المرة ، تصدى ابو ثابت لقبيلة مغراوة ، وكان سبب نهوضه إليهم ان احد امراء بني عبد الواد، يدعى محمد بن عمر الجُمّي، اجتاز بمنطقة شلف آتيا من تونس ، وعندمـــا مرّ بمازونة قتله بعض الناس من مغراوة ، فاهتبل ابو ثابت هذه الفرصة ، وقرر الزحف الى ناحية شلف للأخذ بالثأر ،ونهض اليها في (محرم سنة 752 هـ)،فلم يحرز، في اول الأمر، على ما كان يأمله من النصر لأن مغراوة اعتصمت بالجبال القريبة من تنس ، فارتحل عنهم وراح يفتح مدن المنطقة ، فاحتـــل برشك وشرشال ، ثم مليانة فالمَـدِيَّـة ، ثم زحف الى سهل مَتّيجة ، واستولى على الجزائر، وولى عليها القائد سعيد بن موسى بن علي الغُزّي (ربيع الثاني 752 هـ) .

ثم عاد ابو ثابت إلى ناحية تنس ، وحاصر الجبل المجاور لها ، الذي اعتصمت به مغراوة وشدّد عليهم الحصار ، الى ان ضاق بهـــم الامر ، فاستغاث اميرهم علي بن راشد ، بالسلطان ابي عنان المريني ، وطلب منه ان يكفّ عنه اذى بني عبد الواد ، فبعث ابو عنان الى ابي ثابت بالشفاعة في علي بن راشد وقومه، ولكن أبا ثابت لم يلب طلبه وتمادى في عمليته ، مواصلا الحصار ، الى أن اضطر الكثير من أنصار علي بن راشد الى التخـلّي عنه ، والفرار بما شيتهم ، وعندئذ التجأ الأمير المغراوي الى مدينة تنس ، فحاصره بها أبو ثابت أياماً ، ثم اقتحمها عليه ، وفتحهـــا

عنوة ، (16 شعبان 752 هـ) ، وقبض عليه ، وسجنه، ولم يتحمل علي بن راشد مذلّة الهزيمة والأسر،فذبح نفسه بسيفه ، وبموته انقرضت الامارة المغراوية بناحية شلف ، ثم عاد أبو ثابت الى تلمسان ، بعد أن ضمّ الى جيشه كثيراً من فرسان مغراوة .

واذا تأمّلنا في تسلسل هذه الحوادث ، وفي أهميتها بالنسبة لتطور الأوضاع السياسية في المغرب ، رأينا أن بني عبد الواد لم يفتؤوا ، منذ تأسيس دولتهم ، يسعون لجمع شتات قبائل المغرب الأوسط ، وتكوين قوة سياسية في هذا الاطار الجغرافي الواقع بين افريقية والمغرب الأقصى، فكلما تمكنوا من ابعاد الخطر المريني عن قطرهم ، قوي نفوذهم في سائر نواحيه،وفرضوا سلطتهم على مختلف المدن والقبائل القاطنة به، ولكن، اذا ما تغيّرت الأحوال ، ومني بنو عبد الواد بالفشل والهزيمة ، افترق الشمل، وخلعت المنطقة الشرقية الطاعة ، مما كاد يؤدّي الى فراغ سياسي في البلاد ، ينتج عنه حتما احتلالها من طرف الدولة المرينية .

ويظهر من هذه الحوادث الأخيرة ، أن بني عبد الواد ، تمكنوا من استرجاع نفوذهم السابق في المغرب الأوسط وقطعوا شوطا واسعا في استعادة قوتهم السالفة ، أما علاقتهم ببني مرين ، فانها تحولت شيئاً فشيئاً من طور الولاء والتبعية ، الى طور الاستقلال السياسي ، كما يبدو ذلك في موقف أبي ثابت أثناء حوادث تنس ، وامتناعه من إجابة طلب أبي عنان في شأن علي بن راشد وقومه ، ولا شك أن أبا عنان كان يهدف ،

من خلال شفاعته في مغراوة ، الى التدخّل في شؤون المغرب الاوسط، وإثبات نفوذه في المنطقة الشرقية ، وبالتالي الى الحدّ من توسّع بني عبد الواد فيها .

ولذا ، فعندما اتصل أبو عنان بخبر موت علي بن راشد ، غضب لرد شفاعته ، وعزم على الثار لزعيم مغراوة ، فحشد جموعه ، وأخذ يستعدّ لغزو تلمسان ، أما أبو ثابت ، فانه توجه إلى المنطقة الشرقية في (ذي القعدة 752 هـ)، لجمع الجيوش وتنظيم شؤون الناحية،وفي(ربيع الأول 753 هـ) ، احتل القائد العبد الوادي جابر الخراساني مدينة تَدَلّس ، الواقعة في حدود المغرب الأوسط الشرقية ، آنذاك ، وألحقها بالمملكة العبد الوادية .

استيلاء ابو عنان على المغرب الاوسط :

وفي تلك الأثناء ، وصل نبأ زحف أبي عنان إلى أبي ثابت ، وهو معسكر في منطقة شلف ، فاقلع عنها فوراً ، وأغذ السير نحو عاصمته ، فدخلها في 13 ربيع الثاني ، وتشاور مع مشيخة بني عبد الواد في الأمر ، فوقع اتفاقهم على لقاء بني مرين بسهل أنجاد ، في ناحية وجدة .

ونهض أبو ثابت بالجيش في اتجاه الحدود الغربية ، ثم لحق به أخوه أبو سعيد ، وأقاما معسكرهما بوادي إيسلي . وحينما حلّت جموع أبي عنان بتلك الناحية ، لم يمهلها أبو ثابت وحمل عليها بجيشه في حين غفلة

فكاد يهزمها لولا ثبات أبي عنان وصموده ، ثم أشتدت المعركة، وحمي وطيسها ، وانتهت بهزيمة الجيش العبد الوادي ، وقبض ، إثر ذلك ، على الأمير أبي سعيد، فامر أبو عنان بقتله (11 جمــادى الأولى 753هـ/ يونيو 1352 م) .

أما أبو ثابت ، فانه عاد الى تلمسان ، وغادرها في اتجاه المنطقة الشرقية ، متبوعاً بجيش مريني يرأسه القائد فارس بن ميمون، وقد آزرته قبيلة سويد ، ولم يحجم أبو ثابت عن لقائهم في ناحية شلف، غير أنه هزم ثانية (21 رجب 753 هـ) ، فانصرف الى الجزائر ، ومنها توجه نحو الشرق ، فمر بناحية تدلّس ، حيث انفرد عن فلّ جيشه ، ولم يبق معه الا نفر قليل ، وتنكروا مرتدين أطمارا بالية ، وعندما بلغوا جبل لِيزُّو ، قرب بجاية ، ألقي عليهم القبض ، وأتي بهم الى أميرها أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى الحفصي ، وكان هــذا الاخير يصانع أبا عنان ، خوفاً من سطوته ، فسلم اليه أبا ثابت ، وأبا زيان أبن أخيه أبي سعيد ، ووزيره يحيى بن داود ، فأمر بقتل أبي ثابت ووزيره ، وسجن أبا زيان .

وبذلك ، انتهى حكم الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ، وغُلِب بنو عبد الواد على أمرهم ثانية ، واستولى بنو مرين من جديد على تلمسان وسائر المغرب الاوسط .

زحف أبي عنان الى افريقية :

ولم يقف أبو عنان عند هذا الحد، بل تابع سيره نحو الشرق، وحصل على تنازل الامير أبي عبدالله عن بجاية (أواخر 753 هـ) ، ثم بعد خمس سنوات ؛ عزم على مواصلة هجومه على نواحي افريقية واستولى على قسنطينة(أواسط 758هـ) ثم وصل الأسطول المريني أمام تونس، وتمكن جنوده من احتلالها (رمضان 758 هـ) .

غير أن أبا عنان لم يتمكن ، بدوره من إخضـــاع عرب جنوب إفريقية ، فطاردهم ، وتبعهم بجيشه إلى نواحي بَسْكرَة ، بدون جدوى ، واخيراً ، سئم جنوده الحرب ، لما أصابهم من التعب والعناء ونادوا بالرجوع الى الغرب ، وانفض الكثير منهم من حوله ، فاضطر إلى العودة الى بلاده .

أما السلطان الحفصي أبو اسحاق ، فـانه كان قد غادر تونس قبيل احتلال المرينيين لها ، واتجه صحبة حاجبـه ابن تافراجين إلى الجنوب ، واستقرا مدة بالجريد، ولما انصرف أبو عنان إلى بلاده ، عاد أبو اسحاق وحاجبه إلى تونس في (ذي القعدة 758 هـ) ، وأخذ أنصاره من عرب إفريقية يشنون الغارات على الحاميات المرينية ، قصد استرجاع أراضيهم ونفوذهم .

وفي (رمضان 759 هـ)، بعث أبو عنان أحد وزرائه لإخضاع عرب إفريقية ، وإقامة السلطة المرينية على سائر القطر ، ولكنه لم يحصل على طائل ، وطارد الدواودة مدة ، فلم يظفر بهم ، ولم يحقق أي انتصار على

الحفصيين ، وبعـــد أن مهد منطقة أوراس ، قفل راجعاً إلى المغرب الأقصى .

وفاة ابو عنان

وهكذا أخفقت محاولات أبي عنان في الاستيلاء على إفريقية ، ولم تسفر هذه الحملات إلا على إرهاق جيوشه بالأتعاب والعناء ، وحملها على السخط ورفض مواصلة الحرب ، وبعد ذلك بقليل اشتد المرض بابي عنان ، وتوفي في(27 ذي الحجة 759 هـ/ 30 نوفمبر 1358 م) .

وكان لنبإ وفاته أثر بليـغ في سائر أقطار المغرب ، ولا شك أن فرسان بني عبد الواد تلقوه بارتياح كبير ، وأن أمل إحياء دولتهم من جديد أصبح يراودهم مرة أخرى ، فكان من نصيب أبي حمـــو موسى الثاني تحقيق هذه الأمنية .

الباب الثاني

الحياة الفكرية

التعليم :

كان التعليم منتشراً في شتى المـــدن والقرى ، وكان ينحصر ، في مرحلة أولى ، في تعـــلم الكتابة والقراءة ، وحفظ القرآن ، وذلك في الكتاتيب والزوايا والمساجد ، وفي مرحلة ثانية كان الطلبة يقبلون على النحو واللغة والفقه والأدب ، فينـالون بضاعـة وافرة تمكنهم من بلوغ مستوى لائق ، ومعرفـة دينهم ، والإلمـام بالعلوم الأدبية ، ثم كان الذين يريدون التخصّـص في العلم ، ينتقلون إلى المرحلة الأخيرة ، فيطرقون العلوم الدينية من قراءات وتفسير وحديث وفقه والعلوم العقليةوالأدب وغيرها بمزيد من التعمق والتفصيل ، وذلك في المساجـــد المشهورة ، كالجامع الأعظم بتلمسان ، وكان هذا الأخير شبه جامعة على النمطالقديم، مثل القرويين والزيتونة .

وكان طلبة العلم لا يكتفون بما يتلقّونه من العلوم في مدينتهم ، بل

يطوفون البلاد ، ويجوبون الأقطار ، للقاء العلماء المشهورين ، وكان الكثير منهم يرتحل الى أقطار المغرب الأخرى والأندلس والشرق ، فتأثرت الحياة الفكرية إلى مدى بعيد بهذا الاحتكاك مع علماء الأقطار الإسلامية الأخرى .

وبعد تفكك دولة الموحدين وتأسيس دول المغرب الثلاث ، رأى أولو الأمر بها أن يؤسسوا مدارس عليا ، على نمط المدارس النظامية وغيرها في المشرق ، لتكوين الموظفين في سائر المصالح الإدارية ، وكانت الأسبقيّة ، في هذا المجال ، للحفصيين ، فقد أمر أبو زكرياء الحفصي (المتوفى سنة 647 هـ) ببناء مدرسة ، وتلا ذلك بناء مدرستين بعده، بإفريقية ، في القرن السابع ، ثم مدرستين أخريين في القرن الثامن،وفي المغرب الأقصى بنى أبو يوسف يعقوب المريني مدرسة بفاس ، في أواخر سنة (679 هـ)، ثم تلتها مدارس أخرى في معظم المدن أثناء القرن الثامن .

أما في المغرب الأوسط ، فأول مدرسة أسّسها بنو عبد الواد ، هي التي أمر ببنائها أبو حمو موسى الأوّل بتلمسان ، في أول عهده ، وعيّن للتدريس فيها الأخوين ابني الإمام ، ثم بنى ابنه أبو تاشفين الأول المدرسة التاشفينية ، بجانب الجامع الأعظم ، في تلمسان أيضاً ، فكانت أهم مدرسة في المغرب الأوسط ، ثم شيّدت ، أيام الاحتلال المريني ، مدرسة بقرية العبّاد ، خارج تلمسان ، أمر ببنائها السلطان أبو الحسن

المريني ، سنة (748 هـ)، ثم مدرسة أخرى،بجانب ضريح الولي الصالح ابي عبد الله الشوذي الاشبيلي الملقب بالحَلوِي ، بناها أبو عنان المريني حوالي سنة (754 هـ) .

وكان الأمراء يولون عناية خاصة بهذه المعاهد العلميـــة ، ويجرون الأرزاق والمنح للأساتذة والطلبة والموظفـين بها ، ويعهدون بالتدريس فيها لأشهر العلماء.

أما طريقة التعليم ، الجاري العمل بها آنذاك ، فكانت طريقـــة الالقاء والشرح ، يعهد لأحد الطلبة بقراءة نص من كتاب مشهور في المادة المدروسة ، ويتولى الاستاذ بشرحه فقرة بعد فقرة ، حسب ما يتيّسر له من غزارة حفظه ، وسعة اطلاعه ، وسداد رأيه ، والطلبة يقيّدون في كراريسهم ما يسترعي انتباههم من المعلومات .

واعتاد الطلبة ، آنذاك ، أن يدرسوا العلوم المختلفة بواسطـــة المختصرات التي اشتهرت في عصرهم ، وكانوا يلجؤون أيضاً إلى مطالعة الشروح التي ألفت عليها .

العلوم الدينية

لقد تأثرت الحياة الفكرية في المغرب بالنزعات السياسية والمذهبية التي طبعته بطابعها ، وغذّت الأجيال المتتالية بما كانت تحمله في طياتها

من قيم وأفكار ، وكانت الحياة الفكرية ، إلى عصر الموحدين ، تكاد تنحصر في العلوم الدينية ، من تفسير وحديث وفقه ، وكان المذهب السني قد طغى على غيره من المذاهب في المغرب ، بعد انفصال بني زيري عن دولة الفاطميين ، وفي أيام المرابطين ، كان المذهب المالكي يحتل أعلى منزلة في المغرب وأصبح الاشتغال بالمسائل الفقهية أهم ما يعنى به العلماء .

ثم قامت دعوة الموحّدين ، فكانت مناهضة لهذا الوضع ودعت ، قبل كل شيء ، إلى الاعتناء بالأصول ، أي القرآن والحديث والى ترك الفروع وما ألف فيها من الكتب ، مثل المدوّنة ومختصر ابن الحاجب وغيرهما ، وفي الميدان الاعتقادي دعا الموحّدون إلى محاربة التجسيم ، وإلى الاعتماد على الحجج العقلية بجانب النصوص الشرعية ، فأدخلوا إلى المغرب مذهب الاشاعرة ، وكثر اهتمام المغاربة بالقرآن والحديث والكلام .

غير أن موقف الموحّدين من علم الفروع ، الذي كان ينحصر في تفضيل المذهب الظاهري على غيره من مذاهب أهل السنة ، أغضب كثيراً من فقهاء المالكية والأهالي ، ولم يزدهم إلا تعلّقاً بالفقه المالكي ، وتشبّثاً بعقيدة أهل السنه ، فلما بدأت الدولة المومنيّة تتخبّط في الفتن بين رجال الحكم ، وتتلاشى معنوياتها وقيمها ، حتى نبذت تعاليم المهدي ، وعاد الناس إلى الاشتغال بالفروع .

ولا شك أن الاصلاح الديني الذي حاول الموحّدون تطبيقه في المغرب، قد ترك آثاراً هامّة في تطوّر الحياة الدينية، ومن نتائجه البارزة للعيان، ذيوع كتب الغزالي في سائر أقطار المغرب، وكتب غيره من الأشاعرة كالباقِلاّنيّ والجُوينِيّ، وإقبال الناس على دراستها إقبالاً عظيماً، وبهذا خرجت العلوم الدينية في المغرب، من طور منابذة الرأي والعقل، وانتقلت إلى طور عقائديّ أكثر توازناً واعتدالاً، وأهم المؤلفات التي كانت تستعمل آنذاك، بالمغرب الأوسط، في تدريس العلوم الدينية، هي التالية :

- في التفسير : لامية الشاطِبِيّ، وتفسير ابن عطيّة، وأنوار التنزيل للبيضاويّ، والكشّاف للزمخشري، والتهذيب للبيهقي، والاستذكار للدارميّ.

- في الحديث : الصحاح الست، وعمدة سير النبيّ لمحمد بن الحاوي، والروضة للكُباريّ، وأرجوزة الحديقة.

- في الأصول : المستصفى للغزالي، ومختصر ابن الحاجب في الأصول.

- في الفقه المالكي : الموطأ، والمدونة، والتمهيد للبراذعي.

- في الكلام : الإرشاد للجويني، ومؤلفات الباقلاني، وغيرها،

ولنذكر الآن من اشتهر في العلوم الدينية، بالمغرب الأوسط، في القرن السابع وفي النصف الأول من القرن الثامن :

1) _ **أبو عبدالله** محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سليمان **التجيبي** ، [1] ولـد بلقنت، من عمل مرسيـة ، حوالي سنة(540 هـ) ، وأخذ بالأندلس عن القاضي أبي عبدالله بن عبد الرحـيم ، وعن ابن بشكوال، وعن أبي الحجاج يوسف بن ابراهيم العبدري وغيرهم، ورحل إلى المشرق ، فحج ، وأخذ عن كثير من العلماء ، منهم بالاسكندرية أبو طاهر السِّلَفِي ، واختص بـه ، وعني برواية الحديث وبالتاريخ ، ثم عاد إلى المغرب،فقدم إلى فاس ، سنة(594 هـ)، ثم إلى سبتة ، ثم استقر بتلمسان ، وروى عنه كثيرون منهم أبو الحسن القلعي، ومحمد بن ابراهيم الغسّاني ، وابن أبي العيش الخزرجي ، وأبو زيد الفازازي ، وغيرهم، وله كتب في الوعظ والرقائق ، وتوفي في جمادى الأولى سنة(610 هـ).

2) _ **أبو عبدالله محمد بن عبد الحق** بن سليمان اليعفري التلمساني (536 – 625) [2] أخذ عن أشهر علماء عصره بتلمسان ، كأبي الحسن بن أبي قنّـون ، وأبي بكر بن عصفور، وأبي علي الحسن بن الخراز، ورحل إلى فاس ومراكش وسبتة وإشبيليـــة ، لطلب العلم ، ثم ولي

---

(1) عن أبي عبدالله التجيبي ، أنظر : نفح الطيب ، ج 2 ، ص 360 ، فهرس الفهـارس ، ج 1 ، ص 191 ، جذوة الاقتباس ، ص 171 ، 172 .

(2) عن أبي عبدالله بن عبد الحق ، انظر : عنوان الدراية ، ص 149– 152 و 225 ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 45 – 46 ، وفيات ابن قنفذ ، ص 310 .

القضاء بتلمسان مرتين ، ودرس بهـــا العلوم الدينية من حديث وفقه وكلام ، وتخرج عليه عدد كبير من العلماء بتلمسان ، أمثال أبي زكرياء ابن عصفور ، وابن أبي العيش الخزرجي ، ومحمد بن إبراهيم الغساني ، وغيرهم ، وروي أنـه صحب الوليّـين أبا مدين شعيب بن الحسين وأبا عبدالله محمد بن محيو الهوّاري .

وقد ألف في الحديث كتاب « المختـــار في الجمع بين المنتقى والاستذكار »[1]

3) ـ أبو العيش محمد بن أبي زيد بن **محمد بن أبي العيش الخزرجي** التلمساني[2] كان إشبيلي الأصل ، روى عـــن أبي بكر بن يوسف بن مفرج بن سعادة الإشبيلي ، وأبي عبـدالله بن عبد الحق وأبي عبـدالله التجيبي ، وأبي محمد بن حوط الله ، وكان أديباً شاعراً ، أصولياً ، ألف كتباً في تفسير القرآن ، وفي العقائد ، وأصول الفقـه ، ونظم في التصوف والتوحيد وتوفي بتلمسان ، وتاريخ وفاته مجهول .

4) ـ **أبو زكريا** يحيى بن أبي بكر محمـــد **بن عصفور** العبدري التلمساني روى عن أبي عبدالله بن عبد الحق وغيره ، وأخذ عنـــه أبو العباس أحمد بن خضر البجـائي ، وأبو القاسم بن خضر ، ومحمد بن

---

(1) يوجد مخطوطاً في خزانة القرويين بفاس .

(2) أنظر : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 29 – 31 .

مرزوق ، جد الجد ، وتاريخ وفاته مجهول .

5) _ **ابو أسحاق** إبراهيم بن يخلف **التنسي** [1] روى عن أبي علي ناصر الدين المشدّالي ببجاية ، ورحل إلى المشرق ، فاخذ المنطق والجدل والكلام ، وغير ذلك من العلوم ، عن كثير من علماء تونس والقاهرة ، منهم القرافي ، وشمس الدين الأصبهاني ، وسيف الدين الحنفي ، وابن دقيق العيد ، ثم عاد إلى مسقط رأسه ' ولما استولى يغمراسن على تنس ، استقدمه إلى تلمسان ، وطلب منه أن يقيم فيها لتدريس العلوم الدينية ، فروى عنه كثيرون ، منهم أبو عبدالله بن الحاج العبدري صاحب المدخل ، وابن مرزوق ، جد الجد ، وغيرهما ، وألف شرحاً في عشرة أجزاء على كتاب « تلقين المبتدأ وتذكرة المنتهى » لأبي محمد عبد الوهاب المالكي ، في الفروع ، ولكنه ضاع أثناء الحصار الطويل ، وتوفي أبو إسحاق التنسي بتلمسان ، سنة(680 هـ) .

6) _ **أبو عبدالله** محمد بن أبي **بكر بن مرزوق** بن الحاج التلمساني [2] ، قدم جده مرزوق من القيروان ، واستوطن تلمسان ، وفيها ولد أبو عبدالله هذا سنة(629 هـ)، ودرس بها على أبي زكرياء بن

---

(1) عن أبي اسحاق التنسي ، أنظر : البستان ، ص 66 ، 68 ، نيل الابتهاج ، ص 35 - 37 .

(2) عن ابي عبدالله بن مرزوق « جد الجد » أنظر : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 48 - 49 ، البستان ، ص 226 .

عصفور ، وأبي إسحاق التنسي وأبي زيـد اليزناسني ، ومال إلى الزهد والتبتل ، فاشتهر بين العبّـاد الصالحين ، وعندما توفي في أوائل رجب 681 هـ ، دفن بدار الراحة من الجامع الأعظم ، ثم لمـــا توفي الأمير يغمراسن بن زيان ، دفن بازائه تبركاً بجواره .

7) _ **أبو اسحاق** ابراهيم بن محمـد بن خلف المري **التلمساني** [1] ، ولد بتلمسان سنة(609 هـ)، ورحل لطلب العلم ، ثم استقر بسبته،وبها توفي سنة(690 هـ)، وأبو اسحاق هذا هو العالم الفرضي المشهور بارجوزته في الفرائض ، التي ألفها سنة(630 هـ)، عندما بلغ من العمر (21سنة).

8) _ **أبو الحسن التنسي** ، أخـــو أبي اسحاق ، نال حظوة عند يغمراسن ، بعد وفاة أخيه ، ثم عند أبي سعيد الأول ،ودرس بتلمسان، ومن تلاميذه الآبلي ، ولما حاصر أبو يعقوب المريني تلمسان ، التحق به أبو الحسن التنسي (وكان قد خرج اليـــه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة ، فلم يعد) [2] ومكث في بلاطه مكرمـــاً إلى أن توفي قبيل انتهاء الحصار سنة(706 هـ)، وشهد السلطان أبو يعقوب المريني جنازته بضريح الولي أبي مدين شعيب ، ولم يشهد جنازة أحد قبله .

---

(1) انظر الاحاطة ، ج 1 ، ص 181 ، بغية لرواد ، ج 1 ، ص 39

(2) نفح الطيب ، ج 7 ، ص 140 ، عن أبي الحسن التنسي أنظر أيضاً الرحلة المغربية للعبدري ص 16

9) **ابو عبدالله محمد السلاوي** [1] ورد تلمسان فاراً من بني مرين، ولم يكن له حظ كبير من العلم ، فانكبّ على الدرس وأخذ بها عن عمران المشدّالي وغيره ، ثم عين للتدريس بالمدرسة التاشفينيـــة ، في عهد أبي تاشفين الأوّل وروى عنه المقرّي الكبير وغيره ، وتوفي سنة (737 هـ) ، قتله المرينيون عند فتحهم لتلمسان .

10 ــ **ابو زيد** عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله **بن الامام** ، أكبر الأخوين ابـني الإمام [2] وأصلهما من برشك ، رحـلا إلى تونس لطلب العلم، حوالي سنة (700 هـ)، فدرسا العلوم الدينية على تلامذة ابن زيتون، وأبي عبد الله بن شعيب الدكالي ، ثم عادا إلى المغرب الأوسط وانتحلا مهنة التدريس بالجزائر ، ثم بمليانة ، حيث اتصلا بأحد عمـال بني مرين عليها ، يدعى الكناني ، وذلك أيام الحصار الطويل ، ثم ، عند انصراف بني مرين إلى بلادهم ، عقب مقتـــل السلطان أبي يعقوب ، قدما إلى تلمسان مع الكناني ، فقدّمهما إلى أبي حمو الأول ، وأثنى عليهما ، فبنى لهما المدرسة المعروفة باسمهما ، وأقاما يدرسان بهـا ، إلى أن استولى أبو الحسن على تلمسان ، فصحباه ، وحضرا معه معركة طريف ، ثم عادا

---

(1) انظر التعريف بابن خلدون ، ص 61 ــ62

(2) لمن ابني الإمام ، انظر التعريف بابن خلدون ص 29 ــ 32 : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 71 ــ 72 ، البستان ص 123 ــ 129 ، نيل الابتهاج ، ص 166 ــ 168 و 190 ــ 193 المسند لابن مرزوق ، مخطوط الرباط ، ص 145 ــ 147 .

معه إلى تلمسان ، وتوفي أبو زيد بهـــا ، بعد ذلك بقليل ، سنة (743 هـ).

وكان لأبي زيد ابن الامام منزلة سامية عند أمراء تلمسان ، وعند أبي الحسن المريني ، وحظي برئاسة العلماء في مجلسهم ، وأخذ عنـــه كثير من العلماء المشهورين أمثـــال الآبلي ، والمقّري الكبير ، وأبي عبدالله الشريف ، وسعيد العقباني ، وابن مرزوق الجد وغـيرهم ، ومن تـآليفه شرح على مختصر ابن الحاجب في الفروع .

11) ـأبو **موسى عمران** بن‌موسى‌بن يوسف **المَشَدّالِيّ** [1] أصله من زواوة بجاية ، ولد سنة(670 هـ) . وأخذ على أبي علي ناصر الدين المشدّاليّ ببجاية ، وقدم تلمسان أيام أبي تاشفين الأول ، فاشتهر بغزارة علمه ، وبخاصة علم الفروع ، وأخذ عنه أبو عبدالله السلاوي ، وسعيد العقباني وأبو عبدالله الشريف ، وغـيرهم من كبـار علماء القرن الثامن الهجري ، وتوفي سنة 745 هـ ، حين عودتـه من مراكش ، أيام إمارة أبي الحسن المريني .

12) ـ **ابو عبدالله** محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو **التميمي** [2]، ينتمي إلى أسرة عريقة من أسر تونس ، وكان جده القاضي أبو الحسن

---

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 72 ، نيل الابتهاج .ص
(2) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 73 – 74 ، البستان ، ص 291 ، نفح الطيب ، ج 7 ، ص 159 .

علي قد شغل منصب العلامة والإنشاء في إمـــارة المستنصر الحفصي ، أخذ أبو عبدالله التميمي بتونس على أبي الطاهر بن سرور وغيره ، ثم قدم تلمسان ، وعين بها قاضياً ، ودرس العلوم الدينية ، وروى عنه أبو عبدالله الشريف ، والمقّـري الكبير وغيرهمـــا ، ومن تـآليفه ترتيب كتاب اللخمي على المدونة ، في الفروع ، وتوفي سنة(745 هـ) .

13) ـ ابو موسى عيسى ابن الامام ، وقد تقـــدم ذكر نشاته واستقراره بتلمسان ، والتحاقه ببلاط أبي الحسن المريني ، وبعد وفاة أخيه أبي زيد ، كانت له الصدارة بين العلماء في مجلس السلطان ، وصحبه إلى تونس ، وأذن له أبو الحسن في الرجوع إلى تلمسان حـين انتشار الطاعون بإفريقية ، ولكنه توفي بعد عودتـــه بقليل ، سنة (749 هـ)،وكان يميل إلى الاشتغال بالتعاليم، أي العلوم العقلية والطبيعية، وتخرج عنه كثير من العلماء ، أشهرهم الآبلي .

14) ـ ابو عبدالله محمد بن محمد المقّري (1) ، ولد بتلمسان في عهد أبي حمـو الأول ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها ، أمثـال الأخوين ابني الإمام ، وأبي موسى عمران المشدّالي ، والقاضي ابن عبد النور ، وأبي محمد المجاصي ، وأبي عبـد الله منصور بن هديـة ، وأبي عبد الله

---

(1) انظر البستان ، ص 154، نفح الطيب ، ج 7 ص 129 ـ 261 ، نيل الابتهاج ، ص 249 ـ 255 ، التعريف بابن خلدون ، ص 61 ـ 64

التميمي ، وابن النجار ، ولما احتـــل أبو الحسن المريني تلمسان ، سنة (737 هـ)، قدم معه علماء فاس، فدرس عليهم المقرّي ، واستفاد من أبي محمد عبد المهيمن الحضرميّ في الحديث والعربية ، ومن السَّطـِّي في الفقه والفرائض ، ومن الآبلي في التعاليم ، وغيرهم ، ثم رحل إلى بجاية ، فلقي بها من العلماء أبا عبد الله محمد بن يحيى البـــاهِلي المعروف بابن المسفّر وغيره ، ثم سار إلى تونس ، فأخذ بها عن القـــاضي أبي عبد الله بن عبد السلام ، والفقيه عبـد الله بن هارون ، والشيخ الصوفيّ أبي الحسن المنتصر ، والكاتب أبي عبد الله بن الَجيَّاب وغيرهم .

وعاد المقرّيّ إلى تلمسان ، ثم ما لبث أن غادرهـا في اتجـاه المغرب الأقصى ، فأقام مدة بفاس ، ودرس على علمائها ، مثل الشيخ أبي زيـــد عبد الرحمن بن عفان الجزولي ، وأبي العبـاس المكناسي ، وغيرهما ، ثم رحل إلى أغمات ، وانتقل بعد ذلك إلى شمال البلاد ، ماراً بسبتة .

ثم عاد إلى تلمسان ، فأقام بها مدة ، ثم توجه نحو المشرق ، فلقي بمصر أبا حيان النحوي ، وشمس الدين الاصبهاني وشمس الدين بن عدلان ، والشيخ الصوفي أبا محمد المنوفي .

ثم قام بفريضة الحج، (سنة 744 هـ)، ولقي بمكة أبا عبد الله بن عبد الرحمن التوزري ، وبالمدينة أبا محمد عبد الوهاب الجبرتي ، ثم رحـل إلى الشام ، فلقي بدمشق شمس الدين بن قيم الجوزية ، وصدر الدين الغماري المالكي ، وغيرهما ، وببيت المقدس أبا عبد الله بن مثبت ، وشمس الدين بن سالم ، وغيرهما

ورجع قافلا إلى المغرب ، فنزل بسلجماسة ودرعة ، ثم جاز إلى الأندلس ، فأقام مدة بغرناطة ثم عاد إلى تلمسان ، وصحب أبا عنان ، سنة(749 هـ)، إلى فاس، فولي القضاء بها وتابع التدريس بها إلى أن توفي فيها سنة(759 هـ)، فحمل إلى تلمسان ودفن بها .

ومن أشهر تلامذته لسان الدين بن الخطيب ، وعبد الرحمان بن خلدون ، والشاطبي وابن زمرك وغيرهم ، وقد ترك بعض التآليف : منها : كتاب الحقائق والرقائق ، في التصوف ، وكتاب المحاضرات ، وكتاب عمل من طب لمن حب ، وكتاب القواعد .

* * *

وانتشر التصوف في المغرب الأوسط بعد وفاة الولي أبي مدين شعيب بن الحسين (594 هـ) ، وممن اشتهر بتلمسان في هذه الفترة :

15) ـ **ابو علي** عمرو بن العباس **الحبّاك**[1] ، وتوفي سنة 613 هـ .

16) ـ **ابو عبدالله محمد بن عيسى**[2] ، من أهل أجادير، بتلمسان، وكان يغمراسن يزوره ويلتمس منه الدعاء والبركة ، وتاريخ وفاته مجهول .

17) ـ **ابو اسحاق الطيار**[3] ، المتوفّى حوالي سنة(700 هـ).

---

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 37 .
(2) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 44 .
(3) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 33 .

18) _ **ابو محمد** عبدالله بن عبد الواحـــد **الجاسي**[1] الملقّب بالبكّـاء ، لكثرة بكائه خشية وتقوى ، رحل إلى الشرق لطلب العلم ، وانتصب بتلمسان للتدريس والوعظ ، ومن تلامذتـــه أبو عبدالله الشريف وابن مرزوق الجد والمقّـري الكبير ، وتاريخ وفاته مجهول .

19 – الشيخ **ابو العلا**[2]) المتوفي في جمادى الأولى (سنة 735)، ودفن بمسجد الرحمة من العباد .

وقد ظل التصوف منتشراً في المغرب الأوسط ، في القرون التالية فتغلغل في سائر النواحي والأوساط ، وتمسك الكثير من الناس بالقيم التي كان يدعو اليها من زهد في الدنيا ، ورضى ، وتوكل ، وتبتل .

العلوم اللسانية والاجتماعية :

وهي اللغة والنحو والأدب والبلاغة والتاريخ والجغرافيا ،وتكثر ، في ذلك العصر استعمال التآليف التالية ، في هذه العلوم :

الكتاب لسيبويه ، والايضاح لأبي علي الفارسي ، والجمل للزّجاجي والعقد الفريد لابن عبد ربه، والأمالي للقالي، وديوان الحماسة ، والمعلقات السبع ، والأغاني ، وزهر الآداب للحصري ، والعمدة لابن رشيق ،

---

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 33 — 35 ، نيـل الابتهاج ، ص 142 ، نفح الطيب ، ج 7 ، ص 154 — 156 .

(2) – أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 36

ومقامات الحريري وديوان المتنبي ، وتآليف المعريّ ، والجعرافيا للزهري ، وكتاب المسالك والممالك للبكري وغيرها .

وكانت العلوم اللسانية تحظى بإقبال كبير ، وخاصة من طرف الكتّاب والشعراء ، واهتمّ علماء الدين ، أيضاً باللغة ، لما لها من اتصال وثيق بعلمي القرآن والحديث .

وقد برع في هذه العلوم كثير من الكتّاب والشعراء والأدباء ،نخصّ بالذكر أبرزهم :

20) – **أبو بكر** محمد بن عبد الله بن داود **بن خطاب** الغافقي **المرسي** [1] ، نزيل تلمسان ، نشأ بمرسية ، فقرأ العربية والنحو على أبي بكر محمد بن محمد المعافري القرشي ، ودرس الأدب على أبي علي الحسن بن عبد الرحمن الكناني الرفاء ، والحديث والفقه على أبي بكر محمد بن محرز الزهري ، والأصول على أبي المطرف أحمد بن عبد الله بن عميرة المخزومي ، ولقي غيرهم من العلماء والصلحاء ، ثم ارتحل إلى غرناطة وبها عين كاتباً للسلطان ، ثم عاد إلى مسقط رأسه إلا أن الفتن كانت ضاربة أطنابها هناك ، فأجاز البحر ، واستقر بتلمسان ، حيث شغل منصب كاتب في بلاط يغمراسن إلى أن توفي في عاشوراء سنة(636 هـ) ، وكان بارع الكتابة ، شاعراً ، أديباً .

---

(1) أنظر الرحلة المغربية للعبدري ، ص 15 – 16

21) - أبو عبد الله محمـــدبن عمر بن خميس التلمساني [1] ، ولد بتلمسان سنة(650 هـ)، فدرس على علمائها العلوم الدينية واللسانيـــة وغيرها ، وأشرف مدة على ديوان الإنشاء أيام السلطـان أبي سعيد الأول بتلمسان ، ثم غادر المدينة أثناء الحصار الطويل ، ونزل سبتة ، يريـــد التدريس بها ، ولكن مقامه لم يطل بها ، فانتقل إلى غرناطة ، وذلك في أواخر سنة(703 هـ)، فأقام بها في خدمة الوزير ابن حكيم .

وفي أواخر سنة (708 هـ)، رغب في العودة إلى تلمسان ، وكانت قد آسترجعت بعض رونقها وازدهارها بعد نجاتهـــا من خطر الحرب ، وانتهاء الحصار الطويل ، ولكنه لم يحقق هـذه الأمنية ، وذلك أنه لقي حتفه يوم عيد الفطر(708 هـ)، بغرناطة،عندما ثار بعض رجال البلاط على ابن حكيم وقتـلوه ، وكان ابن خميس في دار الوزير ، فأصابـه أحد الثوار بطعنة رمحه ، فارداه قتيلاً .

وابن خميس شاعر مطبوع ، فـــاق شعراء عصره ونبه ذكره في الآفاق ، وقد أثنى عليه العبـدري في رحلتـه ، وذكر بعض قصائده ، وكذلك يحيى بن خلدون في بغية الرواد ، وغيرهما . وقد فقد ديوانه ، غير أن ما ورد من نظمه في كتب الأدب والتاريـخ يشكل مادة لا تخلو

---

(1) عن أبن خميس ، أنظر : التعريف بأبن خلدون ، ص 40 ، بغيـة الرواد ، ج 1 ، ص 39 – 44 الرحلة المغربية للعبدري ، ص 11 – 15 .

من أهمية تنبىء عن قيمة ابن خميس وعلوّ كعبه ، وقد نشر الكثير منها عبد الوهاب بن منصور الحسني ، تحت عنوان « المنتخب النفيس من شعر أبي عبد الله بن خميس » .(1)

22) – **أبو عبد الله** محمد بن منصور بن علي **بن هدية** القرشي التلمساني (2) من نسل عقبة بن نافع الفهري ، كان فقيهاً أديباً كاتباً ، ذا بصر بالوثائق ، أنشأ ديوان الرسائل في عهد أبي حمو الأول ، وألف كتبا قيمة في الأدب والتاريخ ، منها « شرح على قصيدة لابن خميس » ، «وتاريخ تلمسان» ، وعين قاضيا بتلمسان ، ومن تلامذته المقري الكبير، وأبو البقاء البلوي وتوفي سنة (735 هـ) .

العلوم الطبيعية :

وتشمل التنجيم والرياضيات والطب والكيمياء والهيئة وغيرها ، وقد عرفت بعض هذه العلوم ازدهاراً كبيراً بتلمسان في هذه الفترة ، ولا شك أن أهم عوامل هذا الازدهار ما حققته الدولة الزيّانيّة من تقدم في الميدان الاقتصادي ، وما حدث من وفود كثير من العلماء والصّناع الاندلسيّين الى تلمسان، واستقرارهم بها، وما كان قائماً بين أقطار المغرب

---

(1) – طبع بتلمسان ، سنة 1365 هـ.

(٢) أنظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 51 – 52 ، البستان ، ص 225، نفح الطيب ، ج 7 ، ص 158 – 159

الإسلامي من صلات وثيقة ، مما شجع حركة الرحلات العلمية في سائر أنحائه .

ومن أشهر التآليف المستعملة في الرياضيات ، آنذاك ، «تلخيص أعمال الحساب» لابن البناء المراكشي ، وفي الطب ، كتاب « القانون » لابن سينا ، وفي التنجيم ، قصيدة الحباك وأرجوزة أبي إسحاق .

ومن أشتهر في التعاليم والعلوم الطبيعية :

23) **أبو عبدالله محمد بن علي بن النجار** التلمساني [1] مراكشي الأصل ولد ونشأ بتلمسان، وأخذ عن الآبلي ثم رحل الى المغرب الأقصى ،فدرس على أبي عبدالله محمد بن هلال ، شارح «المجسطي» ، بسبتة ، ثم أخذ بمراكش عن أبي العباس ابن البناء ، فنبغ في العلوم العقلية والتعاليم وعاد إلى تلمسان ، فدرس بها ، ، ثم التحق ببلاط أبي الحسن المريني ، أيام احتلاله للمغرب الأوسط ،وصحبه الى افريقية وتوفي بتونس سنة (749هـ)، بالطاعون ، ومن تلامذته أبو عبد الله الشريف ، والمقري الكبير ، وأبو الحسن بن الفحام صاحب المنجانة .

(24) **أبو عبد الله** محمد بن ابراهيم بن أحمد العبدري **الآبلي**

---

(1) انظر بغية الرواد ، ج 1 ص 55 ، التعريف بابن خلدون ، ص 48 نفح الطيب ، ج 7 ، ص 160 — 162

التلمساني [1] ، وأصل أجـــداده من آبلة بالأندلس ، ولد بتلمسان سنة (681 هـ) ، ونشأ بها في كفالة جده القاضي ابن غلبون، فشب على حب العلم ، ودرس على أبي الحسن التنسي ، وحذق التعاليم ، ثم كان الحصار الطويل ، فغادر المدينة اثناء ذلك ، قاصداً المشرق ، حيث أدى فريضة الحج ، ولقي كثيراً من العلماء الاعلام، ثم عاد الى بلاده ، واخذ عن أبي موسى ابن الامام علمـــاً غزيراً ، ثم استعمله أبو حمو الأول في ضبط الجباية ، ولم يستطب الآبلي هذه الوظيفة ، فغادر تلمسان ، ورحل الى المغرب الأقصى واتصل بأبي العباس بن البناء ، بمراكش ، وأخذعنه، ثم التحق بشيخ قبيلة هسكورة ، علي بن محمد بن تروميت ، وأقام عنده مدة ، قضاها في التدريس ، ثم استقر معه بفاس الجديد ، واتصل بأبي الحسن المريني ، فألحقه بمجلس العلماء ببلاطه ، وصحب الآبلي السلطان المريني مع غيره من العلماء ، في حركته الى الأندلس ، وحضر معركة طريف ، ثم انتقل معه إلى إفريقية سنة (748 هـ) ، ومكث بتونس إلى إن استدعاه أبو عنان ، بعد احتلاله للمغرب الأوسط ، سنة (753 هـ) فغادر الآبلي تونس،وحل مدة شهر ببجاية ثم وفد على أبي عنان بتلمسان

---

(١) انظر المسند لابن مرزوق ، مخطوط الرباط ، ص 147 ، بغية الرواد ج 1 ، ص 57 ، التعريف بأبن خلدون ، ص 21 – 23 و 33 39 ، نفح الطيب ، ج 7 ، ص 167 – 171 ،
N. Nassar, Le maitre d'Ibn Khaldun: al - âbili, in Studia Islamica, 1964 P P 103 - 115 ·

ونال عنده حظوة كبرى والتحق بمجلسه العلمي ، ثم سار معه الى المغرب الاقصى ، وتابع تعليمه بفاس الى ان توفي بها (757 هـ) في عهد ابي عنان.

ويعد الآبلي من أنبغ رجال عصره في العلوم الطبيعية، وقد ساهم مساهمة كبرى في تكوين جيل من العلماء الكبار في المغرب ، فممن تتلمذ له عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحيى ، والمقّري الكبير ، وأبو عبـــدالله الشريف ، وابن مرزوق الجد ، وسعيد العقباني وابن الصباغ المكناسي، وغيرهم .

* * *

وهكذا ، كانت هذه الفترة ، بالنسبة للحركة الفكرية في المغرب الأوسط ، مرحلة نمو وإشعاع ، نبغ فيها عدد وافر من العلماء في سائر الميادين ، وذاع صيتهم ، وشغلوا مناصب سامية في سائر أقطار المغرب، من قضاء وتدريس وكتابة وغير ذلك ، ونشطت العلوم كلها من نقليّـة وعقليّـة ، فأحرزت البلاد على تقدم ملحوظ في هذه المجالات .

ولعل أكبر عامل لهذا التطور الفكري الهامّ بالمغرب الأوسط ، هو ما حدث فيه من تأسيس الدولة العبد الوادية التي جمعت شتات الامارات الصغيرة القائمة به آنذاك ، وكوّنت امـارة قوية ، استطاعت أن تبعث الحركة الفكرية ، وتنهض بالعلوم وتشجّـع طلبة العلم والقائمين بتدريسه، وتتيح للشعراء والأدباء الفرص التي تمكنهم من إثراء الإنتاج الأدبي .

كما أن لهجرة الأندلسيين ، أثناء عصر الموحدين وبعده ، إلى تلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط ، أثراً هـاماً في هذا التطور ، فورثت قسطاً وافراً من الحضارة الأندلسية ، ونهلت من معينها الزاخر .

وتتجلى هذه الظاهرة في سائر مجالات الحضارة ، من عـلوم وفنون وصناعات ، وعمران .

الباب الثالث

الفنون والعمران

بدأت الحركة الفنية تعرف نشاطاً هاماً في عهد المرابطين وذلك عندما أسس يوسف بن تاشفين مدينة تاجرارت (سنة 474 هـ)، بازاء المدينة القديمة أجادير، فأصبحت تلمسان من أهم مدن المغرب الأوسط ونشط العمران، وشيّد وجهاء لمتونة وأمراؤهم المباني الجميلة الضخمة.

وفي عهد الموحّدين، أصبحت تلمسان مقرّ ولاة المغرب الأوسط وعني هؤلاء بتحصينها فأقاموا أسوارها، وشيّدوا المنازل الضخمة والقصور، وخصوصاً أثناء ثورة بني غانية التي قامت في بداية عهد أبي يعقوب المنصور، وشغلت الدولة الموَحّدية طيلة نصف قرن، مما أدّى إلى تخريب مناطق كثيرة، ومدن عديدة بإفريقية والمغرب الأوسط، وقد سلمت تلمسان من خطر بني غانية، بفضل مناعتها، فتواصلت حركة العمران بها، ولجأ اليها كثير من أهالي المدن الأخرى، التي خربها بنو غانية، فكثر الصناع والتجار بها، وعظم شأنها.

ولما أسَّس بنو عبد الواد إمـــارتهم ، وأصبحت تلمسان إحدى عواصم المغرب ، قطعت أشواطاً بعيدة في ميدان الفنون والعمران وقصدها كثير من أرباب الصنائع من مختلف مدن المغرب، ومن الأندلس فبلغت درجة سامية من الرقي والازدهار .

وكان اتصال حضارة المغرب بحضارة الأندلس أهم عامل في تنشيط الحركة الفنية بتلمسان وغيرها من المدن ، وكان سكان المدن يميلون إلى الاقتداء بالأندلسيين في شتى المجالات ، من موسيقى وغناء وشعر وكتابة فنية ، وفي مختلف الصناعات ، كصناعـــة النحاس ، ونحت الرخام ، ونقش الخشب ، وغير ذلك .

ولا شك أن أهم ما ظهر فيه تاثـير الأندلس ، الفن المعماري ، وما حققه الأمراء العبد الواديون من الإنجازات ، في هذا المجال .

فـكان من حظ يغمراسن في ذلك ، أن دعّـم تحصين تلمسان ببنـاء باب كشوطة ، وما يليهـا من أبراج وأسوار ، وشيد المشوار ، وجعله مقر الملوك الجديد ، ومما يؤسف له أن هذه المباني قد خربت ، ولم ينج منها إلا قليل من الأسوار .

وبنى يغمراسن مئذنة الجامع الأعظم بتاجرارت ، ومئذنـة جامع أجادير ، ولا تزال الصومعتان ، إلى عهدنا هـذا ، تشهدان على قوة الفن العبد الوادي ورشاقته ، وتناسب الأجزاء فيه وتناسقهـــا ، في عهد يغمراسن .

ومن آثار أبي سعيد عثمان بن يغمراسن ، مسجد أبي الحسن ، وهو تحفة رائعة ، لا تزال تفيض رقة وجمالاً ، وتشكل نموذجاً للفن العبد الوادي في عصر عزة هذه الدولة وقوتها .

أما ابنه أبو حمو موسى ، فانه كان مقبلاً على تشجيع العلوم والعلماء ، وهو الذى بنى أول مدرسة في المغرب الأوسط ، بتلمسان ، وعين للتدريس فيها الأخوين ابني الإمام ، فسميت باسمهما ، وقد لقيت مصير غيرها من المدارس العبد الوادية فلم يبق لها أثر ، غير أن المسجد الصغير الذي شيد بجانبها لا يزال قائماً .

ومن آثار أبي حمو الأول ، التي لا تزال ماثلة للعيان ، المسجد الواقع داخل المشوار ، وهو كذلك يحمل طابع الفن العبد الوادي المتأثر بالفن الأندلسي ، إلا أن قاعة الصلاة قد نالها بعض الأذى ، فذهب الكثير من زخارفها .

وكان أبو حمو الأول يشترط من القبائل الخاضعة لسلطته أن تقدّم له رهائن من أبناء أشياخها وبناتهم ، فلما كثر عدد الرهائن اضطر إلى إسكانهم في قصبة بناها لأجلهم ، في مكان يصعب تحديده ، ولعله كان يقع غربي المشوار ، في اتجاه حيّ المطمر .

وقد وصف عبد الرحمان بن خلدون هذه القصبة بقوله : « وهي الغور الفسيحة الخطة ، تماثل بعض الأمصار العظيمة ، اتخذها للرهن ، وكان يبالغ في ذلك ، حتى كان يأخذ الرهن المتعددة من البطن الواحد

والفخذ الواحد والرهط ، وتجاوز ذلك إلى أهـل الأمصار والثغور من المشيخة والسوقة ، فملأ تلك القصبة بأبنائهم وإخوانهـم ، وأذن لهم في ابتناء المنازل واتخاذ النساء ، واختط لهم المساجد ، فجمعوا بها لصلاة الجمعة ، ونفقت بها الأسواق والصنائع ، وكان حال هذه البنية من أغرب ما حكي في العصور عن سجن »[1] .

وأغرب من ذلك أن هذه القصبة كلها اندثرت ، واننا نجهل حتى المـكان الذي كانت قائمة به ، ومساحتها .

ويعتبر عهد أبي تاشفين الأول عصر ازدهار العمران بتلمسان وبلوغه أوج عظمته ورونقــــه ، وكان هذا الأمير يميل إلى اللهو واللذات ، واغتنام نعيم الدنيا ومسراتها ، وكان يمتاز عن أسلافه بذوق فنيّ مرهف، وتفهّـم لجمال الأشكال والصور ، « مع صدقـــه بالاختراع ، وبصره بالتشكيل والابتداع »[2] .

وقد ذكر التنسي ، في نظم الدر والعقيان ، أن أبا تاشفـين الأول « كان عنده شجرة من فضة ، على أغصانهـــا جميـع أصناف الطيور الناطقة ، وأعلاها صقر ، فإذا استعمل المنفاخ في أصل الشجرة ، وبلغ

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 215 .
(2) بغية الرواد ، ج 1 ، ص 134 .

الريح مواضع الطيور صوّتت بمنطقها المعلوم لمشابهها ، فإذا وصل الريح موضع الصقر صوّت فانقطع صوت تلك الطيور كلها »[1] .

وكان أبو تاشفين هذا ، ولوعاً ببناء القصور الأنيقة ، واغتراس الرياض والمتنزّهات ، واشتهر ، من بين قصوره ثلاثة هي دار الملك ، ودار السرور ، وأبو فهر ، ولم يشر المؤرخون إلى موقعها ، وقد خربها المرينيون عندما أغار أبو العباس أحمد على تلمسان ، سنة (786 هـ) ، فلم يصل إلينا شيء من آثارها ، وقد ذكر عبد الرحمان بن خلدون جمال هذه القصور فقال : « وكانت لا يعبر عن حسنها »[2] ، وكذلك أخوه يحيى ذكر أنها « لم تكن قبله لملك »[3] ، وكان تشييدها على يد البنائين والصناع الأندلسيين ، الذين جاؤوا إلى تلمسان بطلب قدّمه أبو تاشفين إلى السلطان أبي الوليد ، ملك غرناطة .

ثم إن أبا تاشفين الأول أمر ببناء مدرسة كبرى بجانب الجامع الأكبر ، بتلمسان ، سميت بعد ذلك باسمه ، وأودع فيها أجمل نماذج الزخارف التي احتوت عليها قصوره ، فكانت خدمة ثمينة للعلم والثقافة ، وكانت لا تزال قائمة عند احتلال الفرنسيين للقطر الجزائري،

---

(1) نظم الدر العقيان للتنسي مخطوط المكتبة الوطنية بباريس ، رقم 1875 « قسم عربي » ورقة 56 و .
(2) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 297 .
(3) بغية الرواد ، ج 1 ، ص 134 .

غير أنها هدمت عندما قام الفرنسيون بتنفيذ مشروع معماري يهدف إلى توسيع الطرق ، فبنيت البلديّة الحالية ، وأنشئت بجانبها ساحة كبرى ، مكان المدرسة التاشفينية ، سنة (1875 م) ، وقد وزعت بعض زخارفها الجميلة على بعض المتاحف الجزائرية والفرنسية .

هذا ، ويرجع حفر الصهريج الكبير ، بتلمسان ، إلى عهد أبي تاشفين، وتبلغ مسافته(200 متر)طولاً ومائة متر عرضاً ، وثلاثة أمتار عمقاً ، والظاهر أنه كان محاطاً بالمتنزهات ، وأنه كان معداً للفرجة ، وكذلك لريّ البساتين الواقعة شمال المدينة،وكان الماء يأتيه من المرتفعات التي تطل على تلمسان من الجنوب ، وهو من الآثار التي لا تزال ماثلة للعيان ، غير أنه ليس فيه ماء .

فكان كل هذا النشاط المعماري مما جعل الدولة العبد الوادية تنتقل من طور البداوة ، الذي كانت تكتسي طابعه قبل أبي تاشفين الأول ، إلى طور التحضّر [1] .

ولم يكن الاحتلال المريني أقل إنجازات في الميدان المعماري ، وكان أبو يعقوب يوسف قد اختطّ مدينة المنصورة أيام الحصار الطويل ، وبنى قصراً فيها ، وأحاطها بالأسوار وشرع في بناء مسجدها الأعظم ،

---

(1) انظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 133 ، كتاب العبر ، ج 7 ، ص 297 .

إلا أن الوفاة منعته من مواصلة الأعمال،ولم يشأ الأمراء العبد الواديون، بعده ، أن يتمّوا ما بدأه عدوهم من المشاريع المعمارية في المنصورة.

ولما زحف أبو الحسن المريني الى تلمسان ، وحاصرها مدة سنتين قبل احتلالها ، استقر بالمنصورة ، فأصلح عمارتها ، وبنى قصر النصر فيها ، سنة (744 هـ)، واتخذ المدينة الجديدة مقراً لامارته سنوات عديدة ، عني أثناءها بمتابعة بناء مسجدها الأعظم،ولم يدّخر وسعا في إتقانه، واستعمال المواد النفيسة ، من رخام وغيره .

وقد حدثنا الخطيب ابن مرزق في كتابه « المسند الحسن » عن مئذنته الشهيرة ، فقال : « ولا شك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها ، صعدتها غير مرة مع الأمير أبي علي الناصر ، وهو ، رحمة الله عليه ، على فرسه ، وأنا على بغلتي ، من أسفلها إلى أعلاها ، كأنّا في وطاء من الأرض ، وكانت على الباب الجوفيّ منه ولها ممرّان يطلع فيهما إلى أعلاها ، وكانت محكمة البناء والنجارة في الأحجار بصناعة مختلفة من الإحكاء في كل جانب ، ورأيت العمود الذي يركب فيه التفافيح ، وهو من حديد يشبه أن يكون صاريا ، وأما الثريا ،فكان عملها على يدي ، وأنا الذي رسمت تاريخها في أسفلها بخطي على ما هي عليه الآن في جامع تلمسان » [1] ، وقد منيت هذه المئذنة بتخريب

---

(1) انظر المسند لابن مرزوق ، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، رقم ق 111 ، ص 268 – 269 .

أعلاها وسقوط أحـــد شقيها ، فنالها من صروف الدهر أكثر مما نال مثيلتها بجامع حسان ، الذي بناه يعقوب المنصـور الموحدي بالرباط ، وعلوّ صومعة المنصورة ، على صورتها الحالية ، (38 متراً) .

وإذا كانت هـــذه الآثار الآن مجرد أطلال ، إذ لم يبق من مدينة المنصورة إلا بعض أجزاء السور وبعض أعمـــدة المسجد ، وما لا يزال قائماً من المئذنه ، فان هناك آثار أخرى ، لأبي الحسن المريني ، لا تزال محتفظة بجمالها ورونقها ، وهي التي تقع خارج تلمسان ، بقرية العبّاد، حول ضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب بن الحسين (المتـــوفى سنة 594هـ ،) ، وأجمـل هذه الآثار المسجد المحاذي للضريح ، وقد أشرف على بنائه عم ابن مرزوق الجد ، وصفه في كتابه « المسند الحسن »،فذكر أنه « اشتمل على الوضع الغريب ، وهو ان سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة على جهة تخالف الجهـــة الأخرى في الوضع ، قد رقمت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة ، فلا يختلج في النفس شك، ولا يعرض لها وهم أنها أشكال منجورة منقوشة ، وهي كلهـــا مبنيّـة إحكاء بالآجر والفضّـة ، واشتمل على المنبر العجيب الشكل المؤلّـف من الصندل والعاج والأبنوس المذهب .... وأما الباب الجوفيّ الذي ينفتح على المـدرج الذي ينزل فيه إلى قـبر الشيخ رضي الله عنه وإلى الشارع ، وهو باب النحاس المشتمل على مصراعين ، كل مصراع منهما مذهّب بالنحاس المخرّم المنقوش بالخواتيم المستوفاة المشتركة العمل ، وتخريمه على

أشكال من نحاس ملوّنة ، فهو من غريب ما يتحدث به الأسفار ...»[1]

ولا يزال هـذا المسجد ، الذي بـني سنة (739 هـ ،) كما وصفه ابن مرزوق ، بهجة للناظرين ، وآية من الفن المغربي الأندلسي ، بما في ذلك الصحن والمحراب والمئذنة .

هذا وقد أضاف أبو الحسن المريني ، إلى جـانب المسجد ، في سنة (747 هـ ،) مدرسة تشتمل على صحن وقاعة للدرس ، جميلة الزخارف، وغرف كثيرة للطلبة ، وقد قـام بعض ولاة تلمسان ، في عهد الأتراك ، بترميم ما سقط من زخارفها ، وهذه المدرسة تحتـاج الآن إلى إصلاحات هامة لتستعيد رونقها القديم .

وبعد ذلك بسنة ، كانت حركة أبي الحسن إلى إفريقية ، وتلا ذلك أحداث خطيرة ، أودت بعرشه ، وجعلت الحكم في المغرب الأقصى بيد ابنه أبي عنان ، وفي المغرب الأوسط ، للأميرين الأخوين أبي سعيد وأبي ثابت ، من بني عبد الواد .

ثم كان استيلاء أبي عنان على تلمسان ، واستقراره بها بعض السنوات قام أثناءها بتشييد بعض الآثار العمرانية ، وأهم هذه الآثار تقع أيضاً خارج تلمسان من الجهة الشمالية ، حول ضريح الولي الصالح أبي عبد الله الشوذي الاشبيلي ، الملقّب بالحَلْوِيّ ، والمتوفّى بتلمسان في أوائل القرن السابع الهجري ، وكانت تشمل مسجداً ومـدرسة وزاوية ، ولم

---

(1) نفسه ، ص 270 — 271 .

يبق منها اليوم إلاّ المسجد ، الذي بني سنة (754 هـ ،) ويمتاز برشاقة بابه ، وإتقان نقشه ، ورغم زوال بعض زخارفه ، فان مسجد سيدي الحلوي يعدّ من أهم آثار تلمسان التاريخية، وهناك ما يدعو الى الاعتقاد أن الأعمدة وكثيراً من الموادّ جلبت من بقايا المنصورة ، التي خرّبت أيام الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ، فاصبحت كلها أطلالاً جاثمة ، يخيّم عليها السكون والحزن ، كأنها مقبرة عظيمة ، أو مدينة قضى عليها زلزال أو انفجار بركان .

وهكذا ، كانت تلمسان ، عندما قام أبو حمو الثاني بحركته الموفّقة لإحياء الدولة الزّيّانيّة ، كثيرة العمران ، ذات حضارة راقية ، وقد نشطت فيها التجارة ومختلف الصناعات ، وزها فيها الفن المعماري ونفقت العلوم ، فكانت تنافس أمصار المغرب الأخرى في شتّى الميادين الحضارية والاقتصادية ، وتضاهي عواصم الدول الأخرى بما اشتملت عليه من آثار وعلماء وأدباء ، وأمن ورخاء .

القسم الثاني

حياة أبي حمو الثاني وآثاره

الباب الأول

حياة أبي حمو موسى العبد الوادي

نسبه :

يتصل نسب أبي حمّو موسى الثاني بمؤسس الدولة العبد الوادية يغمراسن ابن زيّان ، فهو أبو حمو موسى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الرحمان ابن يحيى بن يغمراسن ، ولم تكن الإمـــارة في أحد من أسلافه بعد يغمراسن .

أما يحيى ، فكان مولده سنة (639 هـ) مثل أخيه أبي سعيد عثمان وعيّنه أبوه على سجلماسة ، لما استولى عليها سنة (661 أو 662 هـ) ثم عقد له على ولاية العهد ، بعد مقتل ابنه الأكبر أبي حفص عمر في معركة تلاغ سنة (666 هـ) ، غير أن يحيى لم يعش طويلاً بعد ذلك ، وتوفي حوالي سنة (669 هـ) [1] ، بتلمسان ، فانتقلت ولاية العهد إلى أخيه

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 175 — 176 و238 ، بغية الرواد ج 2 ، ص 13 — 14

أبي سعيد عثمان ، وأصبحت الإمارة بعد ذلك في نسل هذا الأخير ، إلى أن استولى أبو الحسن المريني على تلمسان سنة (737هـ / 1337م) .

وأما عبد الرحمان ، فإنه ولد بسجلماسة ، أثناء ولاية أبيه عليها ، ونشأ بها ، ثم بتلمسان ، وكان فارساً شجاعاً اشتهر بين أبناء عشيرته ، حتى أن عمه أبا سعيد تخوّف منه على عرشه ، فأجازه إلى الأندلس بأولاده سنة (694 هـ) ، فأقام بها سنوات عديدة ، ثم انتقل إلى بلاط السلطان المريني بفاس ، فمكث هناك قليلاً ، ثم وفد على ابن عمه السلطان أبي حمو الأول ابن أبي سعيد ، بتلمسان ، سنة (712 هـ) ، وفي سنة (713 هـ) أجازه أبو حمو إلى الأندلس .

واستقر بعد ذلك بغرناطة ، في بلاط السلطان أبي الوليد بن فرج ، من بني الأحمر ، ولما شبّت الحرب بين هذا وقريبه أبي الجيوش نصر بن محمد ، كان عبد الرحمن ضمن الجيش الذي بعثه ابن فرج لمضايقة منافسه بوادي آش ، وتوفي في الهزيمة الكبرى التي مني بها جيش غرناطة ، بوادي فرتونة ، قرب وادي آش (6 جمادى الأولى 716هـ/ 17 يوليه 1316 م) (1) .

وأما أبو يعقوب يوسف والد أبي حمّو الثاني ، فإنه كان أكبر

---

(1) انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب ، ص 339 ـ 340 ، كتاب العبر ، ج 7 ، ص 238 ـ 239 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 14 ـ 15

إخوته ، ولد سنة (689 هـ) ، وتبع أباه مثل إخوته أبي سعيد وأبي ثابت وإبراهيم ، في سائر تنقلاته عبر المغرب والأندلس ، إلى أن لقي حتفه في معركة وادي فرتونة ، ثم أقام الإخوة الأربعة بالأندلس إلى سنة (723 هـ) ، حيث استدعاهم أبو تاشفين الأول إلى تلمسان ، وأكرم مثواهم ، وأعلى رتبهم بين أمراء بني عبد الواد . وبقيت حالهم على هذا الشكل إلى أن استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان ، فارغموا على الاستقرار بفاس ، ومكث بها أبو يعقوب إلى بداية إمارة أخويه أبي سعيد وأبي ثابت ، فعاد إلى وطنه .

وعندئذ ، لم يستقر بتلمسان ، بل فضّل أن يقيم بمدينة ندرومة ، الواقعة شمال غربي تلمسان ، وانتهت هذه الإقامة بسقوط إمارة أخويه، فنقل مع الكثير من بني عبد الواد إلى فاس ، حيث عاش إلى أن قامت دولة ابنه أبي حمو الثاني .

نشأته بتلمسان :

وهنا يصل بنا الحديث إلى الغرض من دراستنا هذه ، وهو ذكر حياة أبي حمّو موسى الثاني وآثاره ، ونشرع أولاً بالتعرض إلى نشأته، وذكر الفترة التي سبقت إمارته .

ولد أبو حمّو بالأندلس ، في مدينة غرناطة ، عاصمة بني الأحمر ، سنة (723 هـ) ، وفي تلك السنة عاد به أبوه إلى تلمسان ، باستدعاء من السلطان أبي تاشفين الأول .

ونشأ أبو حمّو في تلمسان ، مثل غيره من أبناء الأمراء ، فعرف حياة البلاط، وما تشتمل عليه من أبهة وترف ، وحفلات ، ودرس على أشهر العلماء ، فنال من العلم حظّاً وافراً مكّنه من تحصيل مبادىء العربية والعلوم الدينيّة ، ولم نجد ، في المصادر التي طالعناها ، إشارات حول أشياخ أبي حمو الثاني وأسماء من تتلمذ عليهم من العلماء .

إقامته بفاس :

ثم كان الإستيلاء المريني على تلمسان ، سنة (737 هـ) ، عندما بلغ أبو حمو (14)عاماً ، فعرف آلام الاغتراب ، بفاس، صحبة أبيه وكثير من أبناء قبيلته ، وقضى قسطاً وافراً من شبابه هناك ، وقد ذكر ابن الأحمر في كتابه « روضة النسرين » أنه أدرك أبا حمّو بفاس ، « وهو يسكن بها في عين أصليتن ، يتعيّش بردّ الفلك للمفكوكين ، وذلك في دولة المولى أبي الحسن المريني »[1] .

وقد يكون ذلك في آخر مقام أبي حمّو ، أي حوالي سنة (745 إلى 750 هـ) ، أما عن إقامة أبي حمّو ، منذ (737 هـ) ، فلسنا نعرف شيئاً وقد يكون وجّه نشاطه ، في هذه المدة لطلب العلم ، ولا سيا أن فاساً كانت من أهم مراكز الثقافة الإسلامية ، آنذاك ،

(1) روضة النسرين ، ص 58 .

وكان فيها الكثير من العلماء المشهورين ومن بينهم الآبلي ، الذي سبق ذكره فيما قبل .

ولسنا نشكّ في أهمية إقامـــة أبي حمّـو بفاس ، بالنسبة لتكوينه العلمي والأدبي ، وذلك أنها تناسب فترة تحصيل العلوم في حياته ، إذ تمتد من سن الرابعة عشرة إلى السابعة والعشرين ، وإذا راعينا مستوى أبي حمّـو العالي في الفنون الأدبية ، ودرسنا إنتاجه النثريّ والشعريّ ، تأكّد لدينا أنه لم ينقطع عن الاشتغـــال بطلب العلم ومطالعة كتب الحكمة والأخلاق والسياسة ، والعلوم الدينيّـة ، كما يظهر ذلك من خلال آثاره الأدبيّـة .

عودته الى وطنه :

لا تذكر المصادر تاريخ مغـادرة أبي حمّـو لفاس ، ورجوعـه إلى وطنه ، والظاهر أنه قدم منها إلى تلمسان مع أبيه وابن عمه أبي زيان ابن أبي سعيد ، في أوائل سنة (750 هـ) .

واستقر أبو حمّـو مع أبيه بندرومة ، وعاش هناك بعيداً عن كل نشاط سياسي ، مقتفياً سيرة أبيه « في السكون والدعة » ، وتزوّج في هذه الأثناء ، فولد له ابن بندرومة ، سنة (752 هـ) سمّـاه أبا تاشفين ، وهو أكبر أبنائه .

وقد يتساءل القارىء عـــن سبب استقرار أبي حمّـو ووالده

بندرومة ، وتركهما العاصمة وقصورها ومنازلها الرفيعة ومعاهدها العلميّة ، أما عبد الرحمان ابن خلدون وأخوه يحيى ، فإنهما ذكرا أن ذلك كان لرغبة والده أبي يعقوب في الزهد عن الدنيا وملذاتها .

وقد تكون تلك العزلة لدافع سياسي ، أغفله المؤرخان المذكوران . وذلك أن أبا يعقوب كان أكبر إخوته ، وكانت التقاليد المعمول بها تعيّن للامارة الأكبر سناً ، فطبيعي أن يحذره أخواه ، أبو سعيد وأبو ثابت على عرشهما ، كما فعل أبو سعيد الأول وابنه أبو حمّو ، مع أبيهما عبد الرحمان ، فأجازاه إلى الأندلس مرتين .

فانقطاع أبي يعقوب وابنه أبي حمّو إلى العبادة والزهد بندرومة ، كان يهدف ، في نظرنا ، قبل كل شيء ، إلى الإعراب عن خلوّ ذهنهما من كل طموح سياسي ، مما يطمئن أبا سعيد وأبا ثابت ، ويجعل حدّاً لتخوّفهما ، هذا ، ولسنا نشك في صدق ميول أبي يعقوب وأبي حمّو إلى العبادة والزهد ، وإن كان قد ظهر منهما ، بعد مقتل أبي سعيد وأبي ثابت ، اهتمام كبير بالشؤون الدنيوية والسياسية ، فأبو يعقوب مثلاً ، قاد الجيوش وحكم المنطقة الشرقية ، في السنوات الأولى من إمارة ابنه أبي حمّو ، مما يدلّ على أن تلك العزلة كانت مؤقّتة ، ولدوافع سياسية ، قبل كل شيء ، هذا ، ولم نجد في المصادر التاريخية ما يثبت أن أبا يعقوب وابنه قد أجبرا على الإقامة بندرومة ، مع أن ذلك مما يحتمل وقوعه ، وكان تغريب الأمراء ، من الأساليب الجاري العمل

بها ، قصد تفادي ما يمكن حدوثه من جانبهم من فتن ومؤامرات ، ولا يعقل أن يغادر أحدهم عاصمة الدولة ، بما فيهـــا من قصور ومدارس ومساجد ، وحياة رغدة للانزواء بعيداً عنها في قرية أو مدينة صغيرة، من دون سبب قاهر .

ثم لحقت بني عبد الواد هزيمة أنجاد ، ولم نعثر في المصادر التاريخية على ذكر مشاركة أبي حمّو في هذه المعركة ، وكذلك في وقيعة شلف، بعدها بين الجيش المريني وفلول الجيش العبد الوادي ، ويظهر أن انزواءه مع أبيه بندرومة لم يسمح له بالانخراط في صفوف المقاتلين العبد الواديين وخوض هاتين المعركتين .

وقد نتج عن انتصار بني مرين ، أن هرع من لم يقع في أسرهم من بنى عبد الواد ، إلى مختلف النواحي ، ملتمسين النجاة ، فمنهم من رحل إلى الأندلس ، أو إلى أفريقية ، ومنهم من التجأ إلى المناطق الجنوبية مما يلي الصحراء .

أما أبو حمّو ، فإنه توجّه مشرقاً نحو الأراضي الحفصيّة ، وقد يكون التحق بأبي ثابت بعد وقيعة شلف [1] ، وتبعه إلى الجزائر ، ثم إلى ناحية بجاية ، حيث ألقي القبض على أبي ثابت ورفاقه .

---

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 17 .

ويوجد بين ما ورد في المصادر التاريخيـــة حول حادث القبض على أبي ثابت ورفاقـــه ، بعض الاختلاف ، فيما يخص دور أبي حمّـو أثناء ذلك .

أما يحيى بن خلدون ، فإنه ذكر الحادث بشيء من الاسهاب، وجعل فيه لأبي حمّـو الدور الأكبر ، فقال : « فلما عثر عليهـــم بلِيزْو ، من أحواز بجاية ، وجيء بهـــم في أسحال التنكير ، قيل من السلطان أبو ثابت منكم ، فابتدر هذا الخليفـــة أيده الله (أبو حمّـو) ، مؤثراً نجاة صنو أبيه ، وباذلاً لفائدته مهجته ، وسامحاً دونه من حياتـه بما لم يسمح بمثله أحد قبله ، وقال أنا ، فاعتوره القوم محولاً وصاحبـــاه يتلوانه راجلين ، وهو يقول : اتركوهما ، فقد ظفرتم مني بحاجتـكم إلى أن وصلوا معسكر فارح ، علج صاحب بجاية يومئـذ ، بخميس تيكلات ، وكان به من عرف السلطان أبا ثابت رحمه الله ، فانتقلت أيدي الظنـة إليه ، ومالت عيون الرصد نحوه ، وسئـــل من الجائد دونك بنفسه ، فقال معمّـياً لشأن ابن أخيه ، هو من خول النعمـــة وتبـع الدولة ، وأنشدكم الله إلا ما سرّحتموه ، فخلوا سبيـــله ، وانصرف راشداً لطيته » [1] .

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 17 — 18 .

وقد نقل التنسي هذه الرواية عن يحيى بن خلدون ، فأوردها في كتابه « نظم الدر والعقيان » من دون أن يغيّر فيها شيئاً .

إلا أن المصادر الأخرى لا تتفق مع هذه الرواية ؛ فقد جاء في كتاب « زهر البستان » أن فلّ جيش أبي ثابت ، الذي كان قد التجأ إلى الجزائر ، افترق شمله ، بعد أن تملك بنو مرين هذه المدينة ، فاتجه بنو عبد الواد نحو المنطقة الشرقية و « أخذ كل أحد في البلاد طريقه ، وترك أهله وصديقه ، فكان المولى أبو حمو في جملة من خرج ، وعاين المشقة والحرج ، فدخل تونس .. » [1] ولسنا ندري هل وقع ذكر هذا الحادث بمزيد من التفصيل في آخر السفر الأول من هذا الكتاب ، وهو مفقود ، أو هل يمكن أن يفهم من هذا النص أن أبا حمّو سلك طريقه وحده بعد خروجه من الجزائر ، ولم يلق عليه القبض قرب بجاية ، مع عمه أبي ثابت .

أما عبد الرحمان ابن خلدون ، فإنه ذكر أبا حمّو في جملة من صحب أبا ثابت بعد مغادرته للجزائر ، وحين مروره ببلاد زواوة ، غير أنه لم يذكره من بين الذين أخذوا في جبل ليزو واكتفى بقوله : « وعثر عليهم بساحة البلد ، وتقبض على الأمير أبي ثابت الزعيم ، وابن أخيه محمد بن أبي سعيد ، ووزيرهم يحيى بن داود ، وأدخلوا الى بجاية » [2] .

---

(1) زهر البستان « السفر الثاني » ، ورقة 5 و.
(2) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 253 – 254 .

والجدير بالملاحظة ، في هـذا الصدد ، أن المؤرخ الذي نسب لأبي حمّو دوراً بطولياً في هذا الحادث ، يحيى بن خلدون ، كان كاتب السلطان الزيّاني ومستشاره ، وأنه ألّف كتابه « بغية الرواد » بقصد تمجيد عهد أبي حمّو وتخليد ذكره ، فليس من الغريب أن ينسب له أعمالاً ، شاع ذكرها بين رجال البلاط ، من دون أن يحاول التثبّت من صحتها ، والتشكّك فيما قد يكون مجرّد إشاعات تخيّلها بعض رجال البلاط ، بقصد إعلاء شأن السلطان ، وإثارة إعجاب الخاص والعام بشجاعته وبسالته .

ويظهر أن عبد الرحمان ابن خلدون لم يقتنع بصدق هذه القصة ، فلم يذكر أبا حمّو من بين الأشخاص الذين ألقي عليهم القبض ، كما أنه لم يشر إلى شيء مما جاء في كتاب أخيه يحيى حول دور أبي حمّو أثناء ذلك ، ولسنا نشكّ أنه كان قد سمع هذه الحكاية ، أثناء مقامه بتلمسان مثلاً ، وأنه ارتأى أنها أقرب إلى الخيال والأسطورة منها إلى الحقيقة التاريخية .

والذي نراه أن البحث في هذا المجال لا يقتصر على فحص ما أورده المؤرخون من الأخبار ، وإنما يقتضي معالجة الموضوع من زاوية أوسع، وذلك بالالتفات إلى المعطيات النفسية المحيطة بهذا الحادث وإلى ما يمكن افتراضه من دوافع وعوامل للدور الحقيقي الذي قام به كل من أشخاص القصة .

وهناك ملاحظة أولى حول هذا الموضوع ، تتعلق بنوعية العلاقات التي كانت تربط بين أبي ثابت وأخيه أبي يعقوب قبل هزيمة أنجاد ، وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ابتعاد أبي يعقوب عن بلاط أخويه الأميرين ، واعتزاله بقصبة ندرومة ، وإلى ما يمكن استنتاجه من شعور الحذر والتخوّف في موقف أبي يعقوب ، إذا كان اعتزاله من إرادته ، وفي موقف أخويه الأميرين ، إذا كان اعتزاله باستشعار وأمر من طرفهما .

وعلى كل ، فلسنا نرى أن عواطف أبي حمو نحو عمّيه الأميرين كانت قويّة إلى درجة أن يقدم نفسه فداء لإحداهما ، بل نعتقد أن العلاقات بين أبي يعقوب وأخويه لم تكن طيبة إلى حد يجعل أبا حمّو يضحّي بحياته لأجل عمه أبي ثابت .

وإذا كان لشاب من أقرباء الأميرين أن يجود بنفسه في سبيل نجاة أبي ثابت ، فهناك شاب لا يقل شهامة وشجاعة عن أبي حمّو ، هو أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد ، الذي ألقي عليه القبض مع عمه أبي ثابت ، وسجن عند بني مرين بعد ذلك سنوات عديدة ، وكان أبوه وعمه أبو ثابت قد استحوذا على الملك ، دون أخيهما الأكبر أبي يعقوب ، والد أبي حمو .

وأبو زيان هذا ، كان بعد ذلك أكبر خصم لأبي حمّو ، أثناء إمارته ، فنافسه في الحكم مدة سنوات عديدة ، كما سنرى فيما بعد ، وهدّد

عرشه مراراً ، ممّا يدلّ دلالة واضحة على فتور العلاقات بين الأسرتين .

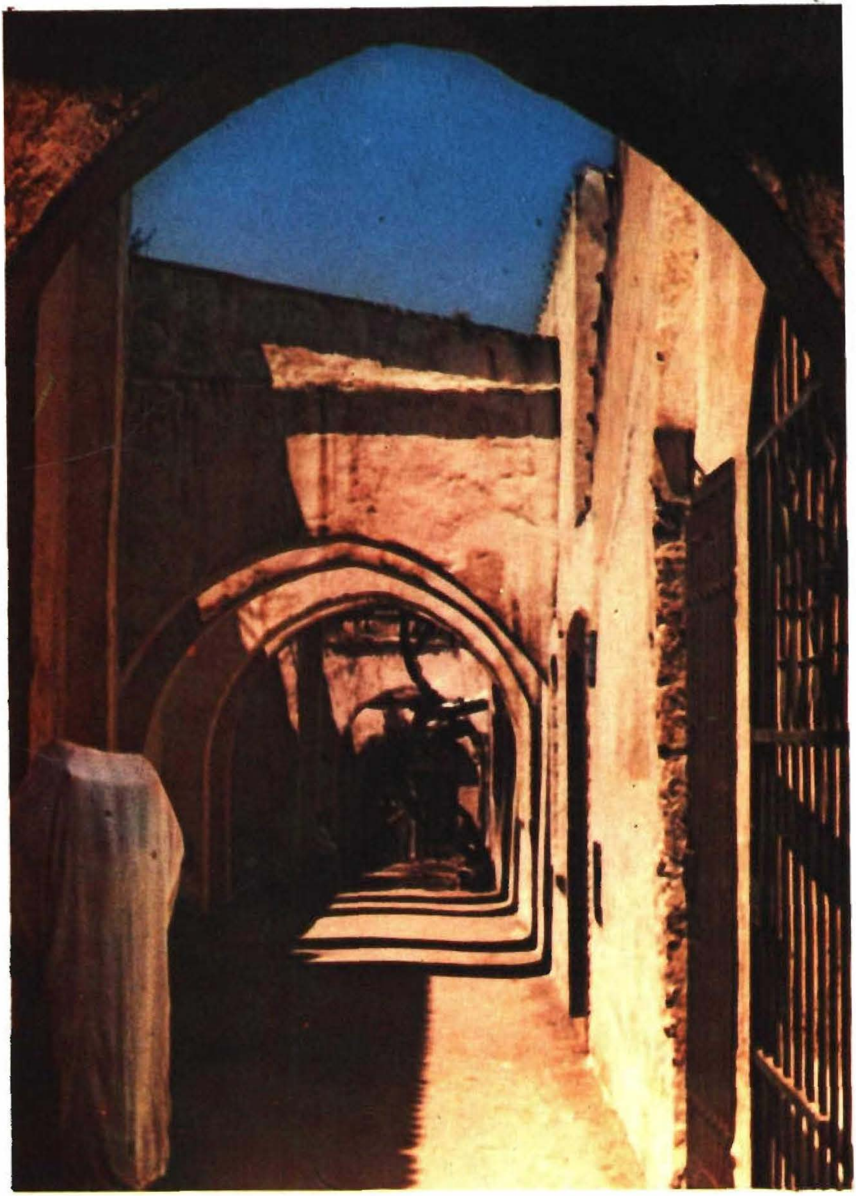
ثم إذا اعتبرنا ما كان يجيش في نفس كل أمير من طموح وعلوّ همة ، أدركنا أن وقوع أبي ثابت وابن أخيه أبي زيّان، بين أيدي بني مرين، كان من شانه أن يفسح المجال لأبي حمّو في التطاول إلى الامارة العبد الوادية ، ولذا ، فالظاهر أنه ، في تلك الظروف ، لم يفكر إلا في النجاة من العدو ، مثلما فعل سائر أمراء وفرسان بني عبد الواد الذين هزموا في معركة أنجاد ، أو الذين لم يشاركوا فيها وبلغهم نبأ الهزيمة فغادرت بنو عبد الواد بلادها « فراراً ، آخذة بكل ناحية ، طالبة للبلاد القاصية ، بعد أن أخذ من شيوخهم ووجوههم ما نيف على سبعمئة .. فجازت فرقة منهم للبلاد الافريقية ، وفرقة للبلاد الأندلسية ، وفرقة للجريد والزاب ، وفرقة بين ظهور زناتة والأعراب » [1] .

وبهذا يتضح لنا ان هزيمة أنجاد كانت أول باب انفتح أمام ابي حمو في طريق الملك ، وان طموحه في الامارة لم يزدد الا تمكنا ورسوخا بعد هذا الحادث المؤلم ، وأنه أصبح بعد ذلك يسعى بكل جهده إلى إحياء الدولة العبد الوادية ، تحت رئاسته وحكمه .

ولذا،فرواية يحيي بن خلدون لا تمثل عندنا الا ما كان شائعاً بين رجال

---

(1) زهر البستان ، ورقة 1 ظ .



ممر قديم بجانب الجامع الأعظم

البلاط بتلمسان ، وأنصار الدولة ، من الحكايات الموضوعـة ، التي ترمي الى تمجيد الملوك ، وتحبيبهم الى الناس .

ولا شك أن أبا حمو لم يكن ، آنذاك ، من الأمراء المشهورين الذين كان الناس يتوسمون فيهم علو المنزلة ، وبلوغ أسمى مراتب الحكم ، لما سبق ذكره من سلوك طريق أبيه في الابتعاد عن الساسية . أما طموحه السياسي ، فلم يظهر الا أثناء أقامته بإفريقية ، في السنوات التي تلت سقوط إمارة عميّـه أبي سعيد وأبي ثابت .

وكان وصول أبي حمو الى تونس في 6 شوال (753 هـ) . [1] «ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين . فاكرم نزله وأحلّـه بمكان أعياص الملوك من سلطانه ، ووفّـر جرايته ونظم معه آخرين من فلّ قومه» . [2]

وامتدت اقامتـــه بتونس الى أوائل رجب (758 هـ) . [3] وكان أثناء مقامه بها يجتمع بالوافدين من المغرب الاوسط ، ويتطلع الى أخبار تلمسان ومآل أبناء قبيلته في شتى النواحي ، والى أحوال بني مرين وأنباء السلطان أبي عنان . [4]

---

(1) أنظر زهر البستان ، ورقة 5و .

(2) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 255

(3) انظر زهر البستان ، ورقة 5ظ .

(4) نفسه ، ورقة 5 و

وكان الحفصيون واتباعهم . آنذاك ، يخشون هجمات الجيوش المرينية على إفريقية ، ويتاهّبون لمواجهة خطرها.

وفي أوائل رجب (758 هـ) ، غادر ابو حمّو تونس ، واستقر مدة في ضاحيتها. وذلك عندمااغار أبو عنان على ناحية قسنطينة ، وحاصرها مدة شهرين ، ثم دخلها بعدأن استسلم أميرها أبو العباس الحفصي (أواسط 758 هـ) .

وفي أواخر شعبان، التحق أبو حمّو بالسلطان الحفصي أبي إسحاق وحاجبه ابن تفراجين ، وتوجه معهما الى القيروان ، ثم الى جنوب البلاد، ونزل معهما قفصة. وكان أبو عنان ، في تلك الأثناء ، قداستولى على عنابة ثم تونس ، وشرع يستألف العرب وسكان الجنوب ، فاطاعه الدواودة من قبيلة رياح ، وسكان الجريد .

أما أبو اسحاق وجمعه، فانهم اتصلوا بعرب أولاد أبي الليل وحصلوا على تاييدهم ، وتوجهوا نحو الجريد لاخضاعه ، فحاصروا نفطة وتوزر، ثم صالحوا أهل المنطقة ، وساروا بعد ذلك نحو الجنوب الغربي، الى ناحية تبسّة . [1] .

وتلا ذلك انفصال الدواودة عن السلطان المريني . وذلك أن أبا عنان أقدم ، مثل أبيه قبله ، على إلغاء امتيازات العرب في بعض مناطق

---

(1) نفسه ، ورقة 5 ظ ، انظر كذلك بغية الرواد ج 2 ، ص 20 .

إفريقية كضريبة الخفارة التي كان العرب يفرضونها على الأهالي والمسافرين وتعرّض الدواودة الى مطاردة الجيش المريني ، فاصحروا ، وتبعهم أبو عنان الى ناحية تبسة، ثم رجع عنهم بعد أن نال التعب من جنوده وسئموا الحرب .

وعندئذ بعث الدواودة الى أبي اسحاق يعرضون عليه طاعتهم والتحالف ضد أبي عنان. وتقوّى بذلك جانب السلطان الحفصي فأصبح يطارد الجيش المريني، المتراجع نحو شمال البلاد ، الى أن انفضّت معظم قوات أبي عنان من حوله ، فعاد الى المغرب الأقصى ، وترك على كل مدينة حامية تردّ عنها هجمات الحفصيّين والأعراب .

وكان أبو حمّو قد عقد روابط متينة مع الدواودة ، ولمس عن كثب القوة السياسية الهائلة التي كانوا يمثلونها ، وربما كان يسعى الى استمالتهم ، بغية الحصول على مساعدتهم اذا سمحت الظروف بالقيام بحركة الى تلمسان . ولذا ، فعندما أراد السلطان الحفصيّ وحاجبه التوجّه نحو تونس لطرد بني مرين عنها ، لم يرافقهما أبو حمّو اليها ، وصحب الدواودة الى أراضيهم ، فاصبحوا يشنّون الغارات على مدن منطقة قسنطينة ، ويحاولون إجلاء بني مرين عنها ، وعن الأراضي التي اعتادوا ارتيادها لما شيتهم . وأغار أبو حمّو معهم على مدينة ميلة ، فاحتلوها في آخر شوال 758 هـ .[1]

---

(1) أنظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 20 – 21 .

ثم ساهم أبو حمّو ، مع الدواودة ، في مضايقة بني مرين في ناحية قسنطينة، الى أن قدمت أمداد قوية من المغرب الأقصى بقيادة سليمان بن داود العسكري ، لتعزيز الحاميات المرينية ، والقيام بحملة جديدة في اتجاه تونس والجنوب (رمضان 759 هـ .) وعندئذ غادر أبو حمّو ناحية ميلة ، مع قبيلة الدواودة ، قاصدين الى الجنوب الشرقي ، فنزلوا ناحية تبسّة . وهناك انقسم الدواودة الى فرقتين ، اتجهت احداهما ، وهم أولاد عثمان بن سبّاع ، نحو الحضنة فرافقهم أبو حمّو الى هذه الناحية القريبة من المغرب الأوسط وكأنه كان يرغب في الاقتراب من وطنه ، ويحنّ الى بلاده ويشتاق الى أبيه وأهله، المستقرين آنذاك بفاس وفي قرية بريكة ، من بلاد الحضنة لقي بني عامر ،وشيخهم سقير، وكانوا قد طُرِدوا من أراضيهم بالمغرب الأوسط ، فغادروا القطر والتجؤوا الى تلك الناحية (منتصف شوال 759) . (1)

وهكذا ، قضى أبو حمّو سنة كاملة متنقلاً في جنوب إفريقية فصحب الدواودة في معظم هذه الفترة ، وساهم في غاراتهم على بعض النواحي ، الا أنه لم يفتأ يتطلّع الى احوال موطنه،ويتربّص لأعداء قومه ، منتظراً الفرصة التي تمكّنه من إحياء الدولة الزيّانية .

ولاشكّ أنه حاول ، أثناء هذه الفترة ، استئلاف الدواودة واستمالتهم الى تحقيق أُمنيته وأُمنية قومه، وأحلافهم في المغرب الأوسط، وهي طرد بني

---

(1) انظر زهر البستان ،ورقة 7 و .

مرين من المغرب الاوسط. فكانت مقاومة الخطر المريني في المنطقة الغربية من افريقية اول مرحلة نحو بلوغ ذلك الهدف .

وقد ذكر عبد الرحمان بن خلدون ان الدواودة اجتمعوا « الى الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، ورغبوه في لحاق أبي حمّو موسى بن يوسف بالمغرب من غربته ، وأنهم ركابه لذلك ، ليجلب على نواحي تلمسان ، ويحصل للسلطان أبي عنان شغلا عنهم » [1]. ولا شك أن مسيرة أولاد عثمان بن سبّاع مع أبي حمّو ، في اتجاه الحضنة ، كانت ترمي الى ذلك ، ثم ان اللقاء مع قوم سقير بن عامر ، كان من شانه أن يقوّي عزيمة الجميع للغارة على بني مرين وأحلافهم .

وانتقل أبو حمّو ورفاقه الى مقّرة لتجسّس أخبار الجيش المريني ثم توجّهوا نحو الزاب على ثنيّة غنية، بين جبل أوراس وجبل عياض، ونزلوا بريغ . ثم تابعوا سيرهم الى الجنوب، واستقروا مدة بوارجلا.[2] والظاهر أن هذه المسيرة كانت ترمي الى الفرار من العدو المريني ، وايهامه بالتوجه نحو الشرق، مما يجعل حداً لمطاردته .

ولكن أبا حمّو وأحلافه توجّهوا بعد ذلك نحو الغرب ، فمروا بمنطقة مزاب ، ومن ثم قصدوا الى الشمال الغربي ، سالكين طريق

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 255 .
(2) انظر ، زهر البستان ، ورقة 8 ظ ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 22 – 23 .

وادي زرقون.وهناك حلّ موسم عيد الأضحى ، فأقاموا بتلك الناحية أياماً ، الى أن بلغهم نبأ استقرار سويد بوادي ملال ، فأغاروا عليهم وفاجؤوهم بذلك الموضع ، فهزموهم وقتلوا بعض أبطالهم ، مثل عثمان بن ونزمار بن عريف،وسبوا النساء ، وغنموا الإبل والمال ، فنال بنو عامر ما كانوا يأملونه من الانتصار على أعدائهم ، والانتقام منهم (أواخر ذي الحجة 759 هـ) [1]

ومكث أبو حمّو وسقير وجماعتهما بوادي ملال ، يترقّبون الأخبار بعض الأيام.وفي السادس أو السابع من محرم (760 هـ)، فوجئوا بأكبر بشرى وافتهم من بلدهم ، الا وهي نبأ وفاة السلطان أبي عنان بفاس (27 ذي الحجة 759 هـ / 5 ديسمبر 1358 م) .

وعندئذ رأى أبو حمّو وسقير أن آن الأوان لطرد بني مرين وأحلافهم عن تلمسان ونواحيها ، فعزما على القيام بحركتهما الموفّقة لإحياء الدولة العبد الوادية .

حركة ابي حمو لاحياء الدولة العبد الوادية :

كان الغرض من مسيرة أبي حمّو ، رفقة أولاد عثمان بن سبّاع وبني عامر ، شن الغارات على جنوب المغرب الأوسط وعلى ناحية سجلماسة ، وذلك لشغل أبي عنان عن مهاجمة بلاد إفريقية .

---

(1) انظر زهر البستان، ورقة 9 و،بغية الرواد ، ج 2 ، ص 23- 24.

وبينما كانوا مستقرّين بوادي ملال ، في موضع يدعى الدنانـــير إذ وردعليهم نبأ وفاة أبي عنان ، وعندئذ أدرك أبو حمو ورفاقه من بني عامر ، أن الفرصة سانحة للقيام بحركة إلى تلمسان . أمـا أولاد عثمان بن سباع ، من الدواودة ، فإنهم قرّروا العودة إلى أراضيهـــم بإفريقية الغربيّـة ، وكانت موت أبي عنان تنبىء باضمحـــلال النفوذ المريني بإفريقيـة [1] .

فتوجّـه أبو حمّـو وأنصاره إلى سبخة كبود ، ثم إلى درج ، ومن هناك نفذوا إلى التل عن طريق ثنية فرتون ، ثم انتقلوا إلى عين الحجر ، وقصدوا بعد ذلك وادي يسّر ، وهو من روادف وادي تافنا . ثم توجّـهوا نحو تلمسان مارّين بتيط وشقوف .

ولما دنوا من العاصمة الزّيانية ، تصدّت إليهـــم حصّة من الحامية المرينية ، بوادي الصفيصف ، على مسافة 5 كلم من المدينـة ، فلم تستطع مدافعتهم ، وولت منهزمة ، واعتصمت بتلمسان (25 صفر 760 هـ) .

وكان على تلمسان ، آنذاك ، محمد ابن السلطان أبي عنـان ، يتولّى شؤونها بمساعدة مربّـيه سعيد ، والأمير يغمراسن بن عثمان بن سليمان المريني ، ولم يكن الإستيلاء عليها بالأمر الهيّـن ، وذلك أن عـدد جنود الحامية كان لا يقل عن ثلاثة آلاف،من بينهم(1800)من بني مرين [2] .

---

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 24 ـ 25 .

(2) انظر : زهر البستان ، ورقة 12 ظ .

وعندئذ أقبل على أبي حمّو بعض أهالي تلمسان ، فأخبروه عن « عورات البلد ومخادعه ، وأغروه بأجادير لقرب مناله ، بشيع أهله » [1] . فقسم أبو حمو جيشه إلى فرقتين ، وأمر ابن برغوث بالتوجّه نحو أجادير ، عن طريق باب العقبة ، الواقع في الجهة الشرقية من تلمسان ، على رأس بني عبد الواد وغيرهم من الزناتيين ، بينما سار هو بالأعراب في اتجاه باب كشوطة ، الواقع في الجهة الغربيّة من المدينة .

وكانت هذه الخطة تهدف إلى شغل معظم الحامية المرينية في الجهة الغربية ، ليتسنّى لإبن برغوث ورفاقه اقتحام تلمسان من الجهة الشرقية بأجادير .

ولما ظهرت جموع أبي حمّو من الأعراب ، وتصدّى لمدافعتهم جنود الحامية المرينية ، وهم يطلّون عليهم من شراريف الأسوار بعد أن أغلقوا أبواب المدينة ، توجّه ابن برغوث ومن معه نحو باب العقبة، ولم يمض قليل من الوقت حتى ملكوا أجادير [2] . وانتهى الأمر باستسلام حامية بني مرين ، ودخول أبي حمّو مع أنصاره تلمسان ، محققاً بذلك آمال قبيلته وأهالي بلاده في الخلاص من الاحتلال المريني ،

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 28 .

(2) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 28 – 30 .

وإحياء الدولة الزيانية (فاتح ربيع الأول سنة 760 هـ) [1] .

وهكذا ، تبيّـن لنا ، أثناء عرض هذه الحوادث ، أن هذه الحركة كانت ترمي ، بادىء ذي بدء ، إلى مقاومة الإستيلاء المريني على المغرب الأوسط ، وشغلهم عن متابعة هجماتهم على افريقية ، وأن القوات التي شاركت فيها كانت تضم خاصة قبيلة بني عامر ، وبعض رياح وقليـلا من الزناتيين ، ممّـن كانوا قد هاجروا قبل ذلك إلى إفريقية .

ولم تتخذ الحركة شكلها السياسي الموجّـه إلى إحيـــاء الدولة العبد الوادية إلا بعد أن ورد نبأ وفاة السلطان أبي عنان ، حيث ظهر أن الفرصة سانحة للقيام بمحاولة قد تكون ناجحة .

وبناء على هذه الاعتبارات ، يمكن لنـا أن نستنتج أن حركة أبي حمّـو حظيت بتأييد بني عامر ومساعدتهم ، وأن معظم بني عبد الواد ممّـن استقروا بفاس أو بالأندلس ، لم يشاركوا فيهـا ، ولم يكونوا على علم بتنفيذها .

واذا قارنا بين هذه الحركة وحركة ابي سعيد وأبي ثابت سنة (749هـ) ،

---

(1) وذكر يحيى بن خلدون أن سكان أجادير كانوا قد وعدوا أبا حمو ، على لسان الفقيه عبد الرحمان بن مخلوف الشامي ، بنصرته ضد بني مرين وأنهم فتحوا باب العقبة لابن برغوث ، فتمكن من الدخول الى أجادير (بغية الرواد .ج 2 ، ص 28 – 30) .

لنفس الهدف فاننا نلاحظ أن الأميرين المذكورين قاما بمحاولتهما على رأس حوالي خمسمائة فارس ينتمون الى قبيلة بني عبد الواد والى بني توجين وبني راشد ، وكلهم من زناته ، كان السلطان أبو الحسن المريني قد ضمهم الى جيشه لما قام بزحفه الى إفريقيا . أما أبو حمّو الثاني ، فكانت محاولته باستشعار من بني عامر خاصة ومساعدتهم .

فحركة أبي حمّو وأحلافه كانت ترمي ، قبل كل شيء الى مقاومة خطر بني مرين ، وجعل حد لاستيلائهم على المغرب الأوسط . وكان بنو عامر ، من جهة أخرى ؛ يهدفون بذلك ، الى مناهضة سويد أعدائهم بالدرجة الأولى . أما دور أبي حمّو ، في هذه الحركة ، فلم يكن دون الرئيس المدبّر بأتمّ معنى الكلمة، فترشيحه للامارة لم يكن حسب التقاليد المألوفة ، اذ لم يكن ابن سلطان ، ولم يعيّن من طرف أشياخ بني عبد الواد ، وانما اتجهت أنظار العرب اليه للاسباب السياسية المذكورة ولم يكن ذلك لاحتياجهم الى رئيس يقودهم الى النصر ، بل لتكتسي عمليتهم طابعاً شرعيا ، فهم ، اذ يغيرون على المغرب الأوسط ، يقومون باعادة أمير على عرش أجداده ، ويساهمون حينئذ في أخذ حق وردّ عدوان .

وهنا ، تتجلّى لنا خطورة مشاركة الاعراب في هذه الحركة ، وأهم ما يلاحظ فيها ، أن العرب كانوا ينتظرون ، منذ زمان طويل ، فرصة للدخول إلى التلّ ، والاستيلاء على مراعيه الخصبة التي كانوا

محرومين منها . وكانّ أبا حمّو ، بإقدامه على التحالف معهم ، قد التزم نحوهم بترضية هذه الرغبة ، وتحقيق هذه الأمنية ، الأمر الذي سيجعل بني عامر يحتلّون مكانة سامية في الدولة وفي أوضاعهـــا السياسية والاقتصادية ، مدة طويلة .

فشل الهجوم على وهران :

وبعد أن استولى أبو حمّو على تلمسان ، كان عليه أن يبذل مجهوداً جبارا لتنظيم شؤونْ دولته واصلاحها . وفعلاً ، وجد أبو حمو نفسه أمام مشا كل عديدة ، لم يتمكن من حلها إلا بعد سنوات .

فكان بنو مرين يحتلّون وهران والجزائر ، وكثيراً من نواحي المغرب الأوسط ، ثم ان المناطق الشرقية (جبل وانشَريس وناحية شلف ومتيجة وجبال تِيطَرّي) لم تكن وقتئذ خاضعة لحكم أبي حمّو ، بل كانت سويد وغيرها من قبائل تلك النواحي متحالفة مـــع القائد المريني يحيى بن علي البطيوي ، ومستعدة لمحاربة الدولة الزيّانيّة . (1)

أما بيت المال ، فكان في أسوإ حال ، ولم يكن ما وجده فيه أبو حمّو عندما دخل تلمسان، أو ما يمكن الحصول عليه عن طريق الجباية، كافياً لتنظيم الدولة ، وإعادة قوتها ورونقها ، إذ كانت أغلب النواحي خارجة عن سلطة أبي حمّو ، ولا تدفع شيئاً لبيت المال .

---

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 61 .

أضف إلى ذلك أن أبا حمّـو كان مضطراً إلى مكافأة حلفـائه وأنصاره ، فوزّع عليهم ما كان بيده من أموال ، وأركبهم الخيل التي أخذها من فرسان بني مرين عند استسلامهم ، وأقطعهم الأراضي ، ومنحهم الامتيازات ، فانفق بذلك جلّ ما ألفاه في بيت المال .

ثم حلّ عيد ذكرى المولد الشريف ، فاحتفل به السلطان الزيّاني ، وأقام بهذه المناسبة حفلة كبرى ، استدعى اليها الكثير من الناس ، من وجهاء وعلماء وشعراء ، وموظفين ونقباء الحرف المختلفة ، وغيرهم ، وأنشدت الأشعار لتمجيد مولد الرسول ، ولمدح أبي حمّـو . ولا شك أن الأدباء والعلماء أدركوا عندئذ ما اختص به السلطان الجديد من ثقافة واسعة ، وإقبال على فنون الأدب والعلوم وحسن استعداد على تشجيع الحركة الفكرية . [1] وأصبح الاحتفال بالمولد النبوي بعد ذلك من أهم الأعياد ، يُعنَى السلطان بإحيائه كلما كان حاضراً بعاصمته حين حلوله .

وشرع أبو حمّـو في تنظيم شؤون دولته وبسط سلطته على نواحي القطر ، وحصل على تأييد قبيلة المعقل ، القاطنة في الحدود الغربية . ولم تمض إلا أيام قلائل حتى وردت إليه بيعة وجدة وندرومة وهنين وهي أقرب المدن ، ثم قدمت وفود مستغانيم وتمزغران والبطحـاء ، وتلاهم وفد قلعة هوارة . [2] غير أن المدن الأخرى ، مثل وهران

---

(1) انظر : زهر البستان ، ورقة 15 و ـ 18 ظ .

(2) انظر : زهر البستان ، ورقة 18 ظ ـ 19 و .

ومليانة والمدية والجزائر كانت لا تزال تحت احتلال بني مرين ، ولذا ، فكان خطر هؤلاء يمثل الشغل الشاغل في تلك الظروف . وبدأ أبو حمّو بمحاولة لاسترجاع وهران ، فبعث في 28 ربيع الأول وزيره ابن برغوث بجيش ، فنازل وهران ، وبعد أيام ، خرجت إليه حاميتها ولكن انفض الناس من حول ابن برغوث فقبض عليه ، وهزم من بقي معه (8 ربيع الثاني 760 هـ) . فكان لهذا النبأ صدى عميق بفاس .

الزحف المريني الى تلمسان وفشله :

وفعلاً ، لم يقف بنو مرين مكتوفي الأيدي أمام هذه الحوادث ، وخاصة عندما وصل الى بلادهم عرب سويد ، بعد هزيمتهم بوادي ملال ورغّبوهم في الزحف الى تلمسان . وكان بنو مرين قد بايعوا بفاس للامير الصغير أبي بكر السعيد بن أبي عنان ، الا أن زمام الأمر كان بيد الوزير الحسن بن عمر الفودودي . وقرر هذا الأخير حشد الجيش قصد استرجاع تلمسان وما يليها من الأراضي . ثم أنهض اليها القائد مسعود بن عبد الرحمان بن ماساي ، في جيش يبلغ عدده تسعة آلاف مقاتل ، وحينما بلغوا البلاد العبد الوادية وحلّوا قرب وادي الزيتون رأى أبو حمّو مغادرة تلمسان ، لقلة ما كان لديه من الجنود ، والتحق بقبيلة بني عامر ، في الجنوب (أوائل جمادي الأولى 760 هـ) .

وبعد ذلك بقليل ، استولى ابن ماساي على تلمسان ، وأخذ يعمل لاعادة النفوذ المريني في سائر أنحاء المغرب الأوسط . أما أبو حمو ، فانه

عسكر أولاً بعيون يسّر ، ثم توجّه نحو الجنوب ، وفي درج لقي بني عامر ، ثم استقرّ بتامحلت ، وأرسل الى المعقل يامرهم بشن الغارات على بني مرين ، وقطع الطريق الواصلة بين تلمسان وفاس . فساءت في ذلك أحوال ابن ماساي وجمعه ، وأرسل لحرب قبيلة المعقل ، ابن عمه عامر بن عبدالله بن ماساي ، قائد حامية وهران ، فانهزم هذا الأخير أمام المعقل ، وقتل أثناء المعركة ، وعادت جنوده في أسوأ حال الى وجدة.

وكان لهذا الحادث وقع سيّء على الجيش المريني بتلمسان، فاعلن خلع السعيد ، وعيّن الأمير يعيش بن علي المريني على العرش ، وكان الجنود قد سئموا من استبداد الوزير الحسن بن عمر على الحكم ، وشقّوا بذلك عصا الطاعة . وعندئذ خشي ابن ماساي على نفسه ، أمام هذا الوضع ، فلجأ الى تنصيب أمير آخر يدعى منصور بن سليمان فاجتمعت كلمة الجيش عليه ورأى مسالمة أبي حمّو ، فوقّع عقد صلح معه ، وأرسله اليه مع أبي زكريا يحيى بن موسى الجمّي ، وغادر بجموعه تلمسان ، فاسرع اليها أبو حمّو ، ودخلها في غرة جمادي الثانية 760 هـ .

وعندما حلّ منصور بن سليمان بفاس البالي ، وجد بها أبا يعقوب والد السلطان أبي حمّو ، وأبا تاشفين ، ابنه ، فبعثهما اليه مكرمين ، لتمكين روابط المودّة والصلح بينهما . فوصلا الى تلمسان في 7 رجب فتازّر بهما ابو حمّو ، واعتمد على أبيه في مواصلة الجهود للقضاء على الخطر المريني في سائر الانحاء.

اخضاع المنطقة الشرقية :

وكانت الظروف ملائمة ، اذ كان بنو مرين منقسمين على أنفسهم بالمغرب الأقصى ، وأصبحت حامياتهم بالمغرب الأوسط تعيش في جوّ قلق وارتباك ، لا تصلها أمداد من فاس ، ولا تطمئنّ على مصيرها .

وفي(4 شعبان 760 هـ)، خرج أبو يعقوب،والد أبي حمّو، بجيش في اتجاه المناطق الشرقية ، قصد إجلاء بني مرين عنها ونزل البطحاء أياماً ، ثم اتخذ طريق جبل وانشريس ، حيث لقي القائد المريني يحيى بن علي البطيوي وأحلافه من توجين ، فهزمهم. ثم اعتصم القائد المريني بمليانة ، وانضمت اليه فرقة من حامية الجزائر ،فقوي بذلك ساعده [1].

وفي هذه الاثناء ، نجحت محاولة أبي سالم بن أبي الحسن المريني ، وبويع له بفاس ، فبعث رسولاً الى أبي حمّو في شأن الصلح طالباً منه أن يكفّ عاديته على القوات المرينية المتمركزة في المنطقة الشرقية (فاتح شوال 760 هـ) .

وفي أواسط (شوال 760 هـ) قدم إلى تلمسان عبدالله بن مسلّم الزردالي بعد أن غادر ناحية درعة حيث كان والياً ، راجعاً إلى

---

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 59 ـ 62 ، زهر البستان ، ورقة 27ظ .

موطن أجداده ، وكان قد حمل معه جباية تلك المنطقة . ففرح أبو حمّو لقدومه ، واستعان بما جاء به من المال ، وقلّده وزارته وبعثه ، على رأس جيش هـام « لمظاهرة أبي يعقوب على تمهيد البلاد الشرقية وتطهيرها من الأعداء » [1]

وبعد ذلك بقليل قدم رسول آخر من قبل السلطان أبي سالم يطلب إيقاف العمليات الحربية في المنطقة الشرقية (ويقترح عقد صلح في ذلك الشأن ، وكان جواب أبي حمّو « بأنا قد أرسلنا الوزير عبدالله بن مسلّم لاقتضاء السلم ، الذي سألتموه لحصصكم ، من والدنا ، إذ لم تجد المكاتبة في ذلك شيئاً . [2]

ويتضح من موقف أبي حمّو هذا أنه لم يكن راغباً في سلم عاجل ، وأنه كان ينتظر استيلاء جنوده على المنطقة الشرقية لاجراء السلم ، ولا شك أن القضاء على الاحتلال المريني في الجهة الشرقية كان يعزّز بصفة محسوسة الجانب العبد الوادي في حالة مفاوضات لاقرار السلم بين البلدين لما ينتج عن ذلك من اتساع رقعة الأراضي الخاضعة للسلطة العبد الوادية ولما يتوفّر لدى أبي حمّو اثناء تلك العمليات من أسرى يمكن تقديمهم مقابل أسرى بني عبد الواد الموجودين آنذاك بالمغرب الأقصى .

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 62 .
(2) بغية الرواد ، ج 2 ص 62 .

وبينما كان أبو يعقوب يتابع سيره نحو الشرق ويستولي على المدينة (في فاتح ذي القعدة 760 هـ) ، توجه ابن مسلم إلى مليانة ، فحاصرها إلى أن استسلم القائد يحيى بن علي البطيوي ، وفتح أبواب المدينة (7ذي القعدة) ، والقي القبض عليه وعلى سائر جنود الحامية .[1]

وبعد ذلك اجتمع أبو يعقوب بابن مسلّم بمليانة ، فسارا معاً بجيشيهما في اتجاه الجزائر . وكان يحتلّها القائد المريني شعيب بن ميمون ابن وادرار . فامتنعت عليهما ، ولقيا من حاميتها وأهلها مقاومة عنيفة، وأحرق معسكرهما ، فرفعا الحصار وعادا الى مليانة وهناك بلغهما أمر من أبي حمّو يستدعي الوزير ابن مسلّم الى تلمسان ، فرحل هذا الأخير اليها تاركاً لأبي يعقوب مهمة تهدئة الناحية ومواصلة الجهود للاستيلاء على الجزائر (اوائل ذي الحجة) .

والظاهر أن استدعاء ابن مسلّم هذا، كان ناتجاً عن تخوّف ابي حمّو من السلطان المريني ، وذلك أن هذا الأخير كان قد تمكّن من التغلب على أعدائه ، وصفا له الجوّ ، فاصبح الخطر المريني أشد من ذي قبل .

وفي الأشهر الأولى من سنة (761 هـ) ، تأزّم الوضع بين أبي سالم و أبي حمّو، لما حدث من مواصلة الهجوم على الحاميات المرينية بالناحية الشرقية ، ولما صدر عن ابن مسلم من مغادرة درعة بجباية المنطقة والتحاقه بأبي حمّو[2].

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 63

(2) انظر كتاب العبر ، ج 7، ص 259 – 260 .

زحف أبي سالم الى تلمسان :

وبدأ أبو سالم بتحريك أحلافه في المغرب الأوسط ، فثار زيّان ابن أبي يحيى الراشدي ، في قومه بني راشد ، داعياً للأمير العبد الوادي أبي زيّان حفيد السلطان أبي تاشفين الأول ، الملقب بالقُبّي (1) . وظهر هذا الأخير في الناحية الغربية ، بجبل بني يَزْناسَن وقد اجتمع اليه بعض أتباع بني مرين من المعقل وبني يزناسن .

فوجّه أبو حمّو الى زيّان الراشدي جيشاً بقيادة ابنه أبي تاشفين والشيخ عمران بن موسى اللؤلؤي (فاتح ربيع الأول سنة 761 هـ) ، كما وجّه لمحاربة أبي زيان القبي ، الوزير ابن مسلّم بعسكر بني عبد الواد الغربي ، فهزمه شر هزيمة (12 ربيع الأول 761 هـ) (2) .

ولما اطلع أبو حمّو على نشاط أبي سالم لاستكمال عدة جيشه قصد النهوض الى تلمسان ، عزم على مغادرة المدينة ، مرة ثانية وبدأ بتوجيه أحلافه من بني عامر والمعقل ، تحت قيادة ابن مسلّم ، نحو الجنوب (4 جمادي الثانية 761 هـ) ، فنزلوا باميسون .

---

(1) القُبّي يعني : عظيم الرأس . وكان هذا الأمير قد أُخذ صغيرا بعد مقتل جده أبي تاشفين الأول وأبيه أبي سعيد عثمان سنة 737 هـ ، وربيّ في قصور بني مرين بفاس، انظر كتاب العبر، ج 7، ص261.

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 65 .

ومكث أبو حمّو في عاصمته إلى ان بلغه نبأ قدوم أبي سالم المريني وحلوله بتاوريرت،في الحدود بين القطرين، فغادر تلمسان (29 رجب) والتحق بالوزير ابن مسلّم .

وزحف أبو سالم وجموعه الى تلمسان ، فدخلوها في (6 شعبان) وعندئذ خالفهم أبو حمّو وأتباعه الى بلادهم ، واحتلوا أجرسيف وناحيتها ، وأفسدوا عمرانها ، مما أقلق أبا سالم ، وجعله يتخوّف من هذا الهجوم ، ويخشى ان يتجّه أبو حمّو الى فاس ، ويتفاقم الأمر ،فقرر العودة الى المغرب الأقصى ، وإخلاء المدينة (11 أو 12 شعبان هـ)[1]. تاركاً عليها ابا زيّان القبي .

وبلغ أبا حمّو خبر مغادرة أبي سالم لتلمسان ، فقفل راجعاً اليها وأرسل وزيره ابن مسلّم في مقدمته ، بعسكر ، للاستيلاء عليها وطرد أبي زيان القُبّي ، فلم يسع هذا الأخير إلا الفرار ، والالتحاق بأولاد عريف ، من قبيلة سويد بجبل وانشريس (4 رمضان 761 هـ) [2].

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص260 – 261 ، بغية الرواد ج 2 ، ص 76–77 ، الاستقصاء ، ج 4 ، ص 33 ، زهر البستان ، ورقة 38 و – 39 ظ .

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ص 79 ، كتاب العبر ، ج 7 ص 261 ، زهر البستان ، ورقة 40 و .

مطاردة ابو زيان القبو وانصاره سويد :

ثم دخل أبو حمّو عاصمة ملكه في (8 رمضان) ، وبعد أيام، جهّز جيشاً من قومه لمطاردة أبي زيّاد القبيّ ، والقضاء على فتنته (18 رمضان) فقضى عيد الفطر بتاسالة ، ثم عسكر بالبطحاء ، وهناك التحق به بنو عامر واولاد حسين من المعقل . ثم توجّه الى منداس ، حيث كان أُنصار أبي زيّان قد انقسموا الى فرقتين ، إحداهما تحت رئاسة محمد ابن عريف، اعتصمت مع أبي زيّان بجبل وانشريس ،والاخرى اتّجهت بقيادة أبي بكر بن عريف نحو الصحراء ، بظعون قبيلة سويد .

فحاصر أبو حمّو أبا زيّان وأنصاره ، وبعث جيشاً لمطاردة أبي بكر بن عريف في ناحية السرسو ، فهزم هذا الأخير، ثم اقتحم أبو حمّو الجبل ، واضطر أبو زيّان ومحمد بن عريف إلى الفرار نحو الصحراء (أوائل ذي القعدة 761 هـ) .[1]

وعندئذ التحق أبو زيّان بالحدود الغربية ، واستجار بقبيلة ذوي عبيدالله من المعقل ، الذين كانوا قاطنين بسهل أنجاد ، قرب وجدة ، فأجاروه .

وبعد تشتيت شمل أولاد عريف ، قصد أبو حمّو ناحية شلف لطرد

---

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 80 ، كتاب العبر ، ج 7 ص 261 زهر البستان ، ورقة 40 و – 41 و .

بني مرين عنها ، ولقتال أحلافهم من مغراوة ، بينما توجّـه الوزير ابن مسلّـم إلى تلمسان في كتيبة ، فوصلها في (23 ذي القعدة 761 هـ) .

أما أبو حمّـو ، فانه طارد أشياخ مغراوة، الذين حالفوا بني مرين، فاعتصموا بتنس ، وكان عليها القائد عثمان بن أبي تَجِـلاّء المريني ، فحاصرها أبو حمّـو ثلاثة أيام ، ثم فتحها عنوة ، وقتل قائدها (آخر سنة 761 هـ) .[1]

وبعد أن استرجع ناحية شلف إلى طاعته ، عاد أبو حمّـو إلى عاصمته فدخلها في (2 صفر 762 هـ) . فأشخص والده أبا يعقوب إلى الشرق لاستفتاح الجزائر ، وأرسل وزيره ابن مسلّـم إلى الغرب للاغارة على ذوي عبيد الله ، فالتقى بهم بسهل أنجاد ، فانهزمت عبيد الله وتفرق شملها (أوائل ربيع الأول 762) ، وفرّ أبو زيّـان إلى تاوريرت ، حيث التحق بالدولة المرينية بعد أن فشلت محاولته .[2]

عقد الصلح بين ابي حمو وابي سالم المريني :

وحينذاك اتجهت رغبة أبي سالم وأبي حمّـو نحو إجراء مفاوضات قصد إقرار السلم بين البلدين ، وكان للشيـــــخ ونزمار بن عريف شيخ

---

(1) انظر زهر البستان ورقة 42 وظ .
(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 83 – 84 .

قبيلة سويد بالمغرب الأقصى ، دور حاسم في تحقيق ذلك وأمر أبو سالم بالقاء القبض على أبي زيّان القبّي بتاوريرت ، إظهاراً لحسن نواياه ، ولاستعداده على إرضاء أبي حمو (أواخر ربيع الأول 762)[1]. وأخيراً تم عقد الصلح بين القطرين (جمادي الثانية 762 هـ)[2] .

وكان أبو سالم قد احتفظ بوهران ولم يرتض تسليمها لأبي حمّو رغم الحاح رسله في ذلك ، وكانت الجزائر لا تزال بين أيدي بني مرين .

ورأى أبو حمّو ضرورة استرجاع المدينتين ، لما لهما من أهمية في تمكين سلطته على البلاد ولدورهما الاقتصاديّ الهامّ . وطلب من قائد وهران والجزائر أن يقوما بسحب قواتهما، وأن يسلما له المدينتين بموجب ما حدث بين القطرين من صلح .

ولم يوافق أبو سالم على ذلك، فأرسل الوزير عمر بن عبد الله الى تلمسان في هذا الشأن (أواسط رمضان 762 هـ) ولم تنجح مفاوضاته مع الوزير ابن مسلّم ، بل آلت الى خصام شديد وغادر الوزير المريني بلاد أبي حمّو مغضبا .[3]

---

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 89 .

(2) انظر زهر البستان ورقة 48 و — 50 ظ .

(3) انظر زهر البستان ورقة 51 و — ظ .

وتأزم الوضع من جديد بعد صلح دام أربعة أشهر. فقرّر أبو حمّـو الزحف الى وهران ، وحاصرها ستة أيام ، ثم فتحها عنوة ، بعد أن قاومته الحامية المرينية مقاومة شديدة (13 شوال 762 هـ) ، ثم رجع أبو حمّـو الى تلمسان بعد ان هدم سور القصبة [1] .

وفي تلك الأثنـــاء قدم الى تلمسان ونزمار بن عريف في شأن تسوية الأزمة ، وإعادة الصلح بين القطرين ، والتزم إقناع أبي سالم بتسليم الجزائر لأبي حمّـو . وفعلاً ، بعث أبو سالم بعد ذلك رسله الى قائـــد الجزائر علي بن يعلى ، والى أبي حمّـو برسم تسليم الجزائر الى بني عبد الواد . فبعث أبو حمّـو الى والده أبي يعقوب بمليانة طالباً منه أن يتوجه الى الجزائر وأن يتخذها مقراً لولايته على المناطق الشرقيّـة، فدخلها في ذي العقدة (762 هـ) . [2]

وفي 19 ذي العقدة (762 هـ) خلع أبو سالم المريني ، وتلا ذلك فتن واضطرابات في المغرب الأقصى ، فامن أبو حمّـو عادية بني مرين لمدة، واغتنم هذه الفرصة لتوجيه عنايته الى الناحية الشرقية .

وكان أشياخ مغراوة قد التجؤوا ، عند فتح الجزائر ، الى بجـــاية

---

(1) انظر زهر البستان ، ورقة 51 ظ – 52 ظ

(2) انظر زهر البستان ، ورقة 54 ظ – 55 ظ ، بغية الرواد ، ج 2 ص 91 – 92 .

فاجارهم أميرهـــا أبو إسحاق أبراهيم بن السلطان أبي يحيى الحفصي . وكان أبو حمّو قد ساعد هذا الأخير على إجلاء بني مرين عن بجاية قبل ذلـك . فطالبه بتسليم من التجأ عنده من مغراوة ، ورفض الأمير أبو إسحاق تلبيـــة طلبه . وعندئذ أمر أبو حمّـو قواد الناحية الشرقية باقتحام امارة بجاية فاستولى عمر بن موسى المطهري على تدلّـس عنوة (صفر أو جمادي الأولى 763 هـ) . وحاول أبو إسحاق استرجـــاع تدلّـس فضايقها مضايقة شديدة، فأنهض أبو حمّـو وزيره ابن مسلّـم الى الشرق لردّ عادية أبي إسحاق وحماية تدلّـس ، (في 21 رجب (763 هـ) ، فاستولى على فحص حمزة وعلى بلاد بني حسن "وجاس خلال الوادي الكبير، ثم عرج ذات اليســار آخذاً على ثنية تاغزوت وبيطار ، فاستضاف أيضاً زواوة وماإليها، وقبض على شيخ الموحدين (يعني الحفصيين) " (شوال 763هـ)[1]

وفي تلك الأثناء ، كانت الفتن ضاربة أطنابها في المغرب الاقصى مما أضعف شأن العرش المريني ، الأمر الذي دعا الوزير المريني عمر بن عبد الله الى أن يرغب في عقد صلح جديد بين الدولتين . وبعد تبادل السفارات انعقـد الصلح في 15 رجب (763هـ) ، وبموجبه أطلق سراح بني عبد الواد الذين كانوا لا يزالون بفاس ، الا أبا زيّـان بن السلطان أبي سعيد، ابن عم أبي حمّـو ومنافسه في العرش ، فانه أبقي في السجن .[2]

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 108 ، زهر البسان ورقة 76 ظ – 78 و .

(2) أنظر : زهر البستان ، ورقة 66 ظ – 69 ظ .

وفي هذه الأثناء ، رزىءأبو حمّـو بوفاة والده أبي يعقوب ،بالجزائر (أوائل شعبان 763 هـ .) فحمل الفقيد الى تلمسان ، ودفن قرب باب ايلان ، ثم بنى أبو حمو، حول قبره ، مدرسة وزاوية ، وعين للتدريس في هذه المدرسة العالم الشهير أبا عبدالله الشريف .

ثورة خالد بن عامر

وحدث كذلك ،أثناء غيبة ابن مسلّـم بالجيش، أن تعرّض أبوحمّـو إلى حركة خطيرة ، قام بها خالد بن عامر ، أخو سقير الذي كان قـد توفي منذ حوالي سنتين ، وكان أبو حمو قد عين أخاهما شعيباً على قبيلة بني عامر ، مما أغضب خالداً . وكان خالد قد بايع أبا زيّـان ابن السلطان أبي سعيد ، ونصبه منافساً لابي حمّـو في العرش وجاء به من المنطقــة الغربية [1] زاحفاً إلى تلمسان من جانبها القبلي مغتنماً فرصة خلوّها من الجيش .

فبعث أبو حمّـو فوراً إلى عبدالله بن مسلّـم، يامره بإنهاء العمليات في المنطقة الشرقية ، والرجوع بالجيش إلى العاصمة . وإلى جانب ذلك ، جمع جيشاً من فرسان تلمسان وأحوازها ، وأرسله بقيادة الشيخ عمران ابن موسى اللؤلؤي ، لملاقاة الثوار . ووقع اللقــاء بجبل بني ورنيد ،

---

(1) استطاع أبو زيّان أن يفر من سجنه بفاس ، وتمكن من الالتحاق بقبيلة أولاد حسين من المعقل ثم اتصل بخالد بن عامر . انظر زهر البستان : ورقة 78 و -- ظ .

المصاقب للمدينة ، من جهة الجنوب . فانهزم خالد بن عامر وجموعه ، وتركوا كثيراً من الغنائم والاسرى (منتصف شوال 763 هـ) .[1]

ثم رأى أبو حمّو أن يصانع بني عامر ، فبذل لهم ما أرضاهم من المال.

ابتداء منافسة ابي زيان ابن السلطان ابي سعيد الثاني

أما خالد بن عامر ، فانه رافق أبا زيّـان ابن السلطان أبي سعيد إلى بلاد الدواودة ، حيث أجاره شيخهـم يعقوب بن علي[2] . ثم التحق أبو زيّـان هذا ببجاية عند الأمير أبي إسحاق ، وطلب منه المساعدة .

وكان الأمير ابو عبدالله محمد بن ابي زكريا ابن السلطان ابي يحيى الحفصي يزاحم آنـــذاك ابا إسحاق على بجاية ، ويستعين ببعض قبائل الأعراب قصد الاستيلاء عليهـــا . وقد ارسل في شهر صفر (764 هـ) حاجبه أبا زكريا يحيى ابن خلدون ، صاحب كتاب « بغية الرواد » مستغيثاً بأبي حمو ، وطالباً مساعدته ضد أبي اسحاق ، فوجد يحيى ابن خلدون عند ابي حمّـو بعض الاستعداد لتلبية طلبه ،مما شجع الأمير

---

(1) انظر : زهر البستان ، ورقة 78 / ظ – 79 / ظ ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 113.

(2) أنظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 113 ، كتاب العـــبر ، ج 7 ، ص 263 .

أبا عبدالله على الوفادة بنفسه في 8 جمادي الأخيرة (764 هـ) ،مجدداً طلبه لابي حمّـو .

ولكن أبا إسحاق ، أمير بجاية ، كان قد بعث ، في تلك الأثنـــاء وزيره الى أبي حمّـو ، يعرض عليه الصلح ، ويلتزم باعتقال أبي زيّـان، ويطلب منه الا يساعد أبا عبدالله في شيء . فرضي أبو حمّـو بهـــذا الاتفاق ، ولم يجب طلب الأمير أبي عبدالله . (1)

وكانّ أبا زيّـان ابن السلطان أبي سعيد أخبر بما كان يدبّـر على حسابه ، فلم تمر أيام قلائل حتى وصل الى تلمسان نبأ فراره من بجاية ، واستقراره بفحص حمزة ، عند أبي الليل بن موسى شيـخ بني يزيـــد وكان هذا الأخير حانقاً على أبي حمّـو ، لما قام به الوزير ابن مسلّـم من غارات في تلك الناحية ، قصد إخضاع بني يزيد . فبايـع الشيـــخ أبو الليل أبا زيّـان،وخلع طاعة أبي حمّـو ، وبدأ يُغير بقومه على نواحي المدية ، الأمر الذي جعل أبا حمّـو يشعر بخطر الموقف، ويخشى أن تندلع ثورة عامة بين قبائل الناحية الشرقية .

فأرسل ، مرة أخرى ، ابن مسلّـم إلى الشرق ، واعتصم الشيـخ أبو الليل وقومه بجبل جرجرة . فحاصرهم الجيش العبد الوادي ، ودام الحصار إلى أن أذعن أبو الليل للطاعـة ، والتزم صرف أبي زيّـان عن

---

(1) انظر : زهر البستان ورقة 86 و، 87 وورقة 92 ظ – 93 ظ، بغية الرواد ،ج 2 ، ص 132 .

بلاده . فانصرف هذا إلى تونس (رمضان 764 هـ)[1] . وعاد ابن مسلم إلى تلمسان ، بعد أن أعاد السلطة العبد الوادية في فحص حمزة ، وأبعد عن تلك الناحية خطر الأمير أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد .

منافسة ابي زيان القبي لابي حمو :

وفي أوائل سنة (765 هـ) ، تأزّم الوضع من جديد بين الدولة العبد الوادية والدولة المرينية . وذلك أن أبا حمّو كان يساعد أمراء بني مرين القائمين بسجلماسة على شقّ عصا الطاعة عن السلطان المريني المتوكّل على الله. وكان رد فعل هذا الأخير ، أن أنهض أبا زيّان القبّي حفيد السلطان أبي تاشفين الأول لمنافسة أبي حمو على العرش العبد الوادي ، مصحوباً بابن برغوث وغيره من وجهاء بني عبد الواد ، ومعزّزاً بعرب المعقل وبحصّة مرينية .

وعندئذ توجّه الوزير ابن مسلّم إلى المنطقة الشرقية ، فحشر العساكر، وأتى بها إلى تلمسان ، في رجب (765 هـ) ، ونهض أبو حمّو إلى لقاء منافسه ، الذي كان قد نزل بعين الصفاء من جبل بني يزناسن ، فلم يظفر به ، وتبعه إلى جبل دبدو في الجنوب ، ثم عاد إلى عاصمته ، ودخلها في (8 شعبان) .

---

(1) انظر : زهر البستان ، ورقة 90 و 93 ظ ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 135 .

ثم سرّح أبو حمّو وزيره ابن مسلّم على رأس الجيش لمطاردة أبي زيّان القُبّي وأتباعه ، فاعترضهم في ناحية منداس وأرغمهم على الفرار نحو الشرق ، ثم تبعهم إلى ناحية المسيلة ، حيث استجاروا بقبيلة رياح العربية . فأقام ابن مسلّم معسكره بوادي الجنان ، وشرع في محاولة إقناع رياح بالتخلّي عن أبي زيّان القبّي وأنصاره ، ولكنه مرض بالطاعون (آخر ذي القعدة 765 هـ) فرجع به أفراد عشيرته ، وتوفي في طريقه .

وكان لنبإ موته أسوأ الأثر في نفوس مقاتلة الجيش العبد الوادي فانحاز الكثير منهم إلى فريق أبي زيّان القبّي ،وخاصة قبائل العرب. وبموت ابن مسلّم فقدَ أبو حمّو أخلص مناصر لدعوته وأمهر قائد لجيوشه . وحينئذ أصبح موقف أبي حمّو يدعو إلى القلق ، إذ تألبت ضدّه قبائل الأعراب من أولاد حسين وسويد وبني عامر ، مناصرين منافسه أبا زيّان .

ولم يطل تردده فيما يجب اتخاذه من الإجراءات ، أمام تدهور الوضع في منطقة شلف ، ورجوع الجيش فاقداً معنوياته . ففي (4 ذي الحجة 765 هـ)، أرسل عثمان بن مسلّم ، أخا الوزير الفقيد « للقاء العساكر والربط من جاشها » [1] وفي 8 ذي الحجة ، بعث لمساعدته جيشاً آخر بقيادة ابنه أبي تاشفين .

---

(1) بغية الرواد، ج2 ، ص 146 .

وقيعة البطحاء :

ثم خرج أبو حمّو نفسه في 11 ذي الحجة،في اتجاه الأعداء وعندما قرب من البطحاء، لقي جيوشه راجعة،فثناها عن وجهتها وأقام عسكره بالبطحاء ، بينما كان جيش أبي زيّان القبّي مستقراً بإغيل ايزان ، قريباً منه .

وفي 25 ذي الحجة وقعت معركة البطحاء ، التي شنّها أبو زيان وجموعه على جيش أبي حمّو ، فانهزم هذا شرّ هزيمة ، وغادر ساحة الحرب تاركاً متاعه للعدو ، فما وسع أبا حمّو الا أن جمع حرمه وأمواله ، وقصد عاصمته يبغي النجاة .

وعندئذ ضرب أبو زيّان وأنصاره خيام معسكرهم بالبطحاء ، بينما انطلق أحمد بن رحّو ، شيخ أولاد حسين ، وراء أبي حمّو ، يريد إلقاء القبض عليه ، والقضاء على أمره ، قبل أن يصل الى تلمسان،مغتنما فرصة هذا النصر المفاجىء . فاعترض له بسيق ، واضطر أبو حمّو والفريق الذي كان يحفّ به من أخلص أوفيائه ، الى مواجهة أحمد بن رحّو ومن معه ، وشاء القدر أن ينجو أبو حمّو مرة أخرى ، وقد أشرف على الهلاك ، وذلك أن أحمد بن رحّو سقط من فرسه، فصكّه بين عينيه ، وقتله أتباع أبي حمّو ، فكفّ حينئذ أصحابه عن القتال وعادوا أدراجهم،بينما تابع أبو حمّو طريقه الى تلمسان،فدخلها في(28 ذي الحجة 765 هـ).

فشل محاولة أبي زيان القبي :

أما أبو زيّان القُبّي وأنصاره أولاد حسين وسويد وبنو عامر ، فإنهم ساروا في أثر أبي حمّو ، متجهين نحو تلمسان ، عازمين على اقتحامها ، وكان لأولاد حسين حظوة لدى الأمير أبي زيّان ، فكان هذا يشاورهم في أموره ، ويطمئن إلى رأيهم ، دون بني عامر ، مما جعل هؤلاء يغضبون من هذا التصرف ، ويسخطون من « استبداد المعقل (أولاد حسين) عليهم »[1].

وكان خالد بن عامر ، شيخ بني عامر ، آنذاك ، معتقلاً في تلمسان ، بامر من أبي حمّو ، فرأى السلطان إطلاق سراحه ، وشرط عليه أن يصرف قومه عن طاعة أبي زيّان، ولم يجد خالد أية صعوبة في الوفاء بما التزم به ، إذ كان الشقاق قد دبّ في صفوف أنصار أبي زيّان ، أي بين أولاد حسين وبني عامر .

ولما ضرب أبو زيّان ، وجمعه من المعقل وسويد ، خيامهم بذراع الصابون ، من ظاهر تلمسان (24 محرم 766 هـ) ، نزل بنو عامر بوادي يسّر ، ثم انصرفوا نحو الصحراء ، آخذين على ثنية فرتون ، طريقهم المعتادة إلى الجنوب .

وبانخذال بني عامر عن أبي زيّان القُبّي ضعف حزبه، وانتهى

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 266 .

أمره بانفضاض جموعه من حوله بدون قتـال ، والتحقت حاشيتـه من وجهاء بني عبد الواد بأبي حمّـو ، بعد أن عفا عنهم .

نتائج هزيمة البطحاء :

وهكذا استطاع أبو حمّـو أن يجعل حداً لمنافسة أبي زيان القُـبِّـي ولقيام معظم فرق قبيلة زغبة بجانبه ، بمـا بذله من أموال وإقطاعات ، إلا أنه ، بعمله هذا ، فتح باباً يؤدي إلى إضعاف دولتـــه ، ويسير بها حتماً إلى التفكّـك والانهيـــار ، وبعد ست سنوات من ابتداء حكمه ، بدأت الأوضاع السياسيـة تعرف تطوراً خطـيراً وأخذت الدولة العبد الوادية تتنازل عن امتيازات هامة لفائدة عرب زغبة، وكانت هذه الفترة الأولى من عهد أبي حمو أقوى فترات إمارته ، شملت سلطته فيها مجموع بلاد المغرب الأوسط ، واستطاع أثناءهـــا أن يعيد إلى الدولة الزيانية رونقها وقوتها ، وكانت القبائل المختلفة لا تشكّـل خطراً كبيراً بالنسبة لعرشه ، إلى أن انهزمت جموعه بالبطحاء ، وعندئذ اتّـضح لعرب زغبة ما يمكن لهم أن يستفيدوه من خلال مساهمتهـم في الحرب القائمة بين أبي حمّـو ومنافسيه من قبيلته أو أسرته ، بالإنحياز إلى جانبــــه أو بتأييد خصومه ، وكان بين العوامل التي شجعتهم على السير في هذا السبيل ، ما ظهر أثناء معركة البطحاء من ضعف القيادة العسكرية لجيش أبي حمّـو ، وقلة ثبات أنصاره من العرب في الحرب .

وقد نتج عن هزيمـــة البطحاء تضاؤل نفوذ أبي حمو في المناطق

الشرقية ، وانضمام العرب المتمركزين بها إلى أبي زيان القُبّي ، معربين بذلك عن ارتياحهم لفشل السلطان الزّياني، وعازمين على العمل للقضاء على إمارته ، إذا امتنع من إرضاء مطالبهم .

ولا شك أن أبا حمّو قد أدرك الغرض من انحيازهم لمنافسه فما كان منه إلا أن قام بتلبية رغباتهم ، لتجنّب خطرهم ، والاستراحة من فتنتهم .

غير أن هذه الطريقة في معالجة فتنة العرب ، فتحت الباب على مصراعيه أمام طمعهم في الإستيلاء على الأراضي الغنيّة ، والحصول على إقطاعات واسعة على حساب المملكة العبد الوادية .

وستكون مواقف العرب كلها مستوحاة من هذه الأغراض ، متّسمة بهذا الطابع الذي اصطبغت به مواقفهم السياسية في ذلك العصر ، والذي يهدف إلى إثارة الفتن للضغط على السلطان ، ونيل ما تصبو إليه نفوسهم .

وبعد أن تمكن أبو حمّو من إحباط محاولة أبي زيان القُبّي ، اعتقد أنه حسم مادة الخلاف في بلاده ، وبدأ يتطلّع إلى منطقة الحدود الشرقية ، ويفكر في معالجة شؤونها ، ومدافعة هجوم أمير بجاية الحفصيّ عليها .

نهوض أبي حمو الى بجاية :

وذلك أن الأمير أبا عبدالله الحفصيّ ، كان قد استولى على بجاية سنة (765 هـ) ، ثم اغتنم فرصة هزيمة أبي حمّو في البطحاء للاستيلاء على تدَلّس ، وإجلاء بني عبد الواد عنهـا [1] . وعندئذ أنهض أبو حمّو وزيره عمران بن موسى لاسترجاعهـا ، فحاصرها أياماً ، ولكنها امتنعت عليه ، وعاد إلى تلمسان من دون أن تسفر مهمته عن أية نتيجة (أوائل 766 هـ) .

ولكن الأمير أبا عبدالله تعرض ، في تلك الأثناء ، إلى هجمات ابن عمه أبي العباس ، أمير قسنطينة ، الذي هزمـه مرتين ، الأولى بفرْجيوَة ، في آخر سنـة (766 هـ) ، والثانيـة قرب سطيف ، في أوائل سنـة (767 هـ) ، ولم يستطع أبو عبدالله أن يواجـه الحروب في الجبهتين الشرقية والغربية فآثر أن يغير موقفـه إزاء أحد الجانبين ، ليستعين به على مقاومة الآخر [2] .

وعزم أبو عبدالله على تحسين علاقاته مع أبي حمو ، وتسوية الخلاف الذي نشأ بينهما في شان تدَلّس ، فتنازل له عنها ، وأصهر له في إحدى بناته ، وتمّ زفافها في أوائل ربيع الثاني (767 هـ) [3] .

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 267 .

(2) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 267 – 268 .

(3) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 166 ، كتـاب العبر ، ج 7 ، ص 268 .

إلا أن الأحوال لم تتحسّن في إمارة بجاية ، ولم يفتأ الوضع يتدهور بها إلى أن أغار أبو العباس على بجاية ، فاحتلها في (20 شعبان 767 هـ)، وتقبّض جنوده على أبي عبدالله ، فقتلوه [1] .

وعندئذ رأى أبو حمو أن الفرصة سنحت له في الزحف إلى بجاية ، فنهض إليها في جيش قويّ ، مظهراً أنّه يريد الثأر لصهره الأمير أبي عبدالله (شوال 767 هـ) ، وكان بعض أهالي بجاية قد كاتبوه آنذاك ، ووعدوه بالمساعدة على افتتاحها (على لسان المشيخة من أهل البلد) [2] ، وكان معظم جيش الأمير أبي العباس ، بقيادة مولاه بشير ، مستقراً بقسنطينة ، فظهر لأبي حمو أن الظروف ملائمة لنجاح محاولته .

وزحف السلطان الزيّاني في اتجاه بجاية ، أما أبو العباس الحفصي فإنه ، حينما علم بحركة أبي حمّو ، استقدم القائد بشيراً بجيشه ، وطلب منه أن يضم إليه الأمير أبا زيان ابن السلطان أبي سعيد ، الذي كان آنذاك رهين السجن بقسنطينة .

واصطدم ابو حمّو بجيش القائد بشير ، قبل أن يصل الى بجاية فالتقى الجمعان ، وأبدى جيش قسنطينة مقاومة شديدة ، منعت الجيش العبد الوادي من أن يلحق به الهزيمة ، ويقضي عليه ولما شاهد أبو حمّو

---

(1) أنظر كتاب العبر ، ج 6 ، ص 858 – 859 ، التعريف ، ص 105 – 106 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 159 – 160 .
(2) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 270 .

ما لم يكن ينتظره من استعصاء قوة أعدائه ، أقلع عنهم ، وراح يضرب الحصار على بجاية ، ظانّا أنه يفتحها بعد قليل بمساعدة الساخطين على أبي العباس من سكان بجاية .

ولكن أمل أبي حمّو لم يتحقق ، ولم يحرز على النصر الذي كان يرجوه ، بل اصبح جيشه بين نارين ، فتراجع أتباعه العرب ، واختلّ نظام عسكره ، وانقلب هجومه الى هزيمة شنعاء ، أسر وقتل فيها كثير من جنوده وهام كثيرون على وجههم ، والتحق الباقون بمنافسه أبي زيان فلم يسع أباحمّو إلاّ الفرار بنفسه،تاركاً للعدو حرمه ، وكثيرا من المال والعتاد ، فكانت أكبر هزيمة عرفها أبو حمّو في حياته (8 ذي الحجة 767 هـ) . ولما اقتسمت السبي والغنائم ، كان من نصيب أبي زيان ، إحدى نساء أبي حمّو ،وهي ابنة يحيي بن أبي بكر الزابي وكانت أعز نسائه اليه . (1)

وقد نتج عن هزيمة بجاية المشؤومة ، أن تقوى أبو زيان ابن عم أبي حمّو ومنافسه بما انضم اليه من الجيش المهزوم ، وأعلن عرب المناطق الشرقية تأييدهم له ، فاصبح أبو زيان يحتلّ ، لأول مرة ، منزلة هامّة في المغرب الأوسط ، وصار بامكانه أن يطالب بعرش أبيه معتمدا على قوى لا يستهان بها وأتباع كثيرين .

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 – ص 270 – 271 ، بغية الرواد ، ج 7 ص 182 – 183 .

ولا شك ان هزيمة بجاية أضعفت أبا حمو بصفة محسوسة، فثبّطت عزائم أنصاره ، وشتّتت شملهم ، وقضت على كثير من أبطال فرسان بني عبد الواد ، وقد نتج عن ذلك أن ضعف نفوذ أبي حمّو في كثيرمن نواحي المغرب الأوسط، وزالت هيبته من نفوس قبائل العرب،واتضح للجميع أن الجيش العبد الوادي أحوج ما يكون الى قيادة عسكرية ذات كفاءة وخبرة،وأنه منذ وفاة ابن مسلم لم يجد قائدا يتولى تنظيمه،ويسهر على إحكام الخطة الحربية ، ويسير به الى النصر .

وأخذت قبائل العرب في المغرب الأوسط توجه أنظارها نحوأراضي التل الخصبة ، وترى أن الفرَصة قــــد سنحت لها للاستيلاء على تلك الأراضي ، وإنماء ماشيتها وأموالها ، بعد أن ذاقت حياة الشظف والعناء في الجنوب . وفهم عرب زغبة أن الوقت قد حان لتدفّقهم على السهول الشمالية الخضراء كالسيل ، يكسح في طريقه كل الحواجز التي تحاول إيقافه ، أو تمنعه من التقدم .

منافسة الامير ابي زيان ابن السلطان ابي سعيد :

وسرعان ما انحازت الى جانب أبي زيان قبيلة حصين ، من زغبة ، وكانت تقطن ناحية تيطري الجبلية، وقد سئمت دفع الضرائب للسلطان أبي حمو ، « فارتكبوا صعب الشقاق لمغبة العز ، وبايعوه على الموت

الأحمر ، ووثقوا بمعتصمهم من جبل تيطري ان دهمهم عسكر السلطان ، »[1] ،

وانتهز أبو زيان وأتباعه من حصين ، فرصة هزيمــة أبي حمّـو ، وتضعضع جيشه للزحف الى المدينّـة،في أول سنة(768 هـ) فتغلّبوا على حاميتها ، واستولوا عليها بعد انحاصروها أياما ، وكان بها وزراء أبي حمّـو ، عمران بن موسى اللؤلؤي ، وابن برغوث ، وواّدفل بن عبو ، وبعض مشيخة بني عبد الواد ، فاطلق أبو زيان سراحهم[2] .

ولم يستسلم أبو حمو الى اليأس ، بعدما أصابه من فشل وخيبةفأمر بجمع الجيوش ، وأرسل الوزير ابن برغوث في جند بني عبد الواد وبني توجين وبني راشد، كما بعث القائد عطية بن موسى في جند ناحية شلف، ثم أنهض الوزير عمران بن موسى بجند مدينة تلمسان . وبعد ذلك بقليل، أرسل ولده الأمير أبا تاشفين لاستجاشة سويد والديالم والعطاف ، وسد الثنايا في وجه الثوار لمدافعتهم عن الأراضي الخاضعة للسلطان .[3]

فلم ير أبو زيان أحسن طريقــة لمقاومة هــذه العساكر العديدة من

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 271 ،

(2) انظر كتـــاب العبر ، ج 7 ، ص 271 – 272 ، بغية الرواد ، ج 2 ص 184

(3) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 185 .

مغادرة المديَّة ، والاعتصام بجبل تيطَري، فتبعته جيوش أبي حمو، وحاصرته في معقله مدّة ، وأخيراً فوجئت هذه ليلاً بهجوم الثوار ، فاضطرب أمرها وانهزمت أمامهم تاركة الأخبية والذخائر ، فاعتصم عمران بن موسى بالمديَّة ، وابن برغوث بمليانة ، وتقهقر جيش أبي تاشفين « بمرحلة أو اثنتين »[1] ، (أوائل ربيع الثاني 768 هـ) ،

ومما زاد في تدهور موقف أبي حمّو ، أن جيشاً آخر ،كان بعثه برئاسة عثمان بن مسلَّم الزردالي لمؤازرة ابنه الأمير أبي تاشفين،التحق بالثوار ، وقصد جبل تيطري عبر جبل وانشريس ، فقوي بذلك ساعد أبي زيان ، واستفحل أمره ، وانطلق ، من جديد ، صوب المديَّة فحاصرها .

وعندئذ توجّه ابن برغوث من مليانة نحو أبي زيان لصده عن المديَّة ، بعد أن وافته الأمداد من العاصمة، الا أنه انهزم أمامالثوار، وتراجع ، مع عمران بن موسى نحو تلمسان ، بعد أن أسلما لهم مليانة والمديَّة (أواخر ربيع الثاني 768)[2] .

وكان لاستيلاء الأمير أبي زيان على المديَّة ومليانة ، وظهوره على جيوش السلطان أبي حمو، وقع كبير في المنطقة الشرقية من المملكة

---

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 185 ـ 186 .

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 194 .

الزيانية فانضمّت الى أبي زيان سائر القبائل التي كانت تريـــد استرجاع استقلالها وسئمت طاعة العرش العبدالوادي، وفي مقدمتها قبيلة الثعالبة، من المعقل ، وكانوا قاطنين سهل مَتّيجَة . وتبعهم أهل الجزائر ، في بيعة أبي زيان ، وخلع طاعة أبي حمّو[1] ،

وحينئذ نهض أبو حمّـو بنفسه ، وخرج من تلمسان في (27 جمادى الأولى 768 هـ) فجمع ما قدر عليه من الجنود ، وبثّ رسله في قبائل العرب يعرض عليهم الأموال والاقطاعات . ثم مر بقلعة بني سلامـــة حيث كان مقر أبي بكر بن عريف ، شيخ سويد ، فطلب منه مشايعته ضد أبي زيان (شعبان 768 هـ) ، وانضم إليهما خالد بن عامر وقومه .

ولكن هذا الحلف لم يلبث أن افترق شمله ، وذلك أن أبا بكر بن عريف وخالد بن عامر انفصلا عن أبي حمّـو ، بعد قليل فطاردهما قصد إرغامهما على طاعته ، وتبعهما الى ناحية جرجرة ووادي الدوم ، ولكنه لم يظفر بشيءْ ، وعاد أدراجه الى تلمسان ، بعد أن شنوا عليه الغارة ، وهزموا عسكره ، ونَهَبُوا ذخائره .[2]

ثم التحق بنو عامر وسويد والديالم والعطاف بأبي زيان، فاعتقد أن

---

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 272 ، بغية الرواد ، ج 2 ص 194 - 195 .

(2) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 272 ، بغية الرواد ، ج 2 ،ص 196 .

الأمر صار هينا ، وأن أيام أبي حمّو أصبحت معدودة، فقصد تلمسان والمدن في طريقه ، تنحاز الى جانبه (كتنس ومستغانم ومزغران ووهران) [1] ، الى أن بلغ وادي مينا ، فعسكر قرب البطحاءمنتظرا قدوم أبي حمّو وعازما على القضاء عليه .

أما السلطان العبد الوادي ، فانـــه خرج من تلمسان في (6 ذي القعدة 768 هـ) ، وأمر أتباعه ، المقيمين آنذاك بتاسالة ، بالتوجه نحو البطحاء ، وعندمـــا بلغ معسكر أبي زيان ، انقضّ على مقدمة جيشه بغتة ، فتراجعت مهزومة ، وأحدث ذلك قلقـــاً واضطرابا وسط باقي جيش أبي زيان وأحلافـــه ، فانفضّوا من حوله ، وغادروا ساحة الحرب ، وانصرفوا إلى مناطقهم المختلفة [2] .

ثم وفد شيوخ سويد والديالم والعطّـاف على أبي حمّـــو ، والتمسوا منه العفو ، وأعربوا له عن إذعانهم لطاعتـه ، كما بعثت المدن بيعاتها إلا مدينة الجزائر [3] . وانقلب الوضع ، فبينما كان أبو حمو ، عندما غادر عاصمته ، يقوم بمحاولة يائسة للدفاع عن عرشه ، أصبح بعد انتصاره في البطحاء يطارد عدوه ، ويسترجع نفوذه في المنطقة الشرقية .

---

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 196 .

(2) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 197 – 198 .

(3) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 198 .

وتوجه أبو حمّو ، عبر ناحية شلف ، إلى بسيط مليانة (محرم 769 هـ) ، فافتتحها ، وأصلح أحوالها وحصّنها . وبعث رسله إلى الدواودة ، من رياح ، للتفاوض معهم في عقد حلف معهم ، وكان الدواودة في نزاع مع الأمير أبي العباس الحفصي ، صاحب قسنطينة وبجاية ، واتفق معهم « للحركة على الأمير أبي زيان وبعدها إلى بجاية » (1) . وبهذا أصبح لأبي حمّو أنصار جدد يستعين بهم على مواجهة عدوه ، ثم عاد إلى عاصمته في (15 ربيع الثاني 769 هـ) ، ومرة أخرى ، اعتصم أبو زيان وانصاره من حُصَين بجبال تيطرّي .

ثم قرر أبو حمّو العمل للقضاء على ثورة ابن عمه أبي زيان ، فنهض بجيشه ، (7 شعبان 769 هـ)، متوجها نحو المنطقة الشرقية،وبدأ بالسير الى الجنوب قاصداً خالد بن عامر وأبا بكر بن عريف وقومها ، ففروا أمامه الى الصحراء ، ثم قصد مع أحلافه الدواودة جبال تِيطَرّي،حيث انضم الى منافسه أبي زيان بنو عامر وسويد ، وحاول أبو حمّو ضرب الحصار عليهم، الا أن هؤلاء لم يمهلوه وهاجموه بعنف،فاختل جيشه وانهزم شر هزيمة ، ولَجَأ بنفسه الى تلمسان عن طريق الجنوب ، ورجع الدواودة الى بلادهم (شوال 769 هـ).(2)

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 272 – 273 .

(2) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 273 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 202 – 206

ومرة أخرى ، أصبح موقف أبي حمّو يدعو الى القلق ، وسنحت الفرصة من جديد لأبي زيان في الزحف الى تلمسان، وضعف جانب السلطان الزيّاني وقل أتباعه بما حدث من هزيمة أحلافه الدواودة وانصرافهم الى أوطانهم ، وتراجع جيشه ، يتبعه أبو زيان وأحلافه ، وتوغّل في البلاد الى أن بلغوا سيرات ، قبلة مستغانم .

وحينئذ رأى أبو حمّو أن يلجأ ، مرة أخرى ، الى الدهاء والوسائل السياسية ، بعد أن فشلت محاولته العسكرية ، فعمل على إبعاد الأتباع عن أبي زيان ، وفي مقدمتهم خالد بن عامر ، فأرضاه بالأموال والاقطاعات ، وبادر خالد بالانفصال عن ابي زيان والانحياز الى أبي حمّو ، وانفضّ كثير من القبائل الأخرى من حول أبي زيان ، فعاد الى معتصمه بالمنطقة الشرقية ، في ذي الحجة(769 هـ).[1]

وكان أشياخ سويد قد التزموا إخراج أبي زيان ، حليفهم السابق من القطر ،وفي أوائل(770 هـ)، وفد محمد بن عريف السويدي على أبي حمّو فعفا عنه ، وبعث معه الوزير عمران بن موسى « للحاق بأبي بكر بن عريف لاستقصاء الشرط الذي التزمه في أبي زيان »[2] .

ولكن هذا الأخير عاد ، في شوال(770 هـ)، الى جبال تِيطَرْي ،

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 274 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 207

(2) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 207 – 208 .

بمساعدة أبي بكر بن عريف وبعض أنصاره ، وخشي أبو حمّو ، مرة أخرى ، أن يستفحل أمره ، فنهض في ذي القعدة(770 هـ) الى الشرق بجميع ما كان لديه من الجيوش ، وبعث الوزير عمران بن موسى الى أشياخ القبائل ليأتيه بهم مذعنين للطاعة، وعندما نزل أبو حمّو بالبطحاء، أتاه عمران بن موسى بمحمد بن عريف ، وسعد بن العباس الديالمي ، فغضب أبو حمّو لتمادي الكثير من عرب المنطقة الشرقية في مدّ يد المساعدة لمنافسه أبي زيان ، ومن بينهم أبو بكر بن عريف ، وعزم على انتهاج سياسة الشدة والحزم ازاء بني سويد واحلافهم ، بعد أن أخفقت سياسة اللين والمداهنة ، وحثه على اتخاذ هذا الموقف خالد بن عامر ، عدو سويد اللدود ، فنكب أبو حمّو وزيره عمران وأجازه الى الأندلس ، وأمر بسجن محمد بن عريف وسعد بن العباس (في ذي الحجة 770 هـ)[1].

وهذا الاجراء ، إن دلّ على شيء ، فإنما يدلّ على الدور الهام الذي أصبح يلعبه بنو عامر في الدولة العبد الوادية ، وعلى ما قد ينجم عن ذلك من العواقب الوخيمة على العرش العبد الوادي ، وذلك أن تحالف أبي حمّو معهم يقتضي معاداة خصومهم ، وبالدرجة الأولى قبيلة سويد، ولا شك أن هذه الوضعية أفقدت أبا حمّو سلطته المطلقة وهيمنته على سائر قبائل القطر ، فأصبح سلطان فئة ، وخصم فئة أخرى ناصبته عداءها ، وأبت الا مناصرة منافسه أبي زيان

---

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 222 – 223 ، كتاب العبر ، ج 7 ص 274 .

وقدسبق لنا أن ذكرنا دور بني عامر بعد معركة البطحاء ومغادرتهم صفوف أنصار أبي زيان ، بعد أن آزروه وأيّدوه ، ممّا أدى الى تراجع جموعه وانفضاضهم من حوله .

وكانت سويد ، في هذه المواقف ، أصعب انقياداً من بني عامر وأشد حذراً منهم ،فبينما كان محمد بن عريف يذعن لطاعة أبي حمّو ،كان أخوه أبو بكر متمادياً في عصيانه ، والظاهر أنه لم يثق بأبي حمّو ،وخشي أن يقع في فخّ ، ينصبه له أبو حمّو وبنو عامر ، فلم يرضَ اللحاق بالسلطان ، والمثول أمامه ، ولا سيما أن عدوه الأكبر خالد بن عامر ، كان بجانب أبي حمّو ، يدلي برأيه في شتى المواقف ، وكان السلطان يستشيره ولا يرد له طلباً ، ويعمل بنصائحه لإرضائه وكسب طاعته ، فكان من الطبيعيّ أن يرتاب أبو بكر بن عريف من صدق وعود أبي حمّو ، وأن يخشى على نفسه إذا ما وفد عليه ، وكان قد سبق لأبي حمّو ، مراراً ، أن أمر بسجن من كان يخشى شرهم ، كزيان بن أبي يحيى الراشديّ ، وخالد بن عامر ، وعبدالله بن سقير ، ومحمد بن عريف ، وغيرهم .

وقد نتج عن موقف أبي بكر بن عريف هذا ، أن غضب أبو حمّو على قومه سويد ، وأغراه خالد بن عامر عليهم ، فأغار أبو حمّو على أراضي سويد في أوائل صفر (سنة 771 هـ) ، وانتسف قلعة بني سلامة وكانت أهم مقر لهم [1] ، وإثر ذلك غادرت سويد المغرب الأوسط

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 274 — 275 .

وانصرفت إلى المغرب الأقصى ، حيث سعت في إفساد العلاقات بين بني مرين وبني عبد الواد ، فكان ذلك من أهم العوامل التي أدت إلى حركة السلطان عبد العزيز بن أبي الحسن المريني إلى تلمسان ، واستيلائه عليها (أوائل 772 هـ) .

وهنا تنتهي مرحلة أخرى من عهد أبي حمّو ، دامت أيضاً ست سنوات وامتازت بتلاشي نفوذ قبيلة بني عبد الواد ، وسيطرة عناصر قبيلة زغبة على الموقف ، سواء في شرق القطر أو في غربه ، وأصبح الصراع القديم بين بني عامر وسويد يحتل المكانة الأولى في الحياة السياسية . أما المنافسة بين أبي زيان وأبي حمّو ، فإنها لم تستمر إلا باستمرار صراع بني عامر وسويد .

استيلاء السلطان عبد العزيز المريني على المغرب الأوسط :

كان لتخريب أبي حمو قلعة بني سلامة وقع سَيِّئ في نفوس سويد ، فعزموا على الثأر لما أصاب أهل القلعة من إخوانهم ، والتحق أبو بكر ابن عريف ، مع قومه وأحلافهم من الديالم والعطاف ، بالمغرب الأقصى ، مستغيثاً بالسلطان عبد العزيز المريني ، وكان أخوه ونزمار يحتل منزلة هامة في البلاط المريني ، فبذل كل جهده في إقناع السلطان عبد العزيز ، ورغّبه في الإستيلاء على تلمسان والمغرب الأوسط ، الأمر الذي يرفع من شانه وشان الدولة المرينية ، ويمكّن سويد من الثأر لقبيلتهم ، وفكّ إسار محمد بن عريف .

وكان عبد العزيز آنذاك ناقماً على أبي حمّو ، لأن هذا الأخير كان قد حصل على خدمة المعقل ، الخارجين عن طاعة بني مرين ، وبعث اليه عبد العزيز مراراً في شأنهم ، فلم يلب طلبه .

وبعد مدة ، حصل ونزمار وأبو بكر ابنا عريف على موافقة السلطان المريني ، فامر هذا بحشد الجيوش ، وبعد قضاء عيد الأضحى لسنة (771 هـ) ، ارتحل بها متجهاً نحو تلمسان .

وعندما اتصل أبو حمّو بالخبر ، كان معسكراً بالبطحاء ، فاغذّ السير نحو عاصمته ، وأجال الفكر مع مستشاريه ، فاستقر رأيهم على مغادرة تلمسان بالجيش والذخائر ، والاتجاه إلى الجنوب الشرقيّ من القطر .

وفي غرة محرم (772 هـ) ، خرج أبو حمّو من تلمسان مشرقاً ، والتحق ببني عامر ، ثم أخذ يترقّب أخبار بني مرين ، أما عبد العزيز المريني ، فإنه احتل تلمسان في (10 محرم 772 هـ) ، وسرّح وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس في أثر أبي حمو ،الذي كان قد بلغ البطحاء، وفي تلك الأثناء التحق ونزمار بن عريف مع قومه وأحلافهم بابن الكاس ، وساروا جميعاً لمطاردة أبي حمّو وبني عامر .

وكان هؤلاء قد اتجهوا نحو الزاب ، إلى أن حلّوا ظاهر قرية الدوسن ، قريباً من نهر شدّي (نهر جدّي حالياً) ، فحاول أبو حمّو

استمالة أولاد محمد، من رياح، إلى جانبه ، وعندئذ فاجأهم الجيش المريني، ففرّ بنو عامر أمام العدو ، فانهزم أبو حمّو ومن بقي معــــه هزيمة كبرى ، وترك معسكره وأمواله وذخـــائره للعدو ، وانسحب عن ساحة الحرب ، في اتجاه الجنوب ، يبغي النجـاة (أوائل ربيع الأول 772 هـ) [1] .

ومنذ ذلك الزمـان ، كانت المحنة الكبرى عـبر الصحراء ، والعناء الشديد في تلك المناطق الشاسعـة ، وجنود بني مرين تتعقـب السلطان الزّيانيّ وأهله وأتباعـه ، غير أنه تمكن من اتّقـاء شرّهم وشرّ سويد، رغم ما بذله هؤلاء من جهود لمطاردته .

وفي أواسط سنة (773 هـ) ، أرسلت فرقـة من قبيلة ذوي عبيد الله ، من عرب المعقل ، ببيعتها إلى أبي حمّو ، معلنة بذلك خلع طاعة السلطان المريني ، وأخذت تغير على نواحي وجدة ، وتخرّب عمرانها ، وتفسد مزارعها .

وفي تلك الأثنـاء كانت حُصَيْـن تغـير على ناحية المديّـة ، وكان حمزة بن علي بن راشد قد ثار في ناحية شلف ، فاتسعت رقعة الفتنة في المغرب الأوسط ، على بني مرين ، وعـــاد أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد إلى تـيطَـرّي ، باستدعاء من حُصَيْـن .

---

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 277 ، بغية الرواد ، ج 2 ، ص 239 .

وعندئذ قرّر أبو حمّو وأتباعه الإغارة على ناحية تلمسان ، فتوجّهوا نحو الشمال ، قاصدين التل ، ولكن بني مرين داخلوا خالد ابن عامر في شأن الالتحاق بهم ، والانفصال عن أبي حمّو ، ووافق ذلك فتوراً في العلاقات بين خالد وأبي حمّو ، فانخذل شيخ بني عامر مع كثير من قومه عن أبي حمّو ، وتبعهم الوزير عمران بن موسى وغيره من وزراء أبي حمّو ، منحازين إلى الجانب المريني .

ولم يشأ أبو حمّو أن يتراجع عن محاولته تلك بعدما حدث في صفوف رجاله من تخاذل ، بل تابع سيره نحو عاصمته ، قاصداً عدوه ، ومواجهاً ما كان في تلك المنطقة من القوات المرينية ، فلقيها بأوماكرا ، ولكنه انهزم شر هزيمة واستولى العدو على ظعنه (بما اشتمل من مال وذخيرة وأهل وولد) ، وأفلت أبو حمّو من المعركة مع ابنه أبي تاشفين وقليل من الأقرباء والأتباع (25 شوال 773 هـ).[1]

ثم عاد أبو حمّو إلى تجواله في القفر ، فذاق الأمرّيْن ، وصعب عليه الخلاص من براثن خصومه ، فاضطر إلى مفارقة أبنائه مدة ، ثم اجتمع بهم في قصر أبي سمعون ، الواقع في أراضي بني عامر الجنوبية (أواخر ذي القعدة 773 هـ) ، وقصد بهم الصحراء ، فراراً من العدو ، واستقر أخيراً بتيقورارين ، في جنوب الصحراء ، مما يتاخم بلاد

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 256 ، كتاب العبر ، ج ، ص278–279 و 688 .

السودان ، بعد أن ترك أبناءه في أحياء بني عامر (آخر سنة 773 هـ).

وكان السلطان عبد العزيز قد اتخذ تلمسان مقراً له ، وبها أصيب ، في تلك الأثناء، بداء خطير، توفي منه في (22 ربيع الثاني 774 هـ)[1]. فاضطربت أحوال العرش المريني ، وانتقل رجال الدولة إلى فاس ؛ تاركين على تلمسان أحد أمراء بني عبد الواد ، هو إبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين الأول .

غير أن إبراهيم هذا لم يسيطر على الموقف ، إذ اصطدم بأحد موالي أبي حمّو ، يدعى عَطِيَّة بن موسى ، الذي عمل على طرده من تلمسان ، وملك زمام الأمر بها باسم السلطان أبي حمّو .

وسرعان ما بلغ الخبر أبا حمّو الثاني ، في منفاه البعيد ، فانفرجت عنه الشدة ، ورحل عائداً إلى عاصمته ، فدخلها في (24 جمادى الأولى 774 هـ)، بعد غيبة دامت سنتين، تعرّض أثناءها إلى أخطار لا تحصى، كادت تذهب بعرشه ، وتودي بحياته وذاق فيها ما لم يذقه معظم الأمراء والسلاطين من المشقة والعناء[2].

---

(1) انظر بغية الرواد ، ج 2 ص 259 ؛ كتاب العبر ، ج 7 ، ص698 – 699

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 270 – 274 ، كتاب العبر ، ج7، ص 281 .

عودة ابو حمو الى عاصمته :

ومرة أخرى ، وجد أبو حمّو نفسه أمام مشاكل عديدة ، فكان أحد أمراء أولاد منديل ، علي بن هارون ، قد انتصب أميراً بناحية شلف ، بمساعدة بني مرين ، وأخذ يجمع شتات إمارة أجداده ، ويحاول إحياءها من جديد ، وعاد أبو زيان من منفاه بوارقلة ، قاصداً أنصاره حصين بجبال تِيطَرّي ، وعاملا على استرجاع نفوذه السابق في المنطقة الشرقية .

وكان ونزمار بن عريف قد نصح أخويه أبا بكر ومحمد بالتحالف مع أبي حمّو ، واغتنام فرصة خديعة خالد بن عامر لإحلال سويد محل بني عامر في « مخزن » الدولة العبد الوادية ، ووافق ذلك حنق أبي حمو على خالد بن عامر وقومه ، فعمد إلى تغيير سياسته تجاه قبائل زغبة ،وأصبح يعهد إلى سويد مهمة الدفاع على كيان دولته .

اخضاع المنطقة الشرقية :

وبدأ أبو حمّو بتوجيه جيوشه ، بقيادة عطية بن موسى إلى ناحية شلف (أواخر جمادى الأولى 774 هـ) ، ولم يَقْوَ علي بن هارون على مقاومة هجوم عطية بن موسى ، فراح يستغيث بأعداء أبي حمّو ، وتحالف مع خالد بن عامر وقومه ، وقبيلة توجين ، وغيرهم ، وفي رجب (774 هـ) ، هاجم بعض هؤلاء الأحلاف جيش عطية بن موسى ،

وأرغموه على الالتجاء إلى تنس ، فحاصروه بهـــا ، بينما اتجه خالد بن عامر وأتباعه صوب تلمسان ، قصد الاستيلاء عليها .

وكان رد فعل أبي حمّو أن أرسل جيشاً معززاً بأحلافـه الجدد من سويد ، بقيادة ابنه الأمير أبي تاشفين ، لصد خالد ، فانهزم هذا الأخير ، وانصرف بقومه إلى الصحراء (شوال 774 هـ) .

ثم تابـع أبو تاشفين سيره إلى ناحية شلف لنجدة عطية بن موسى ، فرفع المخالفون من مغراوة الحصار ، واعتصموا بجبل بـــني بلسيت ، فاقتحمه عليهم ، وأوقع بهم ، وفرّ الكثـــير منهم إلى ميّجة (في ذي الحجة 774 هـ) [1] .

وفي أول (775 هـ) ، توجه الأمير أبو تاشفين بالجيش والأحـلاف من سويد وغيرهم ، صوب الجنوب ، لرد عادية خالد بن عامر وقومه ، فأقام مدة بالسرسو ، ثم عاد إلى ناحية شلف لغزو علي بن هارون وقبيلته مغراوة ، فعسكر بظاهر مازونة ، واعتصمت مغراوة بجبل زاتيمة ، فضايقهم أبو تاشفين ، واستمرت الحال على ذلك مدة أشهر ؛ وأخـــيراً لجأت مغراوة إلى الاستغاثة بأبي زيان ابن السلطان أبي سعيد وأنصاره حصين والديالم والعطاف والثعالبة ، واجتمعت كلمة هؤلاء على مناجزة أبي تاشفين الحرب ، فقصدوا معسكره والتحم القتـال ، فكانت الهزيمة

---

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 279 - 280 .

على مغراوة وأحلافهم (رجب 775 هـ) ، وانصرف علي بن هارون بعد أن ذاق مرارة الفشل والخيبة ، بينما استقر أبو تاشفين بمازونة [1] .

وغادر السلطان أبو حمّو تلمسان ، في غرة شوال ، والتحق بابنه ، ثم توجه إلى تيمزوغت ، حيث أقام معسكره ، وأخذ يضايق مغراوة من جديد ، واستمرت الحال على ذلك إلى أوائل ربيع الأول (776 هـ) ، حيث تمكن أبو تاشفين من اقتحام المعقل الذي اعتصم به علي بن هارون، والاستيلاء عليه ، ففر المغراوي إلى بجاية ،وركب البحر في اتجاه المغرب الأقصى [2] .

وبهذا الانتصار أذعنت المنطقة الشرقية إلى طاعة أبي حمّو ، فقويت شوكته ، واسترجع معظم ما كان له من النفوذ في المغرب الأوسط ، ولا سيما بعد أن أذعنت للطاعة الثعالبة وحصين ، وقد لعب محمد بن عريف دوراً هاماً في التوسط بين المخالفين وأبي حمّو والوصول الى اتفاق يرضي الطرفين ، وقبل أبو زيان الانصراف إلى بلاد الدواودة ، على أن يدفع إليه أبو حمّو مبلغاً من المال ، وعاد أبو حمو إلى عاصمته بعد أن حقق ، بفضل مساعدة سويد ، هذا الانتصار الكبير (جمادى الأولى سنة 776) [3] .

---

(1) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 281 - 282 ، 285 - 286 ، كتاب العبر ، ج 7 ، ص 282 .

(2) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 286 و 308 .

(3) أنظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 309 .

أما بنو عامر ، فلم يرضوا بجلائهم عن أراضيهم في المغرب الأوسط لفائدة سويد،وانتهاء نفوذهم في المملكة الزيانية التي أحيوها بعد الاستيلاء المريني ، ودافعوا على كيانها مدة طويلة ، ولم تفلح مساعيهم في الحصول على مساعدة بني مرين ، فلما يئسوا من ذلك قرر عبدالله بن سقير وقومه العودة إلى أوطانهم ، والدفاع عنها بالقوة ، وانتهزوا فرصة غضب أبي بكر بن عريف ، عندما عزل أبو حمّو صديقه يوسف بن عامر بن عثمان عن إمارة وانشريس ، فاستمالوه إليهم ، وبايعوا جميعاً الأمير أبا زيان ، (وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح ، فوصل معهم ونصبوه للأمر).[1]

إلا أن جمهور سويد ومحمد بن عريف كانوا من جانب أبي حمّو فتوّجه ، في (أول سنة 777 هـ) ، في اتجاه المخالفين ، وزحف عبدالله ابن سقير وأبو بكر بن عريف وأتباعهما إلى مازونة ، قصد مفاجأة القائد عطية بن موسى ، ولكن محاولتهم لم تفلح وانهزموا شر هزيمة (4 ربيع الأول 777 هـ) « فاوسعهم قتلاً وأسراً ، وسلب طبل أبي زيان وأعلامه » [2].

ولما اجتمع جيش أبي حمّو بجيش عَطِيَّة وأبي تاشفين ، انفض أتباع أبي زيان من حوله ، وعاد عبدالله بن سقير إلى المغرب الأقصى ،

---

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 284

(2) أنظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 329 .

وأصحر أبو بكر بن عريف ، ثم عرض عليه أبو حمو ما أرضاه من المال والاقطاعات ، أما أبو زيان فإنـــه رجع إلى بلاد الدواودة ، وقد خاب أمله (ربيع الثاني 777 هـ) [1] .

الصراع بين عامر وسويد :

ثم لم تنجح مساعي خالد بن عامر في الاستنجاد ببني مرين فغزم بنو عامر على الرجوع الى أراضيهم ، ومناجزة الحرب لسويد ، خصومهم الألداء . وغادروا المغرب الأقصى ، متجهـــين نحو المغرب الأوسط وعلمت سويد بنواياهم ، فاعدّت لهم ما استطاعت من عدة ، واستنفرت حلفاءها العطاف ، والسلطان أبا حمّـو ، فأمر ابنـــه أبا تاشفين المستقر انذاك بجبل هوارة ، بالاستعداد لصرختهم .

ولما وصل بنو عامر الى أعالي نهر مينا ، توجه اليهم أبو تاشفين وضم جيشه الى سويد ، والتقوا ببني عامر في تلك الناحية ، في(2 ذي الحجة 777 هـ) ،فبات الفريقان في انتظار المعركة الحاسمة واستضاؤوا بالنيرات، مخافة البيات . وفي الصباح نشبت الحرب بين الفئتين ، وحمي الوطيس الى بعد الظهيرة فانهزم بنو عامر ، وقتل كثير من أبطالهم ، كعبد الله ابن سقير ، وأخيه ملوك ، والعباس بن موسى بن عامر ، وغيرهم(3 ذي الحجـــة) .

---

(1) أنظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 284 ، بغيــة الرواد ، ج 2 ، ص 328 - 330 .

وبهذا ، قطع دابر بني عامر ، وانتهى الحلف القديم بينهم وبين أبي حمّو، وأصبح السلطان العبد الوادي ينهج سياسة جديدة تعتمد على مصادقة سويد ، واستعمال نفوذ هؤلاء في المغرب الأوسط لنيل طاعة قبائل المنطقة الشرقية ، ونفوذهم في المغرب الأقصى لاقامة السلم مع بني مرين .

اخضاع الثعالبة :

وإثر هذا الانتصار ، انتقض شيخ الثعالبة ، سالم بن إبراهيم ، على أبي حمّو (أول سنة 778 هـ) ، واتصل بخالد بن عامر وقومه فوافقوه على الخلاف ، واجتمعوا على البيعة للأمير أبي زيان ، وأقاموا له الدعوة بالجزائر ثم توجّهوا الى مليانة وحاصروها ، فامتنعت عليهم ، وعادوا الى الجزائر ، وفي تلك الأثناء مرض خالد بن عامر وتوفي بها .

ثم نهض أبو حمّو بجيشه لاخضاع الثعالبة ، وتوجه صوب سهل متيجة ، فلاذوا الى جبال تِيطَرّي ، واعتصموا بها ، فحاصرهم وضيّق عليهم الى أن انقادوا لطاعته ، وقبل مطالبهم على شريطة أن يفارقوا ابن عمه أبا زيان ويصرفوه عن البلاد (أواخر رمضان 778 هـ) (1) .

ولما انتهى أبو حمّو من تهدئة هذه المنطقة ، وعزم على الرجوع

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 280 .

الى عاصمته ، عين الوزير السابق ، ابن برغوث ، والياً على الجزائر ، ثم عقد على مليانة وأعمالها لابنه المنتصر ، وجعل معه أخاه الصغير عمير ، كما عقد على وهران لابنه أبي زيان . [1] .

ولم يرتض الأمير أبو تاشفين تعيين أبي زيان على وهران ، لأنه كان يريد ولايتها لنفسه ، فغضب لذلك ، وظهرت ، عندئذ ، منافسة شديدة على الحكم بين أبناء أبي حمو الثاني .

المنافسة بين ابناء ابي حمو الثاني :

كان لأبي حمّو أبناء كثيرون ، ذكر أغلبهم يحيى بن خلدون ، فقال « وأبو تاشفين أكبر أولاد مولانا الخليفة ... الذين هم محمد المنتصر ، ومحمد أبو زيان ، ويوسف ، وعمر ، والناصر ، وعثمان، وفارس وعبدالله، وأحمد ، والسعيد ، وعلي ، ويعقوب ، وأبو بكر ، وداود وزيان . » [2] .

ولم يكن هؤلاء كلهم من أم واحدة ، بل تزوج أبو حمو نساء عديدات . فأما أبو تاشفين ، فانه ولد سنة (752 هـ) بندرومة منامرأة لا نعرف عنها شيئا. وأما المنتصر وأبو زيان وعمر (المسمى أيضاعمير)، فانهم كانوا اخوة لأم واحدة ، تزوجها أبو حمّو بميلة « أيام جولته في

---

(1) نفسه ج 7 ، 289 — 290 .
(2) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 273 — 274 .

بلاد الموحّدين »[1] ، أي بين (شوال 758 هـ ورمضان 759 هـ) ونعرف كذلك أن أم يوسف هي ابنة يحيى الزابي ، ولذا سمي يوسف ابن الزابية، وتزوجها أبو حمو في أواخر سنة(759 هـ) ، بعد أن غادر ناحية ميلة، ماراً بجبل عياض ، حيث كان مقر أبيها .

وكان أبو تاشفين أكبر إخوته ، وولي العهد ، وقد أشركه أبوه في الحكم بعد وفاة السلطان عبد العزيز المريني ، حين عودته الى عاصمته . الا آن أبا حمّو كان يعطف بصفة خاصة على المنتصر وأبي زيان وعمير . وربما كان يفضل أبا زيان ، لما امتاز به من تفوّق في العلم والأدب وقد حفظ القرآن ،وبمناسبة اختتامه له أقام أبو حمّو حفلا مشهورا (رجب 776 هـ)[2] ، ونظم أبو زيان الشعر مثل أبيه[3] ، فكان يحظى مع أخويه بمجالسة والده ومناجاته ، مما كان يثير غيرة أبي تاشفين وامتعاضه[4] .

وفي أواخر سنة (777 هـ) ، رأى أبو حمّو أن يعيّن بعض أبنائه على نواحي المنطقة الشرقية ، فولّى المنتصر على ناحية مليانة ، وأبا زيان على ناحية المدية ، ويوسف على تدلس وما يليها .

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 291 .

(2) أنظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 310 .

(3) أنظر مثلا ، التنسي ، نظم الدر والعقيان . مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1875 ورقة 68 ظ — 71 و.

(4) انظر كتاب العبر ، ج 7 ص 291

ولا شك أن أبا باشفين لم يرتض تعيين المنتصر وأبي زيان لما كان يشعر نحوهما من كره ، فلم يزده ذلك إلا حنقاً عليهما ، وتخوفاً منهما على حقه في العرش الزياني .

ثم لما عزم أبو حمّو على نقل أبي زيان إلى ولاية وهران ، بعد ما حدث في ناحية المدية من فتنة،غضب أبو تاشفين وقرر منع ذلك التعيين، وعندئذ ، طلب من أبيه أن يعقد له على وهران عوض أخيه أبي زيان .

والظاهر أن أبا حمّو وجد نفسه ، حينذاك ، في مأزق يصعب الخلاص منه من دون خصام ونزاع ، فكان ، من جهة،يودّ إرضاء ابنه أبي زيان ، ويوليه عناية خاصة،ولكنه من جهة أخرى،اصطدم بمعارضة وليّ عهده أبي تاشفين ، وطلبه الملحّ بالرجوع عن قراره السابق ، ولم يشأ السلطان أن يرجع عن عزمه ، كما انه لم يقدم على فرض إرادته وإجابة طلب أبي تاشفين بالرفض ، وإنما « أسعفه ظاهراً ، وعهد إلى كاتبه يحيى ابن خلدون بمماطلته في كتابتها حتى يرى المخلص من ذلك » [1] .

وكان في بطانة أبي تاشفين ، من حساد يحيى بن خلدون ، مَنْ أوهمَ الأمير أن كاتب السلطان ، كان بمماطلته تلك يعمل في صالح الأمير أبي زيان ، ويؤثره عليه .

---

(1) أنظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 292 .

فغضب أبو تاشفين لذلك ، وعزم على التخلّص من يحيى بن خلدون ودبّر مقتله ، على يد بعض أتباعه ، في إحدى ليالي رمضان سنة (780 هـ) ، بعد خروجه من القصر ، وعندما اكتشف أبو حمّو الحقيقة في مقتل كاتبه ، لم يسعه إلا الإغضاء ، وإرضاء أبي تاشفين بتعيينه على وهران ، وبعد ذلك بقليل ، طلب أبو تاشفين من أبيه أن يضيف اليه ولاية الجزائر ، فأقطعه إيّاها ، واستناب الأمير فيها أخاه يوسف ابن الزابية [1] .

وهكذا بدأ نجم أبي تاشفين يعلو في سماء المملكة العبد الوادية ، وظهر منه من الحزم والشدّة ما جعل والده يتفادى شرّه بإسعافه في جميع مطالبه ، وتلبية رغباته ، مما خفف من ثائرة ابنه ، وأخمد ثار غيظه .

وأخذت الأحوال تسير سيرها الطبيعي ، بعد أن شمل المغرب الأوسط الهدوء والاستقرار ، وتواصل تنظيم شؤون الدولة ، وتحسين العلاقات مع مختلف القبائل إلى أن تأزم الوضع في المغرب الأقصى في سنة (784 هـ) ، وقام ضد السلطان أبي العباس المريني ابن عمه عبد الرحمان بن أبي يفلوسن ، ينافسه على سجلماسة ومراكش، فتحالف أبو حمّو مع هذا الأخير ،وظاهره على خصمه ، مما أثار حنق أبي العباس على أبي حمّو ، وأدى إلى هجومه على تلمسان.

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 292 - 293 .

كان عبد الرحمان بن أبي يفلو سن ، بمراكش ، يعاني من حصار السلطان أبي العباس ،منذ أشهر. فاستصرخ بابي حمّو وأرسل اليه ابن عمه أبا العشائر ،برفقة يوسف بن علي بن غانم ، شيخ أولاد حسين ، من المعقل . وأجاب أبو حمّو صرختها ، فأرسل معها ابنه أبا تاشفين ، وتوجهوا الى ناحية مكناسة ، لشنّ الغارة عليها ، بينما أغار أبو حمّو على ناحية تازا ، قصد إرغام أبي العباس على الافراج على مراكش.

الا أن أبا العباس اقتحم مراكش، في تلك الاثناء ، واستولى عليها، وقضى على منافسه (أواسط سنة 785 هـ .) ، فما كان من أبي تاشفين وأبي العشائر ويوسف بن علي بن غانم الا أن قفلوا راجعين الى تلمسان، كما عاد اليها أبو حمّو مسرعاً ، بعد أن هدم قصر تازروت ومسجدها ، قرب تازا ، وخرب قصر مرادة ، الذي كان بناه ونزمار بن عريف السويدي في ناحية بطوية ، من أحواز تازا . [1]

وتخريب قصر مرادة هذا يدعو الى التساؤل عن العوامل التي جعلت أبا حمّو يقدم على هذا العمل وقد سبق أن أشرنا الى تحسّن العلاقات بين السلطان الزيّاني وقبيلة سويد ، بعد وفاة عبد العزيز المريني ، وما تلا ذلك من نكبة بني عامر وهزيمتهم .

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 295 .

ويظهر أن منافسة أبناء أبي حمّو على الحكم، وما امتازت به من عنف، قد جعلت أبا تاشفين يعتمد على سويد في دفاعه على حقوقه في العرش، مما أدى الى بحث أبي حمّو، من جهته، الى مؤيّدين لعرشه.

وقد يكون رجع، آنذاك، الى التحالف مع بني عامر، الأمر الذي يفسّر حادث تخريب قصر مرادة، ويجعلنا نعتقد أن ذلك كان، قبل كل شيء يرجع الى العداء القديم بين بني عامر وسويد، وقد يكون أبو حمّو طاوع بني عامر على تخريب القصر، بعد أن أصرّوا على ذلك ولكسب تأييدهم ضد ابنه أبي تاشفين وأنصاره سويد، في الصراع الذي قام بينهما.

والذي نراه هو أن بني عامر كانوا يهدفون، من وراء تخريب قصر مرادة، الى إفساد العلاقات بين المملكة الزيانية وقبيلة سويد ولم تكن لهم القوة التي تمكنهم من الانتصار على سويد، بعد الهزيمة الكبرى التي لقوها (سنة 777 هـ). فانتهزوا فرصة غارتهم مع أبي حمّو على ناحية تازا، لتخريب قصر مرادة، انتقاما لقتلاهم، وإحياء لعدائهم القديم.

ويبدو لنا جليا، من خلال هـذا الحادث، مدى تأثّر الأوضاع السياسية، بالصراع الطويل القائم بين بني عامر وسويد، وانعكاس هذا الصراع على العلاقات القائمة بين المغربين الأوسط والأقصى، وانتشار الفتن في المغرب الأوسط والتنافس على الحكم.

وعلى كل، فان حركة أبي حمّو في ناحيـة تازا قد أدّت الى تأزم

الوضع بينه وبين السلطان ابي العباس المريني ، فما عاد هذا الأخير الى عاصمته ، بعد القضاء على فتنة منافسه في الجنوب ، حتى أخذ يعد العدّة للنهوض الى تلمسان ، انتقاماً لموقف ابي حمّو العدائي وعندما أطّلع أبو حمو على ما كان يدبّره أبو العباس من استعدادات للزحف،استنجد بابن الأحمر ، وكان لهذا الأخير نفوذ كبير على الدولة المرينية ، فحث أبا العباس على مسالمة أبي حمّو . ولكن السلطان المريني لم يتأخر عن تنفيذ خطته ، فهاجم المملكة الزيانية بغتة ، واستولى على تلمسان ، بعد أن غادرها أبو حمّو، متوجهاً إلى البطحاء ، ثم إلى حصن تاجحمومت في أراضي بني أبي سعيد ، وكان ردّ فعل ابن الأحمر أن أنهض منافساً لأبي العباس ، يدعى موسى ابن السلطان أبي عنان ، وبعث معه الجنود ، ونزلوا سبتة (غرة ربيع الأول 786 هـ) ثم توجّهوا صوب فاس ، فحاصروها ، ثم استولوا عليها (19 ربيع الأول) ، ولما بلغ الخبر إلى السلطان أبي العباس ، بتلمسان غادرها فوراً ، وقبل الخروج منها ، أمر ، بإيعاز من ونزمار بن عريف السويدي ، بهدم قصور المدينة وقسم كبير من أسوارها ، انتقاماً من تخريب أبي حمّو لقصر تازروت وقصر مرادة (لأواخر ربيع الأول سنة 786 هـ) (1) .

ولما عاد أبو حمّو إلى عاصمته ، تألّم كثيراً لما أصابها من خراب وهدم أسوارها الشاهقة ، وقصورها البديعة ، مما أودى بحصانتها

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 296 – 298 .

ومنعتها ، وذهب بجمالها ورونقها ، فكان هذا الحادث ضربة قاسية ، أصابت المملكة الزيانية ، ونالت من عظمتها ومجدها ، ويمكن أن يعتبر تاريخاً فاصلاً بين عهد عزها وقوتها ، وعهد ضعفها وانحطاطها .

ولا شك أن إقدام أبي حمّو وبني عامر على تخريب قصر مرادة كان خطأ فادحاً ، تمخضت عنه حوادث خطيرة ، منها ما يخصّ عمران تلمسان ، ومنها ما يرجع إلى تدهور الأوضاع السياسية في المغرب الأوسط ، كما أن تخريب قلعة بني سلامة ، (سنة 771 هـ) ، كان له عواقب وخيمة مما أدى إلى استيلاء عبد العزيز المريني على المغرب الأوسط مدة سنتين بتحريض من سويد .

وكانت النتيجة الحتمية لموقف أبي حمّو المعادي لسويد ، أن فقد تأييدها ، مما جعل نفوذه يضعف شيئاً فشيئاً ، والحقيقة أن قبيلة سويد كانت ، منذ تغلّبها على بني عامر ، (سنة 777 هـ) ، تشكل قوة سياسية عظمى ، لا يستقيم أمر السلطان إلا بإرضائها واستمالتها ، ولا يسود الاستقرار السياسي في البلاد ، إلا بتأييدها والحصول على طاعتها .

ويظهر أن هذا التطور الذي طرأ على الوضع السياسي في المملكة الزيانية ، وخاصة بعد سنة (786 هـ) ، كان في صالح الأمير أبي تاشفين، الذي أصبح يتمتّع بثقة سويد ونصرتها ، ولا شكّ أن الأمير الشاب أدرك آنذاك ، أن استمالة سويد إلى جانبه مما يعزّز موقفه ويعضّد

صفوف أنصاره ، في الصراع الذي كان قائماً بينه وبين بعض إخوته .

وأصبحت المملكة الزيّانية تعيش في جوّ تسوده الفوضى، وتقلّص نفوذ السلطة ، وظهر الانقسام بين القوى السياسية في الدولة ، فهناك حزب ولي العهد الأمير أبي تاشفين ، وهناك حزب إخوته أبي زيّان والمعتصم وعمير ، ولم يشأ أبو حمّو أن ينحاز ظاهراً لأحد الفريقين بل حاول إظهار التزامه للحياد ، فكان كل واحد من الحزبين يسعى إلى الإطاحة بخصومه ، والقضاء عليهم [1] . ويبدو أن حزب أبي تاشفين كان أقوى في العاصمة والمناطق الغربية ، بينما كان الحزب الآخر مسيطراً على المنطقة الشرقية .

ظهور العداء بين أبي حمو وابنه أبي تاشفين :

وكان لأبي تاشفين عيون من بطانة السلطان ، يخبرونه عن جميع ما يجري عنده من الأحداث ، ومن بينهم شخص يدعى موسى بن يخلف ، كان قد اتصل بأبي حمّو وابنه منذ اغترابهما بتيقورارين ، وأصبح، من ذلك العهد،من المقرّبين لديهما ، إلا أنه كان يخدم أبا تاشفين ، ويطلعه على ما كان يدبّره أبوه من وسائل لتعزيز نفوذه المتلاشي .

وفي سنة (788 هـ) ، بلغ عداء أبناء أبي حمّو أشدّه ، وكانّ أبا حمّو لم ينقطع عن عطفه على المنتصروأبي زيّان وعمير ، حتى أن أبا

(1) أنظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 298 .

تاشفين اتهم السلطان « بموالاة إخوته عليه ، فشمّر لعقوقه وعداوته»[1] الأمر الذي جعل أبا حمّو يعيش في ظروف لا تطاق ، فبحث عن مخلص من خطر عقوق ولده الأكبر ، فلم يرَ أحسن وسيلة من مغادرة تلمسان والاستقرار في الجزائر ، يجعلها عاصمة جديدة له ، ويكون فيها قريباً من أبنائه المفضّلين ، وبعيداً عن سيطرة أبي تاشفين .

وأعلن أبو حمّو النهوض إلى البطحاء ، مظهراً رغبة الإصلاح بين العرب ، « ومعتزماً على لقاء ابنه المنتصر بمليانة ، ليصل به جناحه ويتخطّى إلى الجزائر ، فيجعلها دار ملكه ، بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين »[2] .

وغادر السلطان الزيّانيّ تلمسان مشرّقاً ، إلا أنّه لم يتمكّن من تحقيق مشروعه هذا ، وذلك أنّ موسى بن يخلف اطّلع على الأمر ، فأخبر أبا تاشفين عن نوايا أبيه الحقيقية ، فجمع الأمير العساكر ، وسار في أثر أبيه ، فلحق به قرب البطحاء ، وكاشفه ما بلغه من الخبر ،فأنكر ذلك أبو حمّو ، ثم عاد معه إلى تلمسان ليطمئنه .

وحينئذ ، زاد الوضع تأزّماً بين السلطان وابنه الأكبر ، والغالب على الظن أن أبا تاشفين أصبح آنذاك صاحب السلطة الحقيقي ، يسيّر

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 298 .
(2) نفسه ، ج 7 ، ص 298 .

شؤون الدولة حسب مصالحه ومشيئته ، ويراقب جميع تصرفات أبيه بواسطة العيون الذين بثّهم حوله ، فغدا أبو حمّو كالسجين في عاصمته، لا يمارس من السلطة إلا بعض الوظائف الشكليّة ممّا يتّصل بمنصب السلطان من استقبالات وعقد مجالس وإشراف على الحفلات الدينية .

وأخيراً ، فكّر أبو حمّو في بعث أحمال من المال إلى ابنه المنتصر بمليانة ، يودعها عنده ريثما يجد سبيلاً لمغادرة تلمسان سرّاً . وأرسل الأحمال مع أحد أصفيائه ، يدعى علي بن عبد الرحمان بن الكليب ، وعقد لابنه المنتصر على ولاية الجزائر ، وبعث له رسالة في ذلك الشأن مع ابن الكليب ، طالباً منه أن يقيم بها إلى أن يخلص اليه [1] .

خلع أبي حمو واعتقاله :

ومرّة أخرى ، اطّلع أبو تاشفين على الخبر ، بواسطة جاسوسه موسى بن يخلف ، فبعث في أثر ابن الكليب بعض خلصائه ، فاعترضوا له في طريقه إلى مليانة وقتلوه ، ثم عادوا اليه بالمال والرسالة إلى المنتصر ، فتحقّق أبو تاشفين من صحّة الأمر ، وثبت لديه انحياز والده إلى جانب إخوته وخصومه ، فذهب إلى قصر السلطان وأراه الرسالة ، ولامه لوماً عنيفاً على ما قام به ، ثم خلعه بعد ذلك بأيام ، ووكّل عليه الحرس في قصره ، ثم اعتقله بقصبة وهران ، واستقصى

(1) انظر : كتاب العبر ، ج 7 ، ص 298 – 299 .

جميع أمواله وذخائره ،وأمر بسجن إخوته ، الذين كانوا آنذاك مقيمين بتلمسان (آخر 788 هـ)(1) .

واعتقد أبو تاشفين أنه اجتاز آخر عقبة كانت تحول دون تحقيق مطامحه في العرش الزيّاني ، وأنّ الأمر أصبح هيّناً ، إذلم يبق له إلا القبض على إخوته الآخرين ، بالمنطقة الشرقية .

فحشد الجيوش ، وجمع الأتباع من سويد وبني عامر ، وقصد إخوته المنتصر وأبا زيان وعمير ، وكانوا قد اعتصموا بجبل تيطَرّي بعدما بلغهم نبأ خلع أبيهم ، واستولى على مليانة ، ثم حاصرهم بمعتصمهم مدة .

ثم ظهر لأبي تاشفين أن يتخلص من والده ، بتدبير قتله ، فأرسل بعض رجال حاشيته لأجل ذلك ، وضم إليهم إبنه أبا زيان « فقتلوا من كان معتقلاً من أبناء السلطان ، وتقدموا إلى وهران »(2) .

ولما علم أبو حمّو بقدومهم بنيّة قتله ، أغلق باب القصر دونهم وصعد إلى أعلى القصر ، وأخذ يستغيث بأهل المدينة ، ثم نزل من جدران القصر بحبل وصله من عمامته ، فاجتمع الناس حوله ومنحوه

---

(1) كتاب العبر، ج 7،ص 299 ،أما التنسي،فانه يذكر أن ابا حمو خلع نفسه لاطفاء السعايات التي جرت بينه وبين أبي تاشفين (نظم الدر والعقيان ، مخطوط الخزانة الوطينة بباريس رقم 1875 ، ورقة 92 ظ) .

(2) نفسه ، ج 7 ، ص 300 (وكذلك ص 754) .

تأييدهم ، فعاد إلى تلمسان، واستولى عليها بسهولة ، إذ كانت قد خرّبت أسوارها من قبل ، واستنفر بعض أشياخ بني عامر فاتوه لصد هجوم ابنه وأحلافه سويد (أوائل سنة 789 هـ) [1] .

وعندما بلغ أبا تاشفين نبأ هذه الحوادث ، رفع الحصار عن جبل تِيطَرّي ، وعاد فوراً بجيشه إلى تلمسان ، خشية أن يستفحل أمر أبيه من جديد ، ولم يقو أبو حمّو على مدافعة جيش أبي تاشفين ، لقلة ما كان حوله من الأنصار ، فالتجأ إلى مئذنة المسجد الجامع ، وأُخبر أبو تاشفين بذلك ، فجاء إليه بنفسه ، واستنزله من المئذنة ، ورقّ لحاله ، فبكى وقبّل يده ، ورجع به إلى القصر حيث اعتقله ببعض الغرف [2] .

سفر ابي حمو الى الشرق ونزوله ببجاية :

ثم أعمل أبو حمّو الحيلة في الخلاص من معتقله ، فطلب من أبي تاشفين أن يسرّحه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ثم البقاء في أحد أقطار المشرق ، فأسعفه في طلبه ، واتفق مع بعض التجار القطلان الذين كانوا على أهبة السفر إلى الإسكندرية ، على حمله في سفينتهم من ميناء وهران إلى الإسكندرية ، وجعل له حراساً وكّل إليهم مراقبته أثناء السفر .

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 300 – 301 و 754 .
(2) نفسه ، ج 7 ، ص 301 و 754 – 755 .

وأقلعت السفينة قاصدة المشرق ، ولما قرب المسافرون من بجاية داخل أبو حمّو صاحب السفينة في أن ينزله بجاية ، فوافقه على طلبه وأطلق سراحه ، وأصبح الموكّلون به في طاعته .

ونزل أبو حمّو بجاية ، فاستقبل أحسن استقبال من طرف الأمير الحفصي وقائد الأسطول محمد بن أبي مهدي ، وأسكن بستان الملك المسمى بالرفيع ، وبالغ الحفصيون في إكرامه ومساعدته (أواخر سنة 789 هـ) [1] .

ثم غادر أبو حمّو بجاية ، وقدم إلى ناحية متيجة ، حيث شرع يحشد العساكر ويستنفر العرب ، وقصد بهم تلمسان ، تاركاً ابنه أبا زيان على ناحية شلف .

رجوع ابي حمو الى تلمسان :

وأصبحت الدولة الزيّانيّة تعيش حرباً أهليّة ، حيث أدى التهافت على الحكم إلى صراع مؤلم بين السلطان أبي حمّو ، وولي عهده ، وانحاز إلى جانب أبي حمّو أقوام من عرب ناحية متيجة وشلف ومن بني عامر ، بينما كان أبو تاشفين مؤيداً من طرف سويد وقبيلة بني عبد الواد « بما بذل فيهم من العطاء ، وقسم من الأموال » [2] ،

---

(1) انظر كتاب العبر ، ج 7 ، ص 301 – 302 و 755 .
(2) نفسه ، ج 7 ، ص 302 .

وسلك أبو حمّو وأنصاره طريق الجنوب ، متجهين نحو المنطقة الغربية ، إلى أن بلغوا قرية تامة ، الواقعة غربي تلمسان .

وعزم أبو تاشفين على توجيه ضرباته إلى الجهتين ، الشرقية والغربية، للقضاء على منافسيه من إخوته وعلى أبيه ، فأرسل جيشاً إلى شلف بقيادة ابنه أبي زيان ووزيره محمد بن عبدالله بن مسلم وسار هو بجيش آخر نحو أبيه .

أما أبو زيان بن أبي تاشفين ، فإنه انهزم أمام عمه أبي زيان وقتل معه جماعة من بني عبد الواد كانوا قد رافقوه ، منهم محمد بن عبدالله بن مسلم [1] ، فكانت ضربة قاسية أصابت أبا تاشفين في الصميم ، وجعلت الصراع بين الفريقين يزداد خطورة وعنفاً ، ويتحول إلى عداء لا مجال لانتهائه إلا بانهيار أحدهما وانقراضه .

وأما أبو حمّو ، فإنه توجّه إلى وادي زا ، واستنجد بالأحلاف من قبيلة المعقل العربية ، فلبّوا طلبه ، وعاد بهم إلى تامة ، فنازلها ، وأقبل أبو تاشفين بجيشه ، فعسكر قبالته ، وأقام الفريقان على تلك الحال إلى أن بلغ أبا تاشفين خبر هزيمة ابنه ومقتله ، فتأثّر كثيراً لذلك النبإ ، وقرّر الإنسحاب إلى تلمسان ، فعاد إليها ، وأبو حمّو في أثره .

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 302 .

ولجا أبو تاشفين إلى سياسة الإغـرَاء بالأموال ، لكسب الأنصار ، فبعث مولاه سعادة في طائفة من العسكر إلى أتبـاع أبي حمّو من العرب،بمهمّة مداخلتهم في التخلّـي عن السلطان ،ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وهزم سعادة ، وقبض عليه ، ولما وصل الخبر إلى تلمسان ، انفضّ عـــن أبي تاشفين من كان يؤيّـده من بني عبد الواد ، ولم يبق حوله إلا سويد ، فغادر تلمسان معهـــم ، واتجهوا إلى مشاتيهم بالصحراء [1] .

وعندئذ لم يجد أبو حمّـو أية صعوبة في الاستيلاء على تلمسان (رجب 790 هـ) ، فاستعاد عرشه ، واستدعى اليه أبناءه من المنطقة الشرقية ، فأتوه .

استغاثة ابي تاشفين ببني مرين :

أما الأمير أبو تاشفين ، فانه توجّـه ، بعد ذلك رفقة محمد بن عريف السويدي ، الى المغرب الأقصى ، واستنجد بالسلطان أبي العباس المريني، فوعدهما بالمساعدة .

ومرة أخرى ، اتصل أبو حمّو بحليفـه ابن الأحمر ، ملك غرناطـة ودعاه إلى التدخّـل في الأمر ، بأن يطلب من السلطان أبي العبـاس أن

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 303 و 755 .

يجيز أبا تاشفين إلى الأندلس ، حيث يؤمن شره ، وقد سبق أن ذكرنا ما كان للملوك غرناطة من نفوذ في المغرب الأقصى منذ وفاة أبي عنان المريني .

فأرسل ابن الأحمر إلى أبي العباس المريني في هذا الشان وطلب منه إجازة أبي تاشفين إليه ، فلم يطاوعه أبو العباس في ذلك وذكر أنه « استجار بابنه أبي فارس ، واستذمّ به » [1] .

وكان أبو تاشفين قد لجأ إلى إغراء وزير أبي العباس المريني محمد بن يوسف بن علال ، بالأموال والوعود ، ليحث سلطانه على مساعدته بالعساكر ، حتى يتمكّن من الإستيلاء على تلمسان ، والانتصار على أبيه، والتزم أبو تاشفين بدفع مقدار كبير من المال للوزير مقابل تلك المساعدة ، وبالدعاء للسلطان المريني في المنابر ، ودفع إتاوة سنويّة [2] .

وتردد أبو العباس مدة في قبول هذا الاتفاق فبذل الوزير ابن علال كل ما في وسعه لإقناعه ، إلى أن وافق السلطان على ذلك ، وأرسل العساكر بقيادة ابنه أبي فارس لمساعدة أبي تاشفين (أواخر سنة 791 هـ) [3] .

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 756 ، انظر كذلك ، ص 304 .

(2) نفسه ، ج 7 ، ص 305 .

(3) نفسه ، ج 7 ، ص 303 .

وفاة أبي حمو :

ولما اتصل أبو حمّو بخبر زحفهم الى تلمسان ، غادرها مع أتباعه بني عامر والخرّاج من قبيلة المعقل ، وقصد جبل بني وَرْنِيد ، الواقع جنوب المدينة والمطلّ عليها ، وأقام بمكان من ورائه يدعى الغيران .

وفي تلك الأثناء ، ورد موسى بن يخلف الى تلمسان، واستولى عليها مقيما بها دعوة الأمير أبي تاشفين ، فارسل اليه أبو حمّو ابنه عمير، فاسره بعد أن أسلمه سكّان المدينة ، وحمله إلى أبيه ، فامر بتعذيبه وقتله .

ثم تمكن حلفاء أبي تاشفين من معرفة مقرّ أبي حمّو ، فقصدوه وباغتوه ، في الغيران ، والتحم القتال بين الفريقين، فلم يثبت أنصار أبي حمّو أمام الجيش المريني ، الذي كان يفوقهم عدداً وعدة ، وكَبا بابي حمو فرسه ، فسقط على الأرض ، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين ، فقتلوه قعصا بالرماح ، وجاؤوا برأسه الى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال (أول ذي الحجة 791 هـ) [1] .

---

(1) كتاب العبر ، ج 7 ، ص 756 ؛ التنسي ، المصدر المذكور ، ورقة 62 ظ ؛ الأستقصاء ، ج 4 ص 76 .

وهكذا كانت وفاة أبي حمّـو الثاني خاتمة هذه المأساة ، التي شهدت اصطدام السلطان الزّيانيّ بفلذة كبده ووليعهده، وتطاحنهما وتناحرُهمَـا، فلقي حتفه في جبال تلمسان ، بطعنات رماح بعض رعاياه المنحازين الى ابنه ، وقد بلغ من العمر 68 سنة ، وفاضت روحه بـــين الصخور والأعشاب ، بعد حياة ملأى بالحوادث ، ذاق منها الحلو والمرّ فلم يذهب بلبّـه زخرفها ، ولم تقض عليه عواصفها .

الباب الثاني

حضارة المغرب الاوسط في عهد ابي حمّو الثاني

1 - الحيـــاة الفكرية

التعليم :

كان لتأسيس المدارس بتلمسان ، أيّام أبي حمّو الأول وابنه أبي تاشفين ، ثم أثنـــاء الاستيلاء المريني ، أثر هامّ في بعث الحركة الفكرية وإقبال الكثير من الطلبة على اقتناء العلوم المختلفة من نقليّة وعقليّة وإتقانها ، وكان الأمراء الزيّانيّون يولون أهل العـــلم رعاية خاصة ويمنحون الطلبة ما يساعدهم على تحمّل أعباء دراستهم ، فخصّصوا لهم الأرزاق والجرايات ، وأنشؤوا المكتبات العامّة في المساجد والمدارس وغيرهما من المؤسّسات العلميّة . .

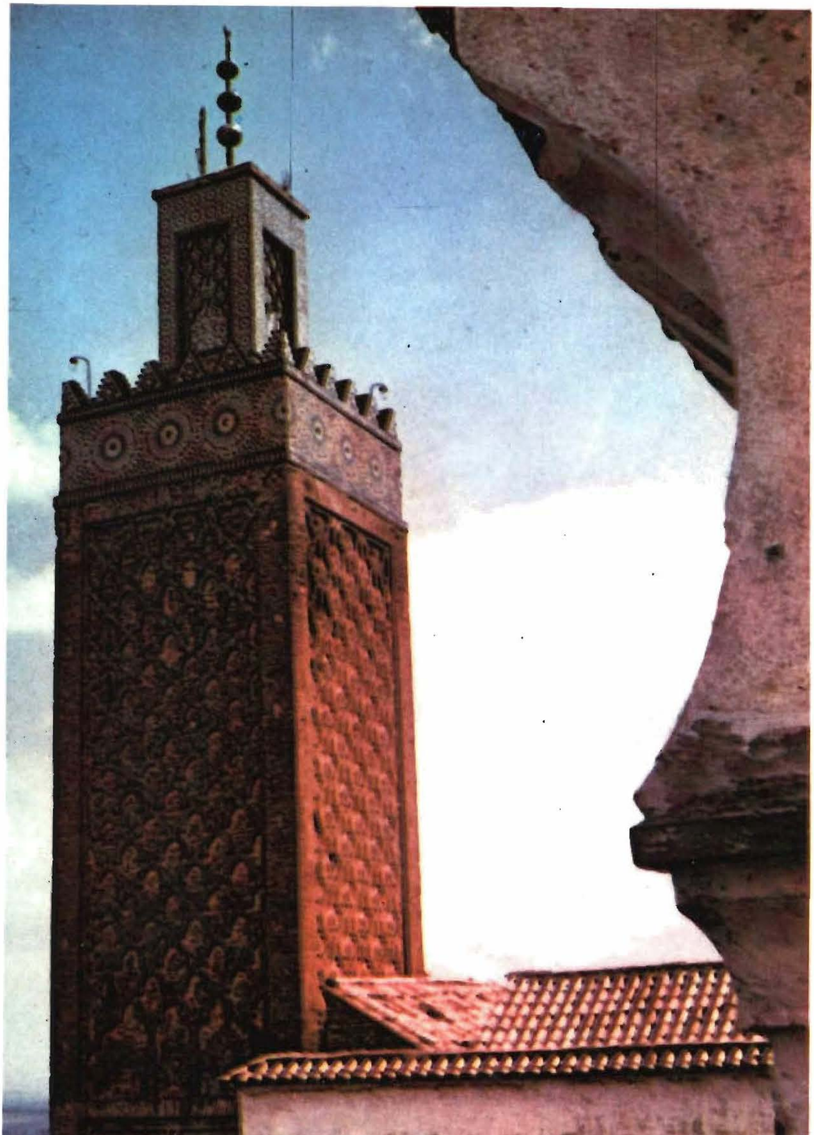
ولم يتغير الوضع في عهد أبي حمّو الثاني ، بل كان اعتناؤه بالعلم وأهله أشدّ وأقوى من ذي قبل ، لما امتاز بـه من إلمام بالعلوم واستعداد للمساهمة في النشاط الأدبي ونظم الشعر ، فحظي العلماء والطلبة بعطفه وتشجيعه ، ونال الكتّاب والشعراء من عطائه وكرمه .

ولما توفّي والده أبو يعقوب ، في (شعبان 763 هـ)، أمر أبو حمّو بدفنه في رياض كانت تقع قرب باب إيلان،ونقل الى جواره رفاة عمّيْه

الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت ، من قرية العبّاد ، ثم بنى ضريحاً حولهم، وأضاف الى ذلك بناء زاوية ، وشيّد الى جانب ذلك مدرسة تمّ بناؤها في أول سنة (765 هـ)، فعهد للتعليم فيها الى أشهر علماء تلمسان آنذاك ، أبي عبدالله الشريف .

وهكذا كانت تلمسان ، في عهد أبي حمّو الثاني ، بفضل مدارسها الخمس ومسجدها الأعظم ، مركزاً ثقافيّاً هاماً ، وبلد إشعاع علميّ يضاهي أهمّ مراكز المغرب الثقافية، فنبغ فيها جيل صالح من العلماء، أمثال أبي عبدالله الشريف وسعيد العقباني وغيرهما، الذين حملوا مشعال الفكر الى الأجيال التالية ، وخلّفوا تلامذة نبه ذكرهم وذاع صيتهم في الأقطار ، أمثال ابن مرزوق الحفيد وغيره .

أما مناهج التعليم ، فكانت تختلف حسب العلوم وحسب طريقة الأستاذ في تدريسه فكان ، الى جانب الطريقة القديمة ، التي تجعل من الطالب وعاء يملؤه الأستاذ بالمعلومات الغزيرة، في شتى العلوم ، من دون أن يكون له مجال لطرح الأسئلة أو المناقشة ، طريقة أخرى ، تتيح للطلبة فرصة مراجعة الأستاذ في نقطة معيّنة ، ، ومناقشته فيها، وهذه الطريقة كانت بلا شك أكثر انتشاراً، إلاّ أن أجلّ العلماء كانوا يلجؤون الى طريقة ثالثة، أكثر فائدة ، يقوم الطالب فيها بدور هامّ في الوصول الى المعرفة ، وخاصّة في المعقولات ، ويكاد الاستاذ لا يكون أكثر من مشرف على الأبحاث وموجّه للدراسات ، أما الطلبة ، فهم الذين كانوا يقومون



مئذنة مسجد سيدي أبي مدين

بدراسة المشكلة ، ومناقشتها ، وتبادل الآراء حولهـا ، ممّا يمكّنهم من الوصول الى الجواب الذي يرتضونه جميعاً ويرتضيه الاستاذ ، فكان المجهود الذي يبذله الطلبة لحلّ رموز المشاكل هو الهدف الذي يقصده الاستاذ ، لما كان له من أثر في تشحيـذ ذهنهم ، وترويضهم على الجدل والمناظرة ، وغرس حُبّ البحث والاطلاع في نفوسهم ، فممّا يحكى عن الآبلِيّ أنه كان يقول لطلبته ، اذا ما أشكلت مسالة أو ظهر بحث دقيق ، « انتظروا به أبا عبدالله الشريف» ، [1]وكان هذا الأخير أنجب تلامذته ، فهذا الخبر يفيد مشاركة الطلبة الهامّـة في التدريس ، ودور النجباء منهم في إيضاح ما أشكل من المسائل ، وتقرير أصحّ الأجوبة .

ومما قيل عن أبي عبدالله الشريف ، أنـه كان (يحب البحث ، ويرى أن نفع الطلبة به ، فإذا طال بحثهم أمرهم بالتقييد في المسألة ، ثم يفصل بينهم يطالع كتباً كثيرة لدولته) [2] .

ولا شك أن هذا الاتجاه ، كان أرقى ما وصل إليه العلماء المسلمون في العصر الوسيط ، ممّا أدى إلى تكوين كبار العلماء ، وإنتاج مؤلفات عديدة ، يحقّ بالمغرب أن يفتخر بها .

---

(1) انظر البستان ، ص 170 .

(2) نفسه ، ص 174 .

العلوم الدينية :

ظهر في المجال الديني ، عدد كبير من العلمـــاء ، نكتفي بذكر أشهرهم :

1) – **أبو عبدالله محمد بن أحمـد الشريف** الحسني [1] ، ولد بتلمسان (سنة 710 هـ) ، وقرأ القرآن على أبي زيد بن يعقوب ، ثم أخـذ عن العالِمَيْـن الأخوين أبي زيد وأبي موسى ابنَـيْ الامام ، وعـــن أبي موسى عمران المشدّالِيّ وأبي محمد عبدالله المجاصيّ ، والقـاضي ابن عبد النور وأبي عبدالله بن هدية ، فظهرت نجابتـــه في مختلف العلوم من معقول ومنقول ، ودرس التنجيم والرياضيات وغيرها من العلوم العقلية على أبي عبدالله بن النجّـار ، ثم رحل إلى فاس ولازم الآبِلِـيّ وأخذ عنه علوماً جمّـة ، وخصوصاً في التعالـيم ، ثم عاد إلى تلمسان وانتصب للتعلـيم .

وفي سنة (740 هـ) ، ارتحل الى تونس لطلب العـــلم ، فلازم أبا عبد الله بن عبد السلام الهوّاري ، ثم رجـــع الى تلمسان ، واستأنف التدريس بها ، ولما استولى أبو عنان المريني على تلمسان ، سنة (753 هـ)، استخلص أبا عبد الله الشريف ، وألحقه بمجلسه العلميّ ، ثم أخذه معه الى فاس ، ولكن أبا عبد الله سئم المقام بالعاصمة المرينيـة ، واشتاق إلى ذويه

---

(1) انظر بغية الرواد ،ج 1، ص 57 ؛البستان،ص 117 – 120، نيل الابتهاج ،ص 150 – 154 .

وموطنه ، وناله بعض الأذى من السلطان أبي عنـــان ، في أول سنة (756 هـ) ، من أجل وديعة تركها السلطان أبو سعيد العبد الوادي عند بعض وجهاء تلمسان ، فنكبه لأنه لم يخبره بشأنها ، ولكن سرعان ما صفح عنه وأعاده الى مجلسه ، ومكث بفاس الى أن توفي أبو عنان .

وبعد ذلك استقرّ أبو حمّـو الثاني بتلمسان ، فـاستدعى أبا عبد الله الشريف ، في أوّل إمارته ، « وتلقّاه أبو حمّـو براحتيه ، وأصهر له في ابنته ، فزوّجها إيّاه ، وبنى له مـدرسة جعـل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمّـه » [1] ، وأقام الشريف بتلمسان يبثّ العـــلم ، فختم تفسير القرآن مرّتين ، ودرّس علوماً كثيرة ، إلى أن توفّـي في ذي القعدة سنة (771 هـ) ، فأمر أبو حمّـو أن يدفن عند قـــبر والده أبي يعقوب ، تبرّكاً بجواره .

وقد تخرّج عليه كثير من العلماء المشهورين ، مثـل ولده أبي محمد عبد الله ، والولي الصالح إبراهيم المصمودي ، ومحمد بن علي المديوني، وأبي اسحاق الشاطـــبي ، وابن زمرك ، وابن عتـــاب ، وابن السكّاك ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وأخيه يحيى ، وغيرهم ، ولم يـــؤلّف كتباً كثيرة ، لانصرافه الى التعليم والبحث والمطالعة ، واشتهر من بين تآليفه في العلوم الدينية ، كتاب « مفتاح الوصول في علم الأصول » [2] .

---

(1) التعريف بـــأبن خلدون ، ص 66 ، (ولعل الصواب ان يقال : وعمّيه) .

(2) طبع بالدار البيضاء ، مكتبة الوحدة العربية ، بدون تاريخ .

وقد شهد له علماء عصره ومن جاؤوا بعده بالتفوّق والنبوغ ، فوصفه ، مثلاً ، أحمد بابا التنبكتي بقوله : « الإمام المحقّق أعلم أهل وقته » (1) .

2) **أبو علي** منصور بن علي بن عبد الله **الزواوي** (2) : ولد سنة (710 هـ) ، ببجاية ، ونشأ بها ، وأخذ عن أبيه وعن غيره من علمائها ، مثل ناصر الدين المشدّالِيّ ، وأبي عبد الله الباهلي المسفّر ، وأبي عبد الله بن أبي يوسف الزواوي ، وأبي علي بن حسين البجائي ، وأبي العباس أحمد بن عمران ، ثم رحل الى تلمسان ، في عهد أبي الحسن المريني ، ودرس بها على عالم بلاطه أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي،وعلى المحدّث أبي العباس بن يربوع ، والقاضي أبي العباس بن أبي يحيى ، ثم أجاز الى الأندلس ، وأخذ بها عن أبي عبد الله الرُّنْديّ ، وأبي عبد الله بن الفخّار البيرِيّ ، وأبي القاسم الشريف الحسني السبتي ، وأبي البركات محمد بن الحاج البَلَّفِيقِيّ ، وأبي عبد الله الطنجالي ، ثم انتصب للتدريس بالأندلس ، الى أن أزعج عنها سنة (765 هـ) ، فاستقرّ بتلمسان ، ودرّس بها سنوات عديدة ، وكان لا يزال على قيد الحياة ، عام (770 هـ) .

وكان أبو علي الزواوي مبرزاً في الأصول والمنطق والكلام ، ذا

---

(1) نيل الابتهاج ، ص 47 .

(2) عن أبي علي الزواوي ، انظر : بغية الرواد، ج 1 ، ص 74–75 ، البستان ص 292 – 294 .

اطّلاع واسع في شتّى العلوم من عقليّة ونقليّة ، ومن تلاميذه أبو إسحاق الشاطبي ، والمقّريّ الكبير ، ويحيى السراج ، ولسان الدين ابن الخطيب ، ويحيى بن خلدون .

3) - **أبو عبدالله** محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر **بن مرزوق الخطيب** [1] ، ولد بتلمسان (في أواخر سنة 710 هـ) ، ونشأ بها وقرأ القرآن على أبي زيد بن يعقوب ، ثم أخذ عن الآبِلِيّ ، وعن أبي محمد عبدالله المجاصِيّ ، وارتحل مع والده إلى المشرق، (سنة 718 هـ)، فأخذ ببجاية عن ناصر الدين المشدّالِي ، وأقام مدة مع أبيه بالحرَمين ، ثم عاد إلى القاهرة، ولازم برهان الدين الصفاقسِيّ ، وفي (سنة 733 هـ)، قفل راجعاً إلى وطنه فوجد السلطان أبا الحسن المريني محاصراً تلمسان ، فاتصل به وساهم مع عمه في الإشراف على بناء مسجد أبي مدين بالعُبّاد ، ثم ولاّه أبو الحسن الخطابة بذلك المسجد ، بعد وفاة عمّه ، وحظي ، بعد ذلك عند السلطان المريني فأعلى رتبته في مجلسه ، وفي تلك الأثناء ، كان يحضر مجالس الأخوين ابنَي الامام العلمية ، ثم رافقه إلى الأندلس ، وحضر معه معركة طريف ، وفي (سنة 748 هـ) ، أرسله سفيراً إلى قشتالة للتفاوض في الصلح مع ملكها ، وفي طريق

---

(1) انظر ترجمته في نفح الطيب ، ج 7 ، ص 309 – 338 ، التعريف بابن خلدون ، ص 50 – 56 ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 50 ، البستان ، ص 184 – 190 .

عودته إلى افريقية ، حدثت هزيمة أبي الحسن بالقيروان فورد خبرها وابن مرزوق في قسنطينة ، فثار أهلها على بني مرين وأعلنوا البيعة لأحد الأمراء الحفصيين ، فرجع ابن مرزوق إلى تلمسان رفقة أم الأمير أبي عنان ، وقام بخدمتها إلى أن بلغت مدينة فاس ، ثم عاد إلى تلمسان وأقام بقرية العبّاد ، والامارة بها آنذاك ، للأميرَيْن أبي سعيد وأبي ثابت [1] .

ولما قدم أبو الحسن إلى الجزائر ، وأخذ يعمل للزحف إلى ناحية شلف ، أرسل السلطان أبو سعيد سفيراً إليه قصد التفاوض معه في شأن الصلح بدون مشاورة أخيه أبي ثابت ، وكان ذلك السفير الخطيب ابن مرزوق ، « فلما اطّلع أبو ثابت على الخبر أنكره على أخيه » وبعث من تقبض على ابن مرزوق في طريقه، ثم أجازه البحر إلى الأندلس (أواسط سنة 752 هـ) [2] .

واستقر بغرناطة ، حيث أسندت إليه الخطابة في جامع الحمراء إلى (سنة 754 هـ) ، ثم عاد إلى مسقط رأسه ، وكان أبو عنان المريني قد قضى على إمارة أبي سعيد وأبي ثابت ، فألحق ابن مرزوق بمجلسه العلمي ، ولما احتل تونس ، (سنة 758 هـ) ، أرسله إليها ليخطب له

---

(1) التعريف بابن خلدون ، ص 51 — 52 .

(2) البستان ، ص 185 ، انظر كذلك التعريف بابن خلدون ، ص 52 — 53 .

ابنة السلطان أبي يحيى، فامتنعت عن ذلك، واختفت بتونس « ووشي إلى السلطان أبي عنان أنه كان مطلعاً على مكانها، فسخطه لذلك، وأمر بسجنه، فسجن مدة، ثم أطلقه قبل موته »[1].

وفي أيام أبي سالم المريني، عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب، وأصبح زمام الأمر، في الدولة المرينية، بيده، مما أحقد عليه كثيراً من رجال الدولة، ولما ثار الوزير عمر بن عبدالله ضد أبي سالم، وأطاح بملكه وقتله، أمر بسجن ابن مرزوق (آخر سنة 762 هـ)، وسعى حسّاده من كبار الدولة في قتله، فلم يسعفهم عمر بن عبدالله في ذلك، وأطلق سراحه.

وانتقل ابن مرزوق، بعد ذلك إلى تونس، فاستقرّ بها (سنة 766 هـ)، وأكرم أبو إسحاق الحفصي مثواه، وولاّه الخطابة بجامع الموّحدين، والتدريس ببعض المدارس، وأقام هناك إلى عهد الأمير أبي العباس الحفصي (سنة 772 هـ)، وكانت بينه وبين ابن مرزوق وحشة يرجع سببها إلى إقبال هذا الأخير، في عهد أبي سالم، على منافسه أبي عبدالله الحفصي، وتفضيله عليه، فأقصاه عن بلاطه.

وفي تلك الأثناء، فكّر ابن مرزوق في اللحاق ببلاط السلطان عبد العزيز المريني، الذي كان قد استولى على المغرب الأوسط، آنذاك،

---

(1) البستان ص 185، راجع أيضاً التعريف بابن خلدون، ص53–54.

فالّف له ، (في شعبان 772 هـ) ، كتاب « المسند الصحيح الحسن ، في أخبار المولى أبي الحسن » ، إلا أنه لم يتمكّن من تحقيق مشروعه هذا ، وأخيراً ، سمح له أبو العباس الحفصي بالرحلة إلى المشرق ، فحلّ بالإسكندرية ، ثم قدم القاهرة ، واتصل بالسلطان الأشرف ، فاكرم مثواه ، وألحقه بمجلسه ، وولاه التدريس وقضاء المالكية ، وأقام ابن مرزوق بالقاهرة ، عزيز الجانب عالي القدر ، إلى أن توفي بها في (ربيع الأول سنة 781 هـ) [1] .

ومن أشهر تلاميذه ابن قنفذ القسنطيني ، وأبو إسحاق الشاطبي وغيرهما [2] ، واشتهر من مؤلفاته كتاب « المسند الصحيح الحسن » الذي يشتمل على عرض مفصّل لحياة أبي الحسن المريني ، ولما وقع في عهده من حوادث هامة ، وإنجازات عمرانية ، وعلى ذكر ما ازدان به عصره من عناية بالعلم والعلماء ، وغير ذلك .

ومن مؤلفاته شرح البردة ، وشرح على ابن الحاجب الفرعي بعنوان « إزالة الحاجب على فروع ابن الحاجب » ، وشرح على الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي ، وشرح على عمدة الأحكام ، في خمسة أجزاء .

---

(1) انظر التعريف بابن خلدون، ص 55-56، البستان، ص 185-186.

(2) نيل الابتهاج ، ص 47

4) **أبو محمد عبدالله** بن محمد بن أحمد **الشريف الحسني** (1) ، وهو ابن أبي عبدالله الشريف ، ولد بتلمسان (سنة 748 هـ) ، ثم رحل مع أبيه إلى فاس ، في عهد أبي عنان المريني ، فدرس بها القرآن على أبي عبدالله بن زيد ، والنحو على أبي عبدالله بن حياتي ، والحديث على الخطيب ابن مرزوق ، والفقه على أبي عمران موسى العبدوسي وأبي العباس بن الشماع ، وأبي العباس القبّاب والقاضي أبي العباس أحمد ابن الحسن ، ثم درس على أبيه مختلف العلوم من اعتقاد ، وأصول الدين، وطبيعيات ، وفلسفة ، ومنطق وجدل، ورياضيات، وحديث وتفسير، فنال بضاعة وافرة من العلوم ، أتقن حفظها وفهمها ، وبدأ بالتدريس بتلمسان في حياة أبيه ، ثم خلفه بعد موته في التعليم بالمدرسة اليعقوبية، فرحل إليه الطلبة من سائر أنحاء المغرب ، واخذ عنه ابن مرزوق الحفيد وغيره ممّن نبغ ذكره بعد ذلك ، ورحل إلى غرناطة ، فدرس بها مدة ، ثم قفل راجعاً إلى تلمسان ، فتوفي غريقاً في البحر ، (في صفر سنة 792 هـ .

واشتهر بغزارة حفظه للمسائل ، وتضلّعه في الفقه والتقوى ، وتفوّقه في منهج التعليم ، وإتقان الطرق التربوية ، إلا أن وفاته ، وهو لا يزال في عنفوان شبابه أطفأت نور علومه المشرق ، وأفقدت طلبة العلم أحد أعلام الثقافة المغربية .

---

(1) انظر البستان ، ص 117 – 120 ، نيل الابتهاج، ص 150–154، بغية الرواد ، ج 1 ص 57 .

5) – الشيخ **ابراهيم** بن موسى **المصمودي** التلمساني [1] : أصله من صنهاجة المغرب قرب مكناسة ، وأخـــذ العلم بفاس عن العبدوسي ، والآبِلِيّ ، وغيرهمـا ، ثم نزل تلمسان ، ولازم فيها أبا عبـد الله الشريف بالمدرسة اليعقوبية ، وبعد وفاته ، أخذ عن سعيد العُـقـباني بالمدرسة التاشفينية ، ثم انقطـع للعبـادة والتدريس ، فأخذ عنه أبو عبد الله بن جميل ، وابن مرزوق الحفيد ، وغيرهما ، وتوفي سنة (804 هـ أو 805هـ) ودفن بضريح الأمراء الزّيانيـين أبي يعقوب ، والد أبي حمّـو الثاني ، وأخويه أبي سعيد وأبي ثابت ، واشتهر صلاحه عنـــد الناس ، فنال احترامهم وتقديرهم ، وقد سُمّـي المسجد المحـــاذي للمدرسة اليعقوبية وللضريح ، باسمه (سيدي إبراهيم) .

6) – **أبو عثمان سعيد** بن محمد بن **محمد العُقـباني** [2] : ولد بتلمسان سنة (720 هـ) ، وأخذ فيها عن الأخوين ابني الإمام ، ثم درس على الابِلِيّ الأصول والعلوم العقلّـية، وعلى الحافظ الـسَّـطِّـيّ الفرائض،وعلى غيرهما من العلماء ، فحذق علوماً جمّـة من تفسير ، وأصول ، وفقه ، وتصوف ، ومنطق ، وحساب ، وهندسة وغيرها، وولي القضاء ببجاية أيام السلطان أبي عنان المريني ، ثم نقل الى قضاء مراكش وسلا . ثم عاد الى المغرب

---

(1) انظر : نيل الابتهاج، ص 51 – 52 ، البستان ، ص 64 – 66 .

(2) انظر : الديباج المذهب ، ص 124 – 125 ، نيل الابتهاج ، ص 125 – 126 ، البستان ، ص 106 – 107 .

الأوسط فولي قضاء وهران وهنين وتلمسان، ومكث في القضاء ما ينيف على أربعين سنة ، واخذ عنه ابن مرزوق الحفيد وابو يحيى بن ابي عبد الله الشريف ، والشيخ إبراهيم المصمودي ، وابو الفضل ابن الإمام ،وأبو العباس بن زاغو ، وكذلك ابنه قاسم العقبانيّ .

وألف سعيد العقباني شرحاً على الحوفيّ ، في الفرائض ، وشرح البردة ، وشرحاً على ابن الحاجب الأصليّ ، وشرح قصيدة ابن الياسمين وتفسير سورتي الفتح والأنعام ، وشرح العقيدة البرهانية وكتاباً سماه «لباب اللباب في مناظرة القباب» .

العلوم اللسانية والاجتماعية :

كثر اعتناء العلماء ، في عهد أبي حمّو الثاني ، بهذه العلوم واشتهر فيها كثير ممن ذكرنا في مجال العلوم الدينية ، مثل أبي عبد الله الشريف، وابن مرزوق الخطيب ، وأبو محمد بن أبي عبد الله الشريف .

وانصرف الأدباء إلى نظم الشعر للإشادة بعلوّ قدر المولد الشريف ، ومدح السلطان أبي حمّو ، ووصف تلمسان وغير ذلك من الأغراض، وإلى شرح القصائد المشهورة ، كالبردة ، وتنافس الكتّاب في إنشاء الرسائل البليغة ، وتأليف كتب التاريخ والتراجم وغيرها .

ومن أشهر من نبغ في هذه العلوم :

7) – **ابو عبد الله محمد بن البنّاء ،** التلمساني [1]: كان فقيهاً ، أديباً شاعراً ، ظريفاً ، ذكر له يحيى بن خلدون موشحة مطلعها :

مَن أطلع فوق مائس الريحـــان — بدر الأفق

يهـــتز منعمـــاً على كثبـــان — تحتالغسق

وتاريـــخ وفاته مجهول .

8) – **أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري** [2] :ولد ونشأ بتلمسان ، ودرس على أبي عبـد الله الشريف ، ونبـغ في فنون الأدب ، فنظم القصائد الغرّاء ، كان يلقيها في الحفلات الدينية التي كان يقيمها أبو حمّـو في قصره للاحتفال بالمـولد الشريف ، وفي شتى المناسبات ، وكان من جملة كتّـاب الدولة ، يشغل منصب شاهد في بيت المال [3] ، فـأكثر من مدح السلطان أبي حمّو ، والإشادة بكرمه ونبله وشجاعته وعلمه ، ومن أجمل نظمه قصيدته التي مطلعها :

بسعدك الجاريان الدهر والقدر — وباسمك الغالبان النصر والظفر [4]

---

(1) انظر بغية الرواد ، ج 1 ، ص 60 – 62 .

(2) انظر : البستـان ، ص 222 – 223 ، نفح الطيب ، ج 9 ، ص 327 – 335 ، محمد الطـهار ، تاريخ الأدب الجزائري ص ، 177 – 185 .

(3) انظر : زهر البستان ، ورقة 53 و،62 و ، 85 و،91 و .

(4) وردت في زهر البستان ، ورقة 53 و-54 و .

وقد جاء فيها :

لله منك مليك أروع ورع ... في الحرب عمرو وفي محرابه عمر
يلقى العفاة ببشر إثره كرم ... كذلك الغيث إثر البرق ينهمر

ومن نظمه في وصف تلمسان من قصيدة قالها سنة (764 هـ) :[1]

قم فاجتل زمن الربيع المقبل ... تَرَ ما يسرُّ المجتني والمجتلي
وانشق نسيم الروض مطلولاً وما ... أهداك من عَرف وعُرف فاقبل
وانظر الى زهر الرياض كأنّه ... درٌّ على لبّات ربّات الحلي
في دولة فاضت يداها بالنّدى ... وقضت بكلٍّ منى لكلٍّ مؤمّل

ولم ينقطع أبو عبد الله الثغري عن مدح أبي حمّو الثاني ، ثم ابنيه أبي تاشفين (791 – 795 هـ) وأبي زيّان (796 – 801 هـ) ، ولعلّه توفي في أوائل القرن التاسع الهجري .

9) – **ابو عبد الله محمد** بن أبي جمعه بن علي **التلالسي**[2] : من أهل تلمسان ، كان طبيب السلطان أبي حمّو ، وشاعراً بارزاً من

---

(1) وردت في زهر البستان ، ورقة 91 و .
(2) انظر : نفح الطيب ، ج 9 ، ص 336 – 337 ، أزهار الرياض ، ج1 ، ص 247 – 249 ، محمد الطهار ، المرجع المذكور، ص 185 – 191

شعراء بلاطه ، نظم قصائد كثيرة في مدح أبي حمّو ، وكان يجيد التوشيح ، فمن نظمه موشحة مطلعها : (1)

يا ويح صبٍّ بان عنه الشباب وأودع
لهيب وجد عندما ودّعوا

وموشحة ، أخرى مطلعها : (2)

لي مدمع هتّان ينهلُّ مثل الدرر
قد صيّر الأجفان ما إن لها من أثر

10) – **ابو زكريا يحيى بن خلدون** (3) : صاحب كتاب « بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد » ، وأخو عبد الرحمان بن خلدون مؤلف كتاب « العبر » ، ولد أبو زكرياء، بتونس سنة(734هـ)، ونشأ بها وتلقّى العلم على علمائها ، واستفاد كثيراً من علماء مجلس أبي الحسن العلمي ، عندما احتلّ تونس ، سنة (748 هـ) ، مثل الحافظ السّطّي ، وأبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ، والآبِلِيّ ، وغيرهم.

وفي عهد السلطان أبي عنان المريني انصرف يحيى بن خلدون إلى

---

(1) وردت في بغية الرواد ، ج 2 ، ص 87 – 88 .
(2) وردت في بغية الرواد ، ج 2 ، ص 164 – 166 .
(3) انظر : أزهار الرياض ، ج 1 ، ص 246 – 247 ، نفح الطيب ج 9 ، ص 340 – 341 .

خدمة الدولة المرينية ، وفي آخر سنة (761 هـ) ، رافق الأمير الحفصيّ أبا عبد الله محمد ، الذي توجّه نحو بجاية قصد انتزاعها من عمّه السلطان أبي إسحاق ، بمساعدة قبيلة رياح ، وفي سنة (764 هـ) وفد يحيى بن خلدون على أبي حمّو الثاني ، رسولاً من قبل أبي عبد الله الحفصيّ ، في شأن طلب مساعدته على أبي إسحاق ، ولكن أبا حمو لم ير تلبية هذا الطلب ، وبعد ذلك بسنة زحف أبو عبد الله الى بجاية ، واستولى عليها صلحاً ، وعيّن يحيى بن خلدون في منصب الحجابة ، ثم تركها لأخيه عبد الرحمن الذي قدم من الأندلس إلى بجاية في جمادى الأخيرة سنة (766 هـ) ، ومكث يحيى بن خلدون في بلاط الأمير أبي عبد الله ، الى أن استولى على بجاية ، أمير قسنطينة أبو العباس الحفصي (شعبان 767 هـ) .

ثم سجن يحيى بن خلدون بعنابة ، بامر من الأمير أبي العباس ، وذلك بعد أن غادر أخوه عبد الرحمن بجاية متجهاً الى الجنوب وملتجئاً عند ابن مُزْني ، وبعد أشهر فرّ يحيى من سجنه ، ولحق باخيه في بسكرة ، معتصماً بحماية بني مزني .

وفي رجب (769 هـ) التحق يحيى بن خلدون ببلاط أبي حمّو الثاني حيث عيّن كاتباً للسلطان الزيّانيّ ، وشغل ذلك المنصب إلى أن ساءت الأوضاع بين الامارة العبد الوادية والدولة المرينية ، واحتل السلطان عبد العزيز مدينة تلمسان ، ومكث يحيى مدة بتلمسان ، في

بلاط عبد العزيز ، ثم رحل الى فاس ، رفقة أخيه عبد الرحمن ولسان الدين ابن الخطيب .

وفي أول سنة (776 هـ) ، عاد يحيى بن خلدون الى تلمسان ، فارجعه أبو حمّو في منصب الكتابة ، وألّف له يحيى كتاب « بغية الروّاد » ومكث في بلاط تلمسان الى أن قتل بها في رمضان (780 هـ) بتدبير من الأمير أبي تاشفين ، لأسباب سبق شرحها [1] .

ويحيى بن خلدون من طبقة الكتّاب المبرزين ، أمثال أبي القاسم ابن رِضْوان ، ولسان الدين ابن الخطيب وغيرهما ، يمتاز بثقافة أدبية واسعة ، وأسلوب يزخر بالمحسّنات البديعيّة والسجع المستظرف ، مما كان يعجب به أدباء عصره ، بالاضافة الى نبوغه في سائر العلوم اللسانية والاجتماعية ، وخصوصاً التاريخ .

هذا ، وقد نظم يحيى بن خلدون ، قصائد عديدة ، في مدح أبي حمو الثاني ، وفي مناسبة المولد الشريف ، وأغراض أخرى ، تشهد بملكة شعرية صادقة ، ورقة ونباهة . فمنها القصيدة التي قالها في الاحتفال بالمولد الشريف سنة (764 هـ) ، عندما قدم رسولاً للأمير أبي عبدالله ، وأولها:

تراءت لها أعلام نجد فحياها   نسيم سرى من حاجر ورباها

---

(1) انظر فيما قبل ، ص 100 – 102 .

ولاح لها البرق اليماني فانبرت   تمد حثيثاً للعذيب خطاها [1]

ومنها القصيدة التي التمس بها رضى ابي حمّو، أثناء مقامه بفاس، أواخر سنة (775 هـ) ، جاء فيها :

وإذا الديار تعرّضت لاخي الهوى   لم يغن عنـــه الصبر والكتمان
يعتاده الذكرى ويبعث وجده   أثر تخلفه بهـــا السكان
يا سائل العرصات أقوت ضلة   من أين تدري الدار ما الظعان
لا تخش ان ضن الغمام لربعهـــا   ظما فدمعي عارض هتان [2]

ويضاف إلى هؤلاء كثير من الشعراء الذين لم ينالوا ما ناله هؤلاء من علو المنزلة ولم يشتهر شعرهم رغم ما يبدو عند بعضهم من مواهب لا تجحد ، أمثال : القاضي أبي عبدالله محمد بن أحمد الحسني المعروف بابن يعلى [3] وأبي محمد عبد المؤمن بن يوسف المديوني [4] وأبي عبدالله محمد البطوي [5] وأبي القاسم بن ميمون السنوسي [6] وأبي الحسن علي

(1) وردت هذه القصيدة بالنص الكامل في زهر البستان ، ورقة 85 و -87 و .

(2) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 297 .

(3) انظر زهر البستان ورقة 15 ظ - 16 ظ ، 32 ظ - 33 و ، 43 و- 45 ظ .

(4) أنظر زهر البستان ورقة 16 ظ - 18 و ، 33 و - 34 و ، 46 و - 47 ظ .

(5) انظر زهر البستان ورقة 21 و 23 و ، 65 ظ - 66 ظ .

(6) انظر زهر البستان ورقة 23 و - 24 ظ ، 26 و - ظ ، 64 و - 65 ظ .

بن العطار [1] وأبي العباس محمد بن سفيان [2] ، وأبي محمد عبدالوهاب بن محمد بن عبدالقادر [3] ومحمد بن صالح شقرون [4] وأبي علي حسن بن ابراهيم بن سبع [5] ، وأبي عبدالله محمد بن علي العصامي [6] ومحمد بن علي ابن قاسم المرسي [7] ، وأغلبهم كانوا كتّاباً في مختلف الدواوين بتلمسان. وقد حفظت لنا كتب التاريخ قصائد لهؤلاء الشعراء ، من دون أن تشير إلى حياتهم وتكوينهم الأدبي .

وعلى كل ، فان هذا يشهد على حركة أدبية زاخرة ، تجلّت في الشعر وفي النثر على السواء ، وما وصلنا من إنتاجهم ينبىء بازدهار الآداب آنذاك ، وعلو مستوى الكتّاب والشعراء الثقافي .

العلوم الطبيعية :

عرفت الحركة العلمية تقدماً ملحوظاً ، وتواصلت عناية العلماء بالتعاليم والطب والتنجيم وغير ذلك ، رغم ما أصاب تلمسان من تشريد

---

(1) زهر البستان ورقة 35 و - ظ .
(2) زهر البستان ورقة 45 ظ - 46 و .
(3) زهر البستان ورقة 87 و - 88 و .
(4) انظر بغية الرواد ، ج 2 ، ص 143 - 145 .
(5) انظر بغية الرواد،ج 2 ، ص 282 - 284 .
(6) انظر بغية الرواد،ج 2 ، ص 315 - 316 .
(7) انظر بغية الرواد،ج 2 ، ص 316 - 317 .

الكثير من علمائها ، وهجرتهم الى المغرب الأقصى أو الاندلس أو الشرق أمثال الآبلي والمقّري الكبير وابن مرزوق الخطيب .

وقد نبغ علماء في هذه العلوم ، نذكر فيما يلي أبرزهم :

- **ابو عبدالله الشريف:** وقد سبقت الاشارة اليه ، في صدد ذكر العلوم الدينية ، وقد ذكر صاحب « البستان » أنه كان « إماماً في العلوم العقلية كلها ، منطقاً وحساباً وتنجيماً وهندسة وموسيقى وطِبّاً وتشريحاً وفلاحة ، وكثيراً من العلوم القديمة والحديثة »[1] .

ومن أشهر مؤلفات عصره ،شرحه على جمل الخونجي ، في المنطق .

سعيد العقباني : وقد سبق ذكره أيضاً، خلف أبا عبدالله الشريف في تدريس التعاليم،وكان أستاذاً بالمدرسة التاشفينية،فاستفاد منه كثيرون في هذه العلوم،وألف شرحاً على جمل الخونجي،وشرحاً على تلخيص ابن البناء في الحساب ، مما يدل على نبوغه في هذه العلوم .

(11) – **ابو الحسن علي بن احمد المعروف بابن الفحام :**[2] تلميذ أبي عبدالله بن النجار ، واشتهر بصنع المنجانة التي ازدان بها قصر أبي حمّو الثاني ، وأشاد بذكرها شعراء بلاطه ، وقد وصف

---

(1) البستان ، ص 173 .

(2) انظر : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 56 .

يحيى بن خلدون هذه المنجانة بقوله : « وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه باعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه،ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الايكة صعداً،وبصدرها أبواب موجفة عدد ساعات الليل الزمانية يصاقب طرفيها بابان موجفان أطول من الاولى وأعرض ، فوق جميعها ودوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقضّ من البابين الكبيرين عقابان ، بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوّف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة ، فيرن ، وينهش الارقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه ، فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة ، وتبرز منه جـــارية محتزمة كأظرف ما أنت راء ،بيمناها اذ بارة فيها اسم ساعتهامنظوماً ،ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمير المؤمنين أيّده الله »[1] ، وقد ضاعت هذه الخزانة ، ولم يصل الينا منها الاّ وصفها هذا .

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 40 – 41 .

ب ــ الفنون والعمران

وتشهد خزانة المنجانة ، وما لا يزال باقياً إلى يومنا هذا من آثار الدولة الزيّـانيّـة في عهد أبي حمّـو الثاني ، على تقدم الفنون المختلفة ، وبراعة الفنّـانين والصنّـاع في شتى المجالات ، وأبرز مـــا لا يزال ماثلاً للعيان ، ما يمسّ بالفن المعماريّ ، وتنحصر الآثار المعماريّـة التي تنتمي إلى عهد أبي حمّـو الثاني ، في ضريح الولي إبراهيم المصموديّ والجامع المحاذي له ، ويحمل اسم الوليّ .

وقد ذكر المؤرخون ، أن أبا حمّـو ، أمر بتشييد هذه الآثار بعد وفاة والده ، في شعبان (763 هـ) ، وكان قد أمر بدفنه ، حسب ما جاء في بغية الرواد ، « برياض كانت بباب إيلان ، استدناء لقبره منه » ، [1] وورد في زهر البستان أن أبا يعقوب دفن « بـــدار أبي عامر » التي أصبحت « مقبرة من المقابر » ، [2] ويمكن التوفيق بين الخبرين ، باعتبار الرياض تابعاً لقصر أبي عامر بن يغمراسن الذي ترك ثروة كبرى بعد وفاته ، بني منها أيام أخيه أبي سعيد عثمان مسجد أبي الحسن ،القريب من المكان الذي دفن فيه أبو يعقوب ، والد أبي حمّـو .

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 104 وباب ايلان كانت تقع غربي الجامع الأكبر بتاجرارت في اتجاه باب كشوطة والصهريج الكبير .

(2) زهر البستان ، ورقة 83 ظ .

ويذكر يحيى بن خلدون أن أبا حمّو ، بعد دفن والده ، « نقل إلى جواره أخويه السلطانين أبا سعيد وأبا ثابت رحمهما الله من مدفنهما بالعبّاد، وشرع، نصره الله، لحينه في بناء مدرسة وزاوية على قبورهم»[1] والجدير بالملاحظة أن المصادر التاريخية لا تشير إلى بناء مسجد ، وأن بناء زاوية لم يرد في كتاب زهر البستان [2] ، كما لم يرد في « نظم الدر والعقيان [3] » مما يجعلنا نستنتج أن أهمّ مبنى أنجز في عهد أبي حمّو الثاني إزاء الضريح هو المدرسة التي أشاد المؤرخون بذكر جمالها ، وقد أورد يحيى بن خلدون ، أن بناءها دام سنة ونصف سنة ، وأن تدشينها كان في (5 صفر 765 هـ) ،[4] وجاء وصفها في زهر البستان ، فقال مؤلف هذا الكتاب : « فاقيمت مدرسة مليحة البناء ، واسعة الفناء ، بنيت بضروب من الصناعات ، ووضعت في أبدع الموضوعات ، سمكها بالاصبغة مرقوم ، وبساط أرضها بالزليج مرسوم ... غرس بإزائها بستنتين يكتنفانها ، و... صنع فيها صهريجاً مستطيلاً ، وعلى طرفيه من الرخام خصتان يطردان مسيلاً ، فيا لها من بنية ما أبهجها ... » [5]

أما الزاوية فقد انفرد يحيى بن خلدون بذكرها ، وأغلب الظن أنها

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 104 .
(2) انظر زهر البستان ، ورقة 84 و .
(3) انظر نظم الدر والعقيان ، ورقة 62 ظ .
(4) بغية الرواد ، ج 2 ، 136 .
(5) زهر البستان ، ورقة 84 و .

كانت قائمة في مكان مسجد سيدي ابراهيم الحاليّ وأن بعض أجزاء هذا الأخير ، وخصوصاً المئذنة ، قد أضيفت إلى مبنى الزاوية، في آخر الدولة الزيّانية ، أو في العهد التركيّ ويشهد على ذلك انحطاطها الفني ، وقلة زخارفها .

أما الضريح ، الذي أمر ببنائه أبو حمّو الثاني ، فانه يمتاز بزخارفه الجميلة ، ذات الرسوم الهندسيّة الملوّنة .

ومن المؤسف أن تكون المدرسة قد اندثرت ، ولم يصل لنا إلا وصفها ، كما اندثرت قصور بني عبد الواد ، وما بنوه من متنزّهات في ضواحي عاصمتهم ، وكما تبعثرت خزانة الكتب التي أسّسها أبو حمّو وأودع فيها نفائس المخطوطات .

غير أن آثار أبي حمّو الادبيّة لم تلق نفس المصير ، إذ حفظ لنا المؤرخون كثيراً من شعره ، كما عرف كتابه « واسطة السلوك في سياسة الملوك» شهرة جعلت الناس يقبلون على نسخه ومطالعته والاستفادة منه.

الباب الثالث

آثار ابي حمو الثاني الأدبية

لقد خلّف أبو حمّو الثاني آثاراً أدبيّة تنبىء عن ثقافة عربيّة لا يستهان بها ، وتعطينا فكرة صادقة عن الذوق الأدبيّ الذي كان سائداً في عهده بالمغرب الاوسط (1) .

وميل أبي حمّو للآداب أمر طبيعيّ ، وذلك أنه عاش قبل إمارته في بيئة ثقافية ، في بلاط بني عبدالواد بتلمسان ، ثم في فاس ، العاصمة المرينيّة ، وأخيراً في بلاط الحفصّيين بتونس . (2)

(1) عن الحياة الأدبيّة بالمغرب الأوسط في عهد أبي حمو ، انظر نفح الطيب ، ج 9 ، ص 327 – 342 ، بغية الرواد ، ج 1 ، ص 23 – 76 ، التنسي ، نظم الدر والعقيان ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1875 ، ورقة 58 ظ – 63 و ؛ محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ص114 – 117 ، 155 – 191 ؛ أزهار الرياض ج 1 ، ص 239 – 261 .

(2) عن حياة أبي حمو قبل إمارته ، انظر : بغية الرواد ، ج 2 ص 15 – 30 زهر البستان ، ورقة 1 ظ – 15 و .

وأهم أثر لأبي حمّـو كتاب « واسطة السلوك في سياسة الملوك »[1]. وقد أودع فيه آراءه السياسية ، وضمنه بعض قصائده الشعرية .

وهذا التأليف يحتاج الى عناية الباحثين،لما يحتوي عليه من معلومات قيّـمة في شتّـى الميادين .

وسنتعرّض ، فيما يلي ، إلى أهمية هذا الكتاب التاريخية وإلى مــا يساعدنا في التعرف على شخصية أبي حمّـو الثاني ، والتطلع على أخلاقه وسلوكه ، ثم نُـتبـع ذلك باشارة سريعة الى شعره وإلى أغراضه المختلفة .

---

(1) طبع بتونس ، سنة 1279 هـ .

ا ـ كتاب « واسطة السلوك »

تاريخ تاليفه :

ليس لدينا نصّ يثبت يقيناً تاريخ تأليف كتاب « واسطة السلوك » الا أن بعض ما جاء في الكتاب من الاشارات إلى حوادث معاصرة، يجعلنا نرجّح تحديد تاريخ تاليفه حوالي سنة (765 هـ).

ومما يؤيد هذا التقدير ، أن أبا حمّو يخاطب فيه ابنه أبا تاشفين ، كما يخاطب الوالد ولده الصغير السن [1] ويدعوه إلى التحلّي بمكارم الأخلاق والخلال الحميدة ، مثلما يفعل المؤدّب مع تلميذه . فتراه ، مثلاً، يقول في خاتمة كتابه : « وقد وضعنا لك ، يا بني ، هـذا الكتاب . . وجمعنا لك ما يصلح لك بين أمور الدنيا والآخرة ... وبعد حفظك لكتابنا هذا ، واتباعك للأمور الشرعية والسياسة الدنيوية ، فتكون عمدتك كلها التوكّل في جميع أمورك على الله تعالى والتفويض له [2].

ويستبعد حثّ الكبير على حفظ الكتاب، وخصوصاً بالنسبة لأبناء

---

(1) سبق أن ذكرنا ، فيما قبل ، ص 73 ، أن الأمير أبا تاشفين بن أبي حمو ولد في في ربيع الأول سنة 752 هـ .

(2) واسطة السلوك ، ص 162 – 163 .

الملوك ، فأن تأديبهم كان يقع ، عادة ، في حــــداثتهم فاذا بلغوا الرشد تفرغوا للقيام بالمهامّ السياسية والعسكرية التي يكلّـفون بها .

ومما يجدر ملاحظته أيضاً ، أن الحوادث التي أشار إليها أبو حمّـو في كتابه ، وقعت كلها أثناء السنوات الخمس الأولى من إمارته ، فهو يتحدث مثلا عن حركته الموفقة إلى تلمسان ، واستيلائه عليها ، وإحياء دولة آبائه وأجداده ، سنة (760 هـ) [1] ويشير أيضــــاً إلى علاقاته بالسلطان أبي سالم المريني (شعبان 760-ذي القعدة 762هـ) ، وسفارة وزيره عمر بن عبدالله إلى تلمسان ، للتفاوض في شأن عقـد الصلح بين القطرين . [2]

ثم إن أبا حمّـو ذكر وزيره عبدالله بن مسلّـم [3] بعبارات يفهم منها أنه كان لا يزال على قيد الحياة آنذاك ، وذلك أن اسم الوزير ليس متبوعاً بعبارة « رحمه الله » أو ما يشاكلها ، المألوف استعمالها بعـــد أسماء من فارقوا الحياة ، وخاصة عندمـــا يكون المؤلف يوليهم عطفه ويكنّ لهم محبّـة خالصة ، واليك قول أبي حمّـو المشار اليه : « وقـد اتفق لنا ذلك مع عمر بن عبدالله ، وزير ملك المغرب أبي سالم ، حين

---

(1) واسطة السلوك ، ص 13 ــ 19 .
(2) نفسه ، ص 158 ــ 160 .
(3) هو عبدالله بن مسلم الزردالي ، أشهر وزراء أبي حمو الثاني ، وقد سبق ذكر دوره السياسي فيما قبل ، ص 95- 109 .

أرسله الينا ليتحيل بعض الحيل علينا ... فتفرّسنا فيه المخادعة ، لما أظهر من التذلل والمصانعة، ولما أظهر من البشاشة والتملّق ...فأنزلناه عند وزيرنا عبدالله بن مسلّم ثم أمرنا وزيرنا باختباره ، إذا أطلعه على أسراره ، واستخراج ما عنده لنعلم مراده وقصده . » (1)

أما الوقائع الهامّة ، التي حدثت بعد ذلك، كمنافسة الأمير أبي زيّان القُبّي لأبي حمّو في الامارة ،وهزيمة البطحاء (25 ذي الحجّة(765)، ومنافسة الأمير أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد الثاني ، وهزيمة بجاية (8 ذي الحجة 767) واستيلاء السلطان عبد العزيز المريني على تلمسان والمغرب الأوسط (772 – 774 هـ) فلا أثر لذكرها في الكتاب .

هذا وقد أورد أبو حمّو ، في آخر كتابه ، بعض المَوّلِديّات ويقع تاريخ نظمها ، حسب ما جاء في بغية الرواد ، بين سنتي (767 و 771) (2) ، والراجح لدينا أن المؤلف أدرج هذه القصائد في الخاتمة ، مع بعض النصائح وأضافها إلى الأصل ، بعد ذلك بسنوات عديدة .

موضوعه :

يتناول أبو حمّو ، في كتابه هذا ، دراسة القواعد التي ينبغي على

(1) واسطة السلوك ، ص 158 .
(2) انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 162 – 164 ، 186 – 189 ، 224 – 226 .

الملوك مراعاتها في سياستهم،والخلال التي يحسن لهم التحلي بها ، اذاأرادوا أن يحقّقوا ما تصبو إليه نفوسهم ، عادة من نشر السلام والرخاء في بلادهم ، والفوز في الدنيا والآخرة .

فالموضوع أخلاقيّ ، من جهة ، إذ يشمل القيم الأخلاقية التي ينبغي للملك ولرجال حاشيته أن يتصلوا بها،والخصال الذميمة التي يجب الابتعاد عنها ، وهو سياسيّ ، من جهة أخرى ، إذ يتناول قضايا الحكم ، وتدبير المَـلِك وأعوانه لشؤون الدولة .

فهذا الكتاب يتّسم بطابع تربويّ خاص،وذلكأن المؤلف سلطان ، يريد تأديب ابنه وتلقينه ما ينبغي عليه أن يعرفه في ميدان السياسة والحكم ، وهو من نوع كتب نصائح الملوك [1] ، الا أن هذه النصائح ليست موجّهة الى الملك ،من طرف الحكماء والكتّاب كما هوالشأنعادة، إنما هي صادرة عن أحد الملوك ، وموجّهة الى ولي العهد ، والى غيره من الأمراء والملوك .

ونتيجة ذلك أن ابا حمّو طرق الموضوع من زاوية خاصة ، تختلف شيئاً ما عن التي عهدناها عند غيره ممن كتب في هذا المجال ويتضح لنا ذلك ، عندما نلتفت الى دراسة منهجه ، ومقارنته بمنهج غيره.

---

(1) عن كتب نصائح الملوك ، وتطور هذا الفن ، انظر :
G . Richter, Studien Zur geschichte der alteren arabichen Fusten piegeL, Leipzig 1932.

اختلف الحكماء والكتّاب ، الذين ألّفوا في السياسة ، في طريقة معالجة هذا الموضوع ، وذلك حسب تكوينهم الثقافي ، وحسب البيئة التي عاشوا فيها ، والدور الذي لعبوه في المجتمع .

ولم يعن العرب بهذا النوع من التآليف قبل حركة الترجمة والنقل، التي شجعها الخلفاء العباسيون ، ابتداء من عهد أبي جعفر المنصور ، وذلك ان الخلافة الاسلامية كانت لا تزال ، رسمياً،تختلف تماماً عن النظلم الملكي ، وتخضع للقيم الاسلامية ، التي تحصر مهمّة الحكّام في تنفيذ القوانين والأحكام الشرعيّة ، المنصوص عليهافي القرآن والحديث ، أو المجمع عليها من طرف أهل الحل والعقد ، ولم يكن للخلفاء الأمويين وزراء وبلاط يشبه بلاط الأكاسرة أو غيرهم من ملوك العجم .

الا أن الوضع تغير عندما تأسست الخلافة العباسية ، وبدأت حركة الترجمة ، فنقل ابن المقفع (106 ـ 142 هـ) الى العربية كثيراً من كتب الفرس ، منها « سيرة الملوك » (خداي نامــــه) ، و« كليلة ودمنة » ، و« الأدب الكبير » و«الأدب الصغير»، وكلها تدور حول الحكمة والسياسة والتاريخ ، كما ألف «رسالة الصحابة» التي تناول فيها آداب حياة البلاط، وسياسة الخليفة .

وقد حظيت هذه الكتب بإقبال الأدباء والأمراء ، فكانت نواة لفن

جديد من فنون الأدب ، هو فنّ الحكمة والسّياسة ، وسيرة الملوك ، وقد تطوّر هذا الفن ، بعد ذلك ، تطوّراً كبيراً ، بمقتضى البيئة الدينية والاجتماعية والسياسية التي عاشها الأدباء المسلمون فأدخلوا فيه النصوص الدينية الملائمة للموضوع ، من آيات قرآنية وحديث شريف ، وأقوال الخلفاء الراشدين ، وأشعار العرب ، كما أضافوا الى ذلك قصص الأنبياء، وما روي من الحكايات عن الخلفاء والوزراء وغيرهم .

ولم تكن هذه الحكمة السياسية ، بادىء ذي بدء ، مدوّنة في كتب مستقلة ، ومرتبة ترتيباً منطقياً،ومبوّبة حسب الموضوعات المطروقة، بل كانت مبعثرة في كتب الحديث ، والأدب والتاريخ والأخلاق .

وجاء الجاحظ (المتوفى سنة 255 هـ) ، فألف كتاب « التاج في أخلاق الملوك » [1] . ثم ألف الماوردي (المتوفي سنة 450هـ) كتاب « الأحكام السلطانية » [2] ، وكتاب « أدب الوزير » [3] المعروف أيضاً باسم قوانين الوزارة وسياسة الملك .

وعظم اهتمام الأدباء والعلماء المسلمين بهذا الفن ، ونسب الى الغزالي المتوفي (سنة 505) كتاب « التبر المسبوك » في حكايات وحكم ونصائح

---

(1) حققه أحمد زكي، القاهرة ، 1914 م.

(2) طبع بالقاهرة ، سنة 1298 هـ ، وبلندن ، سنة 1906 م .

(3) طبع بالقاهرة ، سنة 1348 هـ .

الملوك) [1] قيل انه ألفه بالفارسية، وأن أحد تلامذته ترجمه الى العربية. ويشتمل هذا الكتاب على مقدمة في العقائد ، ثم مدخل في فروع شجرة الايمان ، وأهمها العدل والانصاف ،ومعرفة الدنيا،ومعرفة النَّفَس الأخير، أي الموت والآخرة ثم يـــلي ذلك سبعة أبواب : أولها في ذكر العدل والسياسة وذكر سير الملوك ، والثاني في سياسة الوزراء وسيرتهم، والثالث في آداب الكتّاب والرابع في سُمُوّ هِممَ الملوك،والخامس في ذكر الحكماء والسادس في شرف العقل ، والأخير في ذكر النساء وما يجب على المرء من حذرهن واجتناب حيلهن .

كما ألف القاضي أبو بكر الطرطوشي (المتوفي سنة 520 هـ) كتاب « سراج الملوك » [2] وهو مؤلف ضخم ، جمع فيه صاحبه كثيراً مما ورد في مختلف التآليف ورتب تلك المادة الغزيرة ترتيبا جديداً . فجعله في 64 باباً ، تدور حول مواعظ الملوك وبيان منزلتهم من المجتمع ، ثم بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ، مثل العدل والعلم والعقل ، ثم بيان معرفة الخصال التي هي جمال السلطان،وهي المشاورة والحلم والكرم والصبر والشكر ، ثم بيان سيرة السلطان وأفعاله المحمودة والمذمومة ، من عدل وظلم وتدبير شؤون الجند وجباية الخراج وبيت المال وغير ذلك . وينهي كتابه بذكر أخبار أخرى لملوك العجم ، وحكم مأثورة .

---

(1) طبع بالقاهرة (مطبعة التقدم) ، بدون تاريخ .
(2) طبع ببولاق ، سنة 1289 هـ .

والجدير بالذكر أن هذا التأليف الهامّ ، الذي يتناول موضوع سياسة الملوك من جميع زواياه ، يكتسي طابعـــا دينياً وأخلاقياً خاصاً ، لما اشتمل عليه من المواعظ والإرشاد إلى السبيل المستقيم والحث على الابتعاد عن نعيم الدنيا ، واجتناب صحبة الملوك ، والعمل للآخرة ، ثم إن مجهود المؤلّف يكاد يقتصر على ترتيب الحكايات والحكم والأخبار ، والنصوص الشرعية ، أما تحليل الموضوع السياسي والأخلاقي ، وبسط ما يتطلّبه من آراء ، فذلك عنده أمر ثانويّ ، لا يحظى بعنايتــــه ، ولا يحتل المنزلة الرئيسية .

وقد طرق ابن ظفر الصّقِلّيّ (المتوفى سنة 565 هـ) ، هذا الفن في كتاب « سلوان المطاع »[1] من زاوية محدودة ، حيث جعل موضوعه منحصراً في خمسة أبواب ، أولها في التفويض ، والثاني في التأسّي ، والثالث في الصبر ، والرابع في الرضى ، والخامس في الزهد ، ويظهر من عناوين هذه الأبواب أن غرض المؤلف الرئيسيّ كان حث الملوك ورجال الدولة على احتقار زخرف الدنيا ونعيمهـــا ، والتوكل على الله ، والصبر على الشدائد ، والعمل للآخرة ، وهذه الحكمة ، التي تستقي أصولها من القرآن والحديث وأقوال الحكماء والخلفاء وغيرهم ، من صميم الأخلاق ، ولا تمتّ بصلة قويّة بالسياسة ، بل السياسة هنا مغمورة بالاعتبارات الأخلاقية ، خاضعة لمعطياتها .

---

(1) طبع بالقاهرة سنة 1278 هـ وبتونس سنة 1279 هـ وببيروت سنة 1300 هـ .

ونفس الملاحظات تنطبق على كتـــاب « كنز الملوك في كيفية السلوك »[1] لسبط ابن الجوزيّ (المتوفي سنة 654 هـ) ، وهذا الكتاب يحتوي على نفس العنـــاوين المذكورة في سلوان المطاع ، وعلى أغلب حكمه وحكاياته

هذا ، وقـد تعرّض بعض الكتّـاب إلى معالجة الحيـاة السياسية في عصرهم ، ووصف حياة البلاط ، وما ينبغي على الملك وحاشيتـه أن يراعوه من القواعد السياسية والقيم الأخلاقيـــة ، والتقاليد الاجتماعية بصفة موضوعيّـة ، معتمدين على مشاهدتهم للواقع ، وخبرتهـم السياسية والأدبية والأخلاقيـــة ، ولم يلجئوا إلى رواية قصص الملوك والأمراء وغيرهم ، وذلك مثـــل ابن المقفع (المتوفي سنة 142 هـ) في « رسالة الصحابة » ، ولسان الدين بن الخطيب (المتوفي سنة 776 هـ) في رسائـله السياسية[2] ، فجاءت هذه التـآليف مقتصرة على فن السياسة ، مستقلة عن القصة والتاريخ والأخلاق .

أما أبو حمّـو فإنـه حاول التوفيق بين هاذين الاتجاهين المختلفين ، فهو يعالج الموضوع من حيث المعطيات السياسية والأخلاقية والنفسية ،

---

(1) نشرة المستشرق Gosta Vitestam بلونـد (lumd) ، السويد ، سنة 1970 م .

(2) أنظر ، مثلا ، رسالته في السياسة ، في كتابه «ريحانة الكتـاب» مخطوط في المكتبة الرطنية بالجزائر ، رقم 2010 .

مع الالتفات ، في شتى المناسبات ، إلى الواقع التـاريخي الذي شاهده أو عاشه ، فهو لا يكتفي بذكر القيم الأخلاقية المحمودة ، بل ينظر إليهـا من خلال مقتضيات الإطار السياسي ، ومتطلبـات وظيفـة من يتّـصف بها ، من ملك أو وزير أو قائد ، وغير ذلك ، فإذا تحدّث ، مثلاً ، عن الشجاعة أو الكرم أو الحـلم ، تعرّض إلى دور هـذه الخصال في سياسة المَـلِـك أو غيره من رجـــال الدولة ، وشرح موقف هؤلاء في شتى المناسبات التي تعترضهم أثناء قيامهم بمهمّتهم،وبيّـن ما عليهم أن يسلكوا من طرق معالجة المشاكل التي تواجههم في تلك الأحوال ، ثم إنه عندمـا يتحدث عن الشجاعـــة ، يتناول دور المَـلِـك في الحرب ، وينتقل إلى بيان نظام الجيوش في عصره ، والتحـذير من ارتـكاب بعض الأخطاء التي قد تؤدّي إلى الهزيمة والفشل [1] .

ورغم أن كتـاب « واسطة السلوك » لا يخلو من استعمال حكايات القدماء وحكمهم ، فإنه يقدم للقارىء دراسة واقعيـة للموضوع تتضمن عرضاً شاملاً للآراء السياسية والأخلاقية والاجتماعية ، ثم إنـــه يعطي للجانب السياسي المنزلة اللائقة به في البحث ، فيجعلها هيكل الكتاب ، بينما تحلّ العناصر الأدبية والأخلاقية منزلة ثانوية .

وهذا الاتجاه يكسب كتاب أبي حمّـو الثاني ، أهمية كبرى من حيث تطوّر العلوم السياسيـــة في تاريخ الأدب العربي ، إذ يشكل مرحلة

---

(1) انظر واسطة السلوك ، ص 129 – 134

حاسمة نحو استقلالها عن العلوم الدينية من جهة ، وعن الأدب ، من جهة أخرى .

مضمون الكتاب :

يستهل أبو حمّو كتاب « واسطة السلوك » بمقدمة يبيّن فيها أنه ألّف هذا الكتاب ليطلع ابنه ووليعهده على قواعد تسيير شؤون الدولة، وليقدّم له « نصائح حكمية ، وسياسة عملية » . [1] ثم يذكر أنـه قسم كتابه الى أربعة أبواب .

ويحتوي الباب الأول على نصائح عامّة ، ينبغي على الملك مراعاتها إن كان يريده النجاح في الدنيا ، والفوز في الآخرة، وهي الاتصاف بالعدل ، وملازمة التقوى ، وحفظ المال ، والعناية بالجيوش . ويتخلّل عرض هذه النصائح ثلاث قصائد شعرية لابي حمّو ، الأولى في الفخر وشكر الخالق ، [2] والثانية في التقوى ومدح ارسول ، [3] .والثالثة في الفخر وذكر حركته الموفقة الى تلمسان لاحياء الدولة الزيّانية.[4]

---

(1) واسطة السلوك، ص 3 ، س 23

(2) ومطلعها : دمع ينهل من المقل : لقبيح كان من العمل؛ انظر واسطة السلوك ، ص 5 – 7 .

(3) ومطلعها: نام الاحباب ولم تنم عيني بمصارعة الندم. انظر واسطة السلوك ص 10 – 11 .

(4) ومطلعها :

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم   لما شحطتها من هبوب الرواكم

أنظر : واسطة السلوك ، ص 15 – 19 .

ويشتمل الباب الثاني ، وهو أهم أقسام الكتاب ، على قواعد الملك وأركانه ، وهي أربع : العقل ، والسياسة، والعدل ، والاعتنـــاء بجمع المال والجيوش .

فعلى الملك أن يكون عاقلاً ، سديد الرأي ، وأن يميّز بين النافع والمضرّ ، وبين الحق والباطل ، والجائز والمستحيل .

وكذلك ينبغي للملك أن يدبّر مملكته أحسن تدبير ، وأن يسلك في سياسته طريق الرشاد، وأن يحسن اختيار الأعوان، ولا سيما الوزير، فبصلاح الوزير تستقيم أحوال الدولة .

وينبغي له أيضاً التبصّر في تعيـــين الكتّاب والولاة والقضاة والقوّاد ، لما يقوم به كل من هذه الأصناف من مهامّ خطيرة في شؤون الدولة ، ثم على الملك أن يكون مطّلعاً على المراسيم الملكيّة ، وأن يجعل كلاً من رجالات الدولة في منزلتـــه ، وأن يحترم التقاليد المعهودة في ترتيب أعماله اليوميّة، وأداء مهامّه، من استقبال رجال الدولة والنظر في القضايا ، وغير ذلك .

كما يجب عليه أن يكون يقظاً حازماً ، ضابطاً لأموره ، وعليه أن يجعل لنفسه معقلاً يلجأ إليه إذا غزاه عدو واشتدت به الحال ، وأن يختار جواداً من عتـــاق الخيل يعدّه للشدّائد والملمّات ، وأن يقتني اليواقيت والجواهر وما غلا ثمنه وخفّ محمله ، ليجعلها ذخيرة يجدها عند الشدّة .

وكذلك ينبغي له أن يتخذ وزيراً صالحاً ، يجده عوناً في الشدائد ، ومساعداً عند الحاجة ، لما اتصف به من خصال محمودة ، ونجدة وخبرة .

ثم يتطرّق أبو حمّو الى حديث هامّ ، يدور حول موقف الملك من العدو ، في حال خشية هجومه ، ويختلف هذا الموقف حسب الظروف التي تعيشها بلاده ، من ضعف وقوّة . ولذا، فان عرض أبي حمّو يتناول سائر الاحتمالات ويحلّل الأحوال المناسبة لها ، ويبيّن ما هي الوسائل التي تمكّن صاحب الحكم من التغلّب على عدوّه

فإذا كان العدوّ أقوى منه ، فعليه أن يستخدم شتّى الأساليب لبلوغ غرضه ، وهو دفع خطر العدو ، وأول هذه الأساليب إغراء العدو « ووزرائه وخاصته وأهل رأيه » بالأموال ومعاملة هؤلاء بلطف ولين، قصد حثّهم على الرجوع عن عزمهم ، والرضا بما يبذله لهم من الأموال .

فان لم تنجح هذه الطريقة ، ولم يجب العدوّ على هذا العرض ، فعلى الحاكم أن يلجأ الى الحيلة ، وان يحاول إثارة الفتنة وسوء التفاهم في بلاط العدوّ ، بان يبعث ، مثلاً ، رسائل مزوّرة ، تشهد بخيانة وزيره، ويمكن له أيضا أن يغادر عاصمته ويعمل على إيقاع العدوّ في مازق لا يستطيع الخروج منه إلا بالعودة الى بلاده والجلاء عن الأراضي التي اغتصبها .

وان لم يتمكّن الحاكم من ابعاد خطر العدوّ بالحيلة فعليه أن

يتحصّن في معقله ، وأن يستعمل شتّى ضروب التضييق عليه لارغامه على الانسحاب . واذا لم يتأتّ ذلك ، فما على الحاكم الا أن يفرّ أمام العدوّ الى المناطق الصحراوية فان تبعه العدوّ ، لم ينل منه الا التعب والعناء ، كما وقع للسلطان أبي الحسن المريني حين تصدى لاخضاع قبائل العرب بإفريقية .

وبعد هذا ينتقل أبو حمّو الى بيان كيفيّة معاملة العدوّ اذا كان أضعف من الحاكم،ثم اذا كان مساويا له في القوة ،وهو في سائر عرضه هذا يستشهد بالحوادث المعاصرة ، ويقدّم للباحث معلومات قيّمة ، تلقي بعض الأضواء على هذه الفترة من تاريخ المغرب .

وكذلك يجب على الملك أن يكون عادلاً في حكمه وفي جميع تصرّفاته،سواء فيما يتعلّق بنفسه ، أو بعلاقاته مع غيره من الناس فعليه ألاّ ينصرف عن أمور الدنيا وعن العناية بشؤون البلاد ، وأن يمتثل للأحكام الشرعية وللقوانين المعهودة.

وأخيراً ينبغي للحاكم أن يجمع المال والجيش ، وألا يكون مقصّراً في ذلك ، ولا مفرّطاً ، لتستقيم أمور الدولة وتسير على أحسن وجه .

أما الباب الثالث ، فإنه يتضمّن تحليلاً للاوصاف المحمودة التي يستقيم بها الملك ، وهي الشجاعة ، والكرم ، والحلم ، والعفو .

وعندما يتحدث أبو حمّو عن الشجاعة نراه يتعرّض الى الحرب ،

والى بيان أنجع الطرق في قيادة الجيوش ، والتفوّق على العدو .

ويتلوه الباب الرابع ، في الفراسة ، ويشتمل على دراسة نفسيّةلهيئة الناس ، والاستدلال بظاهرهم وسمة وجوههم عما يجول في ضمائرهم ، والوسائل التي يمكن بها اختبارهم والوصول الى ما يكنّه باطنهم ، وخصوصا السفراء الذين يفدون من البلدان الأخرى ، أو الرسل الذين يبعثهم العدو لإبرام صلح . فيجب الاتقاء من خداعهم ومعاملتهم حسب نواياهم .

ثم ، في خاتمة الكتاب ، يتوجه أبو حمّو الى ابنه ببعض النصائح ، ويحثه على التحلّي بمكارم الأخلاق ، واتباع الحق ، واجتناب الباطل ، والعمل للآخرة ، ويرغّبه في مساعدة المسلمين في جهادهم ضدّ النصارى بالأندلس . وأخيراً يهيب به الى الاحتفال بليلة المولد الشريف، والى نظم المولديّات . وينتهي الكتاب ببعض القصائد التي نظمها أبو حمّو بمناسبة حفلات المولد .

قيمة الكتاب :

تتجلى قيمة كتاب « واسطة السلوك » في مختلف الميادين من تاريخ واجتماع وأدب .

آ — قيمته التاريخية :

يحتوي كتاب « واسطة السلوك » على آراء وأخبار تاريخية رواها

المؤلف عن كتب التاريخ والأدب أو عن أشخاص شاركوا في وقائعهاأو كان نفسه من المشاركين فيها .

ومن بين هذه الأخبار ما يرجع إلى ملوك الفرس ، نقلها المؤلف ، غالباً ، عن كتاب « سلوان المطاع » لإبن ظَفَر الصَّقِلِّي[1] ، ومنها أخبار الخلفاء الراشدين وأمراء بني أمية وبني العباس وهي مشهورة ، ورد ذكرها في كتب التاريخ والأدب ، مثل « العقد الفريد » لإبن عبد ربّه ، و « سراج الملوك » للطُّرطوشيّ ، وغيرهما ، ثم إن أبا حمّو يروي أيضاً حوادث قريبة من عصره ، مثل المعركة التي انهزم فيها أبو الحسن المريني بالأندلس[2] ، كما يصف الوقائع التي شاهدها بنفسه ، مثل حركته الموفّقة إلى تلمسان ، (سنة 760 هـ)[3] .

وفي « واسطة السلوك » بعض الملاحظات التاريخية ، أوردها أبو حمّو في أثناء حديثه ، وهي تبرهن عن فكره الثاقب ، ونقده الصائب ، فمن ذلك ما جاء في الباب الثاني ، عندما تحدّث عن الملك الذي له عقل يصلح به دنياه دون أخراه ، فذكر عبد الملك بن مروان ، مثالاً لذلك ، ولاحظ أن توليته الحجاج بن يوسف على العراق تدل على مهارته

---

(1) وذلك مثل قصة سابور «واسطة السلوك» ص 34 – 51 ، وقد وردت في السلوانة الثانية من «سلوان المطاع» وهي سلوانة التأسّي .

(2) انظر : واسطة السلوك ، ص 132 - 133 .

(3) نفسه ، ص 13 – 19 .

في السياسة وتدبير شؤون الدولة ، إلا أنها أدّت إلى ظلم كبير ، ويقول معلقاً على ذلك « فمن دهائه (يعني عبد الملك) أن العامة تنسب الظلم إلى الحجاج لا إليه ، وأما الخاصة فلا تردّ اللوم إلا عليه ، وما سفك الحجاج من الدماء ، فإنما هو في الحقيقة على يديه ، وكذلك حصار مكة ، وهدم الكعبة ، فالحجاج سيئة من سيئات عبد الملك » [1] .

ب – قيمته الاجتماعية :

ولكتاب « واسطة السلوك » قيمة اجتماعية هامة ، وذلك لأن الموضوع يدور حول قضايا اجتماعية ، أو لها علاقة ماسّة بسلوك المرء في المجتمع ، وقد درس المؤلف ، بصفة خاصّة ، الطبقة الحاكمة ، من ملوك ووزراء وسائر الأعوان .

ومما يجدر ملاحظته أن أبا حمّو يُحِلُّ العقل المنزلة اللائقة به ، ويجعله القاعدة الأولى التي يعتمد عليها في السياسة ، فتراه يقول مثلاً ، « والعقل غريزة يضعها الله تعالى حيث شاء ، وهو نور يقذفه الله تعالى في القلوب الفاضلة » [2] ، وهذا التصريح إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على مدى تأثّر أبي حمّو بآراء الفلاسفة وبعده عن اعتقادات الصوفية ، وعن رأي الغزالي ، في هذا المجال .

---

(1) واسطة السلوك ، ص 29 .

(2) نفسه ، ص 22 .

وإذا كان على الإنسان أن يستنير بعقله ، في سلوكه ، فعليه أيضاً ، أن يراعي مقتضيات السياسة ، وألاّ يهمل واجباته الدنيوية من تدبير شؤون الدولة ، ومعاملة وجهاء الناس حسب ما تقتضيه منزلتهم ومهمتهم ، والاعتناء بالجيش ، الذي يحمي به كيان الدولة ، وبجمع الأموال ، التي بفضلها يتمكّن من القيام بأعباء الحكم .

وأهم ما يعنى به المؤلف سلوك الملوك وغيرهم من الحكّام ، في سياستهم ، وأثناء قيامهم بمسؤولياتهم الإدارية والاجتماعية. وللموضوع صلة وثيقة بالأخلاق ، غير أن العلاقة بين السياسة والأخلاق قد تختلف حسب الظروف والمناسبات ، وحسب المفكرين في ميدان السياسة وأعمال الحكّام أنفسهم .

ومما يلاحظ ، في هذا الصدد ، أن المفكّرين المسلمين الذين كتبوا في باب السياسة ، قبل أبي حمّو الثاني ، لم يصرّحوا بالتباين الذي قد يقع بين سلوك الحكّام والقيم الانسانية المعهودة ، من وفاء وصراحة وصدق واحترام للعهود ، وغير ذلك ، فكانت آراؤهم خاضعة لما ورد في النصوص الشرعية الاسلامية ، من تعاليم أخلاقية ، ويضيفون إلى ذلك ما يتصل بالموضوع من أقوال العرب وقصصهم ، وحكم الفرس وحكاياتهم ، مما يعطينا نظرة صادقة عن أكمل نموذج للحاكم حسب رأيهم ورأي معاصريهم .

والحقيقة أن معالجة المفكّرين للقضايا السياسية كانت نظرية أكثر

منها واقعية ، وذلك أنها كانت لا ترتضي من سلوك الحكّام إلا ما كان خاضعاً للنواميس الأخلاقية والشرعية المعمول بها عادة ؛ وأصدق مثال لهذا الاتجاه كتاب « سراج الملوك » للطُّرْطوشِيّ .

والذي يظهر من دراسة آراء أبي حمّو السياسية ، أنه لا ينبغي إخضاع السياسة للاخلاق ، في جميع الأحوال ، بل قد يقتضي الأمر أن يعارض الحاكمُ المألوفَ من القيم الأخلاقية ، إذا كان ذلك يؤدي الى مصلحة البلاد ، ويدفع عنها الأخطار التي قد تهدّد سلامتها وأمنها ؛ ولذا ، فلا يكفي أن يكون الحاكم يقظاً حازماً ، وأن يحذر خداع العدو ، بل عليه ألاّ يتأخر عن اللجوء الى المكيدة والخديعة والتزوير وغير ذلك من الأخلاق المنبوذة عادة ؛ فنراه ينصح ابنه مثلا ، ألاّ يحترم عقد الصلح مع العدو ، ويقول له : « فتكون مصالحتك من جملة المكائد ، ومن الدهاء الذي يبلغ للمقاصد ، لأن مصالحة العدو متى تظفر به ، مكيدة ، وتلك سياسة وكيدة ، وإن كانت عند الناس مذمومة ، وصفتها بالغدر موسومة ، فهي عند الملوك محمودة ، وآثارها مشهورة مشهودة ، ومع ذلك لا تأمن عدوّك في مهادنة ، ولا في موالاة ولا في محاسنة » (1) .

وهكذا يتجلى أن أبا حمّو كان يرى ضرورة مراعاة مصلحة البلاد السياسية ، قبل كل شيء ، ولا يجعل من الرجل الذي يسوس البلاد

(1) انظر ، فيما بعد ، ص 265 .

نموذجا للانسان الكامل كما كان يراه القدماء والاخلاقيون . فهو بآرائه هذه ، قد سبق مكيافيلي بما يقرب من قرن ونصف وصرّح بأفكار عصرية مستقاة من الواقع الذي كان يحيط به .

هذا ، وفي الكتاب أيضا دراسة نفسيّة طريفة ، تعطينا فكرة صادقة عن عقليّة أبي حمّو وأبناء عصره ، فيما يخصّ دراسة الطباع والأمزجة ، وتحليل العوامل النفسيّة ، وتقديم أنجع الوسائل للتعرّف على ما تنطوي عليه النفوس من النوايا والاغراض المخفيّة ، وخصوصاً في باب الفراسة ، ومن المعلوم أن الفراسة من الفنون التي عني بها كثيراً القدماء ، ودوّنوا فيها المؤلفات العديدة . أما أبو حمّو ، فانه يعتمد ايضاً على تجربته الخاصّة ، وعلى ما حصل له من معلومات ، تلقّاها أثناء مقامه في عواصم المغرب ، أو أثناء مزاولته لشؤون الدولة .

ومما يلاحظ ، في هذا المجال ، أن أبا حمّو لم يحاول معالجة قضايا الطبقة الوسطى أو السفلى من مجتمعه، شأنه في ذلك شأن غيره من الكتّاب والمؤرّخين، وربما يرجع الى ذلك استحواذ الطبقة الحاكمة على الشؤون السياسية وابتعاد الطبقة السفلى والوسطى عن الاشتغال بالقضايا السياسية، مثلما كان الشأن في كثير من الأقطار في ذلك العصر .

قيمته الادبية :

طرق أبو حمّو موضوعاً علمياً ، وهو من صميم علم السياسة ، الا أنه،

مثل غيره من المؤلفين المسلمين الذين طرقوا هذا الموضوع ، لم يتخلص من النزعة الأدبيّة. وتتجلّى هذه النزعة في كتاب « واسطة السلوك » ، في طريقة عرض الأفكار ، وفي فن المؤلف .

أما المنهج الذي سلكه أبو حمّو في معالجة الموضوع ، فانه يستعين كثيراً بالأسلوب الأدبيّ ، وذلك أن الآراء السياسية تقترن ، في أغلب الأحيان ، بامثلة تاريخية لا تخلو من خيال ، وهي في الحقيقة أقرب الى القصّة منها الى التاريخ ، وقد اقتبسها أبو حمّو من كتب الأدب وذكرها بما جاء فيها من أشعار وحكم وأمثال . فنتج عن ذلك تمازج بين القصة التاريخية ، التي يتخللها أمثال وحكم،وبين الأفكار السياسية والأخلاقية. وهذا التمازج ، في بعض الأحيان ، يزيد تلك الأفكار وضوحا ودقّة ، الا أن طول بعض الحكايات قد ينسي القارىء الغرض من إيرادها ، ومغزاها العميق ، ويجعله يطالعها لمجرد التسلية أو يصيبه شيء من الملل والفتور ، اذا كان ينتظر استئناف المؤلف لعرضه ورجوعه الى حديثه. ومن هذا القبيل ، حكاية سابور ابن هُرْمُز ، ملك الفرس [1] ، وقصة قصير بن سعد والزباء ، [2] وقد تراكمت هذه القصص في القاعدة الثانية من الباب الثاني ، وهي قاعدة السياسة ، الى حد أن هذا الفصل يحتل أكثر من نصف الكتاب [3] .

---

(1) واسطة السلوك ، ص 34 – 51 .

(2) نفسه ،ص 51 – 57 .

(3) يمتد هذا الفصل من ص 31 الى ص 118 ، من كتاب «واسطة السلوك» .

ويبدو أن هذه الطريقة كانت مستعذبة في عصر المؤلف لما فيها من تسلية ، ولميل الناس الى غرائب الأخبار وعجائب القصص ، كما يظهر ذلك في كتاب « ألف ليلة وليلة » وفي « سلوان المطاع » وفي رحلة ابن بطوطة ، وغيرها من المؤلفات .

أما فن أبي حمّو الأدبي، فإنه يمتاز بالإطناب والسجع ، والإسراف في ذلك أحيانا الى درجة التكلّف والإكثار من المحسّنات البديعية. غير أن هذا التصنّع في التعبير لا يبعث الى الملل والضجر ، لسهولة لغته ووضوح معانيه .

ويمتاز كذلك فن أبي حمّو الأدبيّ بالاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبويّة ، والأمثال ، والاشعار . وتحتلّ هذه الاستشهادات قسماً وافراً من الكتاب ، حتى أنها ، أحيانا ، تطغى على حديث المؤلف، وتشكّل القسم الأكبر من الفصل أو الباب. وعلى كل ، فلا يحقّ بنا أن نلوم أبا حمّو على ذلك ، لأن هذه الظاهرة كانت متفشّية في عصره وفي العصور التي سبقته ، فلا تطالع تاليفا قديما إلا وجدته محشواً بروايات مختلفة ، يرى المؤلف ضرورة إيرادها لتدعيم آرائه وإقناع القارىء ، وليبرهن عن غزارة علمه ، وعلوّ كعبه في المجال الثقافي المطروق .

ب ـ شعر أبي حمو

لأبي حمّـو شعر ، لم يصل إلينا منه إلا بعض القصائد وردت في كتاب « واسطة السلوك » ، وفي كتب المؤرخين لدولة بني زَيّـان ، مثـــل « بغية الرواد » ، و«زهر البستان » [1] . و«نظم الدر والعقيان» . أما كتاب « راح الأرواح فيما قاله أبو حمو أو قيل عنه من الأمداح » الذي جمعه التنسي فلا أثر له في فهارس المكتبات العامّـة التي رجعنا إليها ، ولم نتصل بخبر وجوده في المكتبات الخاصة المشهورة .

ويبلغ ما وصلنا من شعر أبي حمّـو 21 قصيدة، تحتوي على ما يقرب من ألف بيت ، تدور حول أغراض مختلفة كالفخر والحماسة والرثاء ، ومدح الرسول . وقد قيلت هذه القصائد في مناسبات خاصة أراد أبو حمّو أن يعبّـر فيها عن عواطفه ، كبعض المواقف السياسية ، وكرثاء أبيه ، والاحتفال بالمولد الشريف .

ولا شك أن منزلة أبي حمّـو الاجتماعية ، ونفسيته ، والبيئة التي عاش فيها ، تنعكس كلها في شعره ، وتعطيه طابعاً خاصاً يمتاز بالجِـدّيـّة

(1) يوجد منه مخطوط يشتمل على الجزء الثاني فقط ، في مكتبة ريلاندس بمانشستر «انجلترا» وقد استعملناه في دراستنا هذه .

والتمسّك بالعواطف النبيلة ، واجتناب كل ما يحطّ من سمعة الشاعر بين المجتمع .

وشعر أبي حمّو ، فيه الغث والسمين ، والرديء والجيّد ، وجيّده أكثر ما يكون اذا هزّت الشاعر العاطفة الصادقة ، والقريحة الخلاّقة ، فعندئذ يسيل نظمه على طبيعته ، من دون تكلّف أو تصنّع ، ويتجلّى لنا في قوة وروعة وسهولة تجعل القارىء أو السامع يستسيغه ولا يعتريه الملل ، رغم إسراف الشاعر في استعمال المحسّنات البديعيّة ، على طريقة شعراء العصر في المغرب والأندلس .

غير أنّ أبا حمّو لم ينقّح نظمه،ولم يحذف من قصائده ما لا يروق من الأبيات . فجاء شعره مزيجاً من النظم الرائق والسخيف الأمر الذي يحطّ شيئاً ما من قيمته الفنيّة ، ويجعل القارىء ينتقل من الإعجاب الى التثاقل ، ويتارجح بين هذين الشعورين .

والذي يهمنا كثيراً ، ويساعدنا على دراسة شخصية أبي حمّو هو البحث عن أغراض شعره ، وذكر ميزته من هذه الناحية .

1) **الفخر والحماسة :**

يمتاز شعر أبي حمّو بالاعتدال والتوازن ، ويظهر ذلك خاصة في فخره ، فهو يعتمد غالباً على الواقع ، ولا يتجاوز الحدّ المقبول عادة في المبالغة .

والفخر ، عند أبي حمّو ، يدور حول ما قام به من أعمال بطوليةفي الميدان السياسي خاصة ، ولا يتعداه الى الميدان الأخلاقي الا فيما له علاقة بمنزلته الاجتماعية .

ومما يجدر بالملاحظة أن أبا حمّو ينظم الشعر كلما جاشت نفسه بالاحساسات العميقة والعواطف المؤثرة، فكان شعره سجلاّ للمواقف الحاسمة التي عاشها ، ولما كان يختلج في فؤاده من طموحفهو يقول مثلاً، لما شرع في حركته الموفقة لإحياء الدولة الزّيانية :

كم لي بميدان الوغى من محفل حالي يطول ومحْنتي لا تنقضي
لا بدّ من سوق النجوع مغربا حتى تكلّ متونها بالأحمل
وترى الفوارس دائرات بالعدى تسقي لواردها نقيع الحنظل
يا نجل عامر سر بنا واطو السرى ليلا لعل الدهر يدني منزلي
يا نجل عامر دارنا مع داركم قد عمرت من بعدنا بالحنظل (1)

وقد يتحدث عن حركته هذه ، فيذكر الوقائع التي خاضها مع أنصاره ، ويشيد بشجاعة الفرسان والأبطال،فيقول في قصيدته الميمية:

وضمر عناجيج على صهواتنا كرام سماح بالنفوس الكرائم
نطارد فيها الخيل بالخيل مثلها فكان على الأعداء كر الهزائم
حملنا عليهم حملة مضرية فولوا شرادا مثل جفل النعائم

---

(1) زهر البستان ، ورقة 8 و .

فولت سويد ثم خلت مجيرهـــا وشيخ حماها في الثرى أي جاثم
وكم خلفوا من بين بكر وبكرة وكم غادة ملتفـــة في الهدائم
وكم قبة طاحت وطاح أميرهـــا على الارض ما بين الصفا والوثائم
فحاز الثنا فيها سقير بن عامر كما حاز من قبل دياب بن غانم
وطاحت على وادي ملال هشائم من القوم صرعى للنسور القشاعم(1)

فهذا الشعر يحمل في طياته صدى المعركة التي نشبت بين بني عامر، أنصار أبي حمّـو، وسويد، أنصار بني مرين، أثناء حركة أبي حمّو الى تلمسان، وفيه يعرب عن شكره لشيخ بني عامر، ويثني عليه، ويصف جثث القتلى الملقاة في الميدان، ثم يعود إلى نفسه ويفتخر قائلاً:

نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهباً شمله دون ناظم
شددنا له أزراً وشدنا بنـــاءه باوثـق أركان وأقوى دعائـم
فصارت ملوك الأرض تأتي مطيعة إلى بابنـا تبغي التماس المـكارم
وجاءت لنا من كل أوب ووجهة تبايعنا طوعاً وفود العمائــــم
أنــــا الملك الزابي ولست بزابي ولكنني مفني الطغـاة الأعاظم
فقمنا بأمر الله في نصر دينـــه وفي كفّ ماقد أحدثوا من مظالم(2)

ويربط أبو حمّـو الدين بالسيـاسة في فخره، فهـو مؤيّـد من الله،

---

(1) بغية الرواد ج 2، ص 33 – 34، واسطة السلوك، ص 17.
(2) بغية الرواد ج 2، ص 36، واسطة السلوك، ص18–19.

ومكلف بنشر العدل والأمن في البلاد ، فلا يخشى الأعداء ، ولا يهاب جيوشهم ، لأنها لا تستطيع أن تتغلب على مشيئة الله.فتراه ، مثلاً ، يقول ، مخاطباً أحد وزراء بني مرين :

تخوض بحراً ولا تخشى عواقبه   وليس تسلك لج البحر بالنجب
عاندت ويحك من أعطاه خالقه   ومن سما ذكره في العلم والكتب
ومن يعارض بأمر الله معترضاً   يخسر ويصبح على بحر من التعب
من رام ادراكنا رام المحال ولا   ينجو من السيف من قد لج في الهرب[1]

ويرجع أكثر شعر أبي حمّو في الفخر والحماسة إلى السنوات الخمس الاولى من عهده ، وكانت فترة قوة ، أحرزت فيها الإمارة الزيانية على انتصارات كبرى ، وتمكّنت من طرد بني مرين من جميع أنحاء المغرب الأوسط ، فلا غرابة أن يكون مفعماً بالاعتزاز والتحدّي ، والتطاول على الأعداء .

وقد نظم أبو حمّو قصيدة بمناسبة إجارته لأحد الأمراء المرينيين يدعى محمد السبيّع ، فقال فيها مفتخراً :

فما بسوى العلياء همنا جلالة   إذا هام قوم بالحسان النواعم
بروق السيوف المشرفيات والقنا   أحب إلينا من بروق المباسم
وأما صهيل السابحات لدى الوغى   فأشجى لدينا من غناء الحمائم

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 157 .

فيرغب منـــا السلم كل محارب ويرهب منا الحرب كل مسالم (1)

ثم يلتفت إلى محمد السبيّع ،ويتحدث عنه قائلاً :

ويأوي إلينا المستجير ويلتجي ويحميه منـــا كل ليث ضبارم
ألم تر إذ جـــاء السبيّع قاصداً إلى بابنـــا يبغي التماس المكارم
وذلك لما أن جفـــاه صحابه وكل خليـل وده غير دائـم
ألا أيها الآتي لظل جنابنـــا نزلت برحب في عراض المكارم
وقوبلت منا بالذي أنت أهله وفاض عليك الجود فيض الغمائم
كذا دأبنا للقاصدين محلنـــا حمى وندى ينسى به جود حاتم (2)

وهكذا يتغلغل الشعر في حياة أبي حمّـو السياسية ، ويضفي عليها جوّاً أدبياً ، فتتّسم به ، بينما يجد الشعر مـادّة حيّـة يصوغها ، وهذا التفاعل ، بين الواقع التاريخي والأدب ، يكسب الشعر حيـوية وقوّة ، ويجلب انتباه القارىء واهتمامه.

وقد يصوغ أبو حمّـو شعره في قالب خيالي ورمزيّ ، مثلما فعل في قصيدته النونية ، وقد ذكر فيها شوقه لتلمسان أثناء غربته ، والحب المتبادل الذي كان يربط بينه وبين عاصمة ملكه، التي جسّمها ، فاظهرها

---

(1) بغية الرواد، ج 2 ، ص 93 : زهر البستان ، ورقة 58 ظ .
(2) نفسه ، ج 2 ، ص 94 : زهر البستان ، ورقة 59 و .

في صورة غادة حسناء ، وأجرى معها حواراً غزلياً شيِّقاً ولطيفاً ، ومما جاء في هذه القصيدة من الحوار ، قوله :

كتمت حبّي فافشى الدمع كتماني — وزاد شوقي على قيس وغيـــلان
إني فتنت بذات الخـال يا خـولي — وعذّبت بجفاهــا العاشق العاني
قالت وحقّ هواك اليوم ما نظرت — عيناك عيــني إلا ذبت من شاني
الحب من شيمتي والوجد معرفتي — والصبر نافلــتي يا آل زيّان
اني وحق حياة الحب ما اكتلحت — والله بعــدكم بالنوم أجفــاني
ولا شغفت بحسن غــير حسنكم — ولا أخذت عليكم في الهوى ثان(1)

وبعد أن اتضح أن الشاعــر يقصد الإشادة برسوخ حب الدولة الزيّانية في نفوس الرعايا ، نراه ينتقل إلى الفخر الصريح فيقول :

يا لائمي في هوى الغزلان لا تلمن — فما خلا من هواهم قلب إنسان
ولا جعلت بنـات الحي من شغلي — حتى شغفت بقـد البيض والزان
وقد ألفت من الهيجـــاء عاطلة — تشب يوم الوغى والحرب نـيران
وقد سقيت كؤوس الموت صافية — وقد حميت بحـد السيف أوطاني
وكم عمرت دياراً قل عامرهـــا — وقـد جعلت ديار الانس عمران
وقد أقمت رسوماً قل ناصرها — يوم الهيـــاج وكل الناس عاداني

---

(1) زهر البستان ، ورقة 59 ظ - 60 و .

حتى ظفرت بشيء كنت أطلبه فالحمد لله في سِرٍّ وإعلان (1)

ونرى هذه القريحة الشعريّة ترافق أبا حمّو حتى في نكباته ومحنه، فعندئذ يتذكّر أيام العزة والقوة ، وكأنه يسلّي نفسه بذكرياته ، ويدعوها الى التأسّي والصبر ؛ فمن قصيدته التي نظمها في منفاه بتيقورارين (أواخر سنة 773 هـ) قوله :

ولكم ظفرنا بالرضى من دهرنا وأتت لنا الدنيا بوقت مسعد
نجني المنى وبنو الزمان عبيدنا والسعد يدني ما لنا من مقصد (2)

ويذكر الظروف التي أدّت الى هزيمة جيشه ، وخديعة بعض أعوانه ، فيقول :

واصطفّت الجمعان واحتدم الوغى لكنها خبثت بسعي المرّد
حتى تفرّق جمعنا وتشتّتوا بسعاة كل مضلّل أو مفسد
فالبعض منهم قد أزى لعدوّنا والبعض فرّوا كالنعام الشرّد
نقضوا العهود وخلّفوني في الوغى بين الأعادي كالغريب المفرد
كفروا بأنعمنا وخانوا عهدنا وأتوا من الخذلان ما لم يعهد (3)

وهذان البيتان الاخيران يعبّران عن تعاسة الشاعر في الصحراء وشقائه،

---

(1) زهر البستان ، ورقة 60 و – 60 ظ .
(2) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 265 .
(3) نفسه ، ج 2 ص 266 – 267 .

فكأنها زفرتان تتصاعدان من صدره ، أو دمعتان تسيلان على خده . غير أنه سرعان ما يتغلب على حزنه ، ويستعيد جلده ، ويتابع فخره بالاشارة إلى موقفه عند فشل جيشه ، ومقاومته الاعداء بشجاعةواقدام، وينوّه ببطولة ابنه الشابّ وولي عهده أبي تاشفين . وكانّ هذه الذكرى قد قوّت عزيمته ، وإيمانه بنصرة الله وعونه ، فيتوجّه إلى الخالق ، طالباً منه أن يجمع شمله ويعيده إلى عزته وسؤدده ، ويخاطب نفسه بأبيات كلها رقة وإحساس ، وتفاؤل وتوكّل . وذلك بقوله :

يا رب كم أنستني في غربتي   يا رب كم فرجت كرب المكمد
يا رب فاجبر ما ترى من حالتي   يا رب واجبر قلب كل موحد
يا نفس لا تيئس وإن طال المدى   فالله يجمع شمل كل مبعد
ستعود أيام السرور طيبها   وتعود عن قرب ليالي الأسعد [1]

2) - **الرثاء** :

لم يكثر أبو حمّو من الرثاء ، ولم ينظم في هذا الغرض إلا إثر وفاة أبيه ، وكان شاعرنا يولي والده كثيراً من البر والعناية ، وقد تأثر تأثراً بالغاً لوفاته ، فلجأ إلى الشعر للتعبير على لوعته وتفجعه ، وللتخفيف من ألمه ، ولا يخلو رثاء أبي حمّو من رقة ، ومن عاطفة فيّاضة تنبىء عن صدق المشاعر وقوتها ، فتراه يتحدث عن أبيه ، ويتذكر الأيام الخالية ، التي قضاها بجانبه :

(1) بغية الرواد ، ج 2،ص 268 .

قد كان لي في الدنى أب يساعدني فصار تحت الثرى في لحده اكتنفا
مددت في ظل نعماه يدي زمناً ونلت من رفده في دهره التحفا
يا كابد الدهر في الثرى ليكسبني ويبتني لي في نيل العلى غرفا
يسره إن رآني سرت في ترف ويستزيد على الأعداء بي صلفا
وإن عراني ما أخشاه من دنف بكى ورقّ وأضحى يشتكي لهفا[1]

إننا نلمس، من خلال هذه الأبيات، حنان الابن وعطفه على أبيه، وانشغال باله بذكرى الوالد الراحل.

ويصف حزنه وبكاءه، ويطيل في ذلك، كأنه يرى في تلك الإطالة وسيلة للتعبير عن عمق عاطفته، وشدّة ألمه، فيقول:

فبكيت من أسف لذاك كما بكت حزناً عليه منازلي وربوعي
وجزعت من ألم الفراق ولم أكن يوم الكريهة في الوغى بجزوع
لم تنصف الأيام حر فراقه لكنه قد أنصفته دموعي
عجباً لأجفاني سخت بدموعها والقلب محترق بنار ضلوعي
هذي تجود وذا يشحّ بناره فعنيت بالممنوح والممنوع[2]

وبعد تعداد مناقب الفقيد وفضائله، كما جرت العادة عند الشعراء في مثل هذا الموقف، يعود أبو حمّو إلى ذكر تفجعه وألمه بقوله:

---

(1) زهر البستان، ورقة 84 ظ.
(2) بغية الرواد، ج 2، ص 105.

يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلداً يا فقد يوسف إن الصبر عنك عفا
ما مثـــل يوسف مفقود لفاقده ولا كموسى أخو فقد إذا وصفـا
أصيب بالمعضـل الأدمـى بوالده كفقد يوسف لكن حتف ذا جحفا
يا قبر يوسف لا تهدوك هاميـة من الغمام ولا زال الثرى رعفا(1)

ومما يزيد في رقة هذه الأبيات وعمق تأثيرها، ما جاء فيها من تكرار اسم الفقيـد ، يوسف ، وذكره في كل بيت ، وكذلك تكرار « فقـد » ومشتقاتها ، في الأبيات الثلاثة الأولى .

ثم يوجّـه الشاعر شكواه إلى الزمان ، وكأنه يعاتبـه على مـا أصابه من رزيئة ، فيقول :

أفجعتني يا زمان اليوم في خلدي ما أسرع الموت في الأحباب حين وفى
صارت مساكنهم تحت التراب وقد تمزق الدود ما قد كان مؤتلفـــا
الماء والنار مجموعاتـــ في كبدي فاعجب لضدين في قلب قد ائتلفا
نار تشب وأكباد تذوب بهـــا ويح المعذب بالجنسين يا لهفا (2)

حقاً ، إن هذا الشعر ينفذ إلى أعماق النفوس ، ويتغلغل في الاحشاء لما يمتاز به من سهولة وخفة ، ولما يحمله في طياته من زفرات وتلهّـف ، وشعور مرهف وتفجّـع .

---

(1) زهر البستان ، ورقة 84 ظ .
(2) نفسه ، ورقة 84 ظ ــ 85 و .

ولا شك أن القارىء يغض الطرف إذا عثر على أبيات أقل جودة ، وذلك أن الجواهر النفيسة تشفع لديه في الحجارة العادية ، وتنال عطفه ورضاه .

3 – **المواديات** :

تحتل المولديات مكانة هامة في شعر أبي حمّو الثاني ، وقد أورد منها صاحب « بغية الرواد » 11 قصيدة ، نظمها أبو حمّو بين سنتي (760و 771 ه) ، كما أشار المؤرخون لدولة بني زيان إلى اهتمامه بالاحتفال بليلة المولد الشريف ، شأنه في ذلك شان بني الأحمر بالاندلس ، وبني مرين بفاس ، وغيرهم من السلاطين [1] .

وكانت القصائد التي تنظم في هذه المناسبات ، كثيراً مـــا تطرق موضوعات مختلفة،اعتاد الشعراء أن يجعلوها مادة لقريضهم، كالاستهلال بذكر فضل شهر ربيع الأول ، أو فضل ليـلة المولد الشريف ، وقد يستهلّ الشاعر قصيدته بذكر الأحبّـة ، وما يعانيه من اشتياق وحنين ، ثم يبيّـن أن أحبته يقطنون بالبقاع المقدسة وأنه يود اللحاق بهم وزيارة قبر الرسول (صلعم) ، وقد يشير الشاعر إلى انهماكـه في حياة اللهو والملذّات ، وإلى ندمه على ما فاته من ذنوب ، وضرورة توبته وإقلاعه

---

(1) انظر ، مثـلا ، نفح الطيب للمقري ، ج9و، ص 215 – 218 ، وأزهار الرياض ، له أيضاً ، ج 1 ، ص 243 – 245 .

عن زخرف الحياة الدنيا ، ورَجائه لشفاعة الرسول (صلعم) يوم القيامة .

وبعد هذه المقدمة ، يأتي الموضوع الرئيسي ، وهو مدح الرسول ، وذكر معجزاته وفضائله ، والإشادة بفضل ليلة المولد الشريف .

ويتلو ذلك ، غالباً ، مدح السلطان ، وذكر مزاياه ونبله وكرمه وعدله ، وغير ذلك مما يدخل في باب مدح رجال السلطة .

وتنتهي المولديّات بالدعاء للسلطان ، وطلب المغفرة والرعاية من الخالق تعالى .

وقد تقيّد أبو حمّو بهذه التقاليد في أغلب مولديّاته ، فاستهلّها بذكر اشتياقه للأحبة ، وألمه للفراق ، كقوله :

أَلِفْتُ الضنى وألفت النحيبا   وشب الأسى في فؤادي لهيبا
وحقّ لنفسي أسى أن تذوبا   وللدمع من مقلتي أن يصوبا
وقد كنت بالوصل منكم قريبا   فأصبحت بالهجر منكم غريبا
جفاني الحبيب فسرّ الحسود   وأدنى البعيد وأقصى القريبا [1]

ويسهب شاعرنا غالباً في الاستهلال فيكثر من ذكر بكائه ، ونحول جسمه ، ويخاطب أحبّته ، فيعاتبهم على هجرهم وبعادهم ، ويتألّم لبينهم وفراقهم .

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 162 ؛ واسطة السلوك ، ص 167 .

وقد يكتسي هذا الموضوع طابعاً دينياً ، فيتحدّث أبو حمو عن أيام اللهو والصبا ، ويعترف بندمه عما سلف في حياته من المعاصي ، وبرجوعه إلى الله تعالى ، فينشد مثلاً :

تَهوينا الظّبا وألفنا الظّبى وكم من فؤاد إليها صبا
إلى أن بدا الشيب في مفرقي وأجريت من خيله أشهبا
فأيقظني الشيب من غفلتي ففي لمتي من حديثي نبا
فوا أسفي من ذنوب مضت تقضيتها في زمان الصبا (1)

وكثيراً ما يخاطب أبو حمّو حادي الابل ، المتوجّه نحو الشرق حيث الحرم الشريف ، ويطلب منه أن يبلغ سلامه إلى تلك الأراضي المحبوبة وإلى أهلها ، ويعرب عن رغبته في اللحاق بهم وزيارة البقاع المقدسة ، ويتضح عندئذ أن اشتياق الشاعر خاص بتلك الأراضي ، وأن قلبه مشغول بحب الرسول ، وإليك مثالاً عن ذلك من شعره :

ويا حادياً يحدو الركاب إليهم أنخ بربي نجد وسلم على طيّ
وأخبرهم أني أراعي ذمامهم فما لذمامي عندهم غير مرعيّ
فيا ليت شعري والديار قصيّة متى تسمح الأيام لي بلقا الحيّ
عسى الدهر يدنيني ويسمح باللقا فيشفي غليل القلب من ذلك الرّيّ (2)

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 137 .
(2) نفسه ، ج 2 ، ص 66 ؛ نظم الدر والعقيان ، مخطوط باريس رقم 1875، ورقة 60 و .

وبعد هذا يصل شاعرنا إلى لب الموضوع، فينتقل إلى مدح الرسول، صاحب الشفاعة، ويذكّرنا بما أتى به من معجزات أثبتت صحة نبوّته، ومن ذلك قوله:

بـــلاد مقدسة حلهـــا نبي الهدى المصطفى المُجْتَبَى
فشهر ربيع أتى برفيع نبي شفيع لمن أذنبـــا
نبي أتى رحمة للعبـــاد وأظهر للحق نوراً خبـا
ونيران فارس قد أخمدت فلله ذلك ما أعجبـــا
وكسرى تساقط إيوانـــه وذاق من الرعب كأس الظبا
وكلمت الوحش للمصطفى ونطق الذراع له أعجبـا
وحـنّ له الجذع مستوحشاً وكلّمـــه الظبي مستغربا
وشق له البدر عند التمام وردت له الشمس أن تغربا
وأسرى به ليلة الارتقـــا إلى قاب قوسين أو أقربا
وكم معجزات لخير الورى تجلّ عن الوصف أن تحسبا (1)

ويبدو أنّ أبا حمّو يختصر هـذا الموضوع في أغلب مولديّـاته، حتى أن بعض قصائده لا تشير إلى شيء من ذلك، كأنها لم تنظم بمناسبة المولد الشريف، والجدير بالملاحظة أن هذه القصائد نظمت في فترات خاصة من حياة أبي حمّـو السياسية وأن السلطان الزيّـاني انصرف بكليته الى التعبير عمّـا يشغل باله أو يهزّ نفسه، من فخر أو قلق أو شكوى،

---

(1) بغية الرواد، ج 2، ص 138 – 139.

وغير ذلك ، ففي القصيدة التي نظمها بمناسبة مولد (سنة 760 هـ) ، نراه يدلي بعجزه عن زيارة الأراضي المقدسة ويعتذر لذلك بما يقوم به من مهام سياسية ، فيقول .

سرت الابل لمّا ارتحلوا قلبي حملوا في ركبهم
طافوا بالبيت وقد وقفوا ودعوا إذ ذاك لربهم
وغدا المشتاق بزفرته في مغربه يبكي بدم
جسمي بتلمسان دنف والقلب رهين بالحرم
قد قيّدني ما قلّدني من أمر حكيم ذي حكم
ولاني أمير الخلق فلم أسطع سيراً من أجلهم (1)

فالشاعر يشير هنا الى قرب انتصابه على عرش أجداده،والى مواجهة المشاكل التي لا زالت تقف حجر عثرة أمام تحقيق أهدافه السياسية، ونجد نفس الفكرة في القصيدة التي أنشدها في حفلة مولد (سنة 768 هـ) ، وكان إذ ذاك يعاني من شدة الاضطرابات التي تلت هزيمته الكبرى أمام بجاية (8 ذي الحجة سنة 767 هـ) ، : فهو يقول :

في كل عام يسير الركب مرتحلاً وقد تقيدت عن فرضي الذي وجبا
لولا الخلافة شدتني قلائدها لم أقتنع بخيال أو بريح صبا (2)

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 43 ؛ واسطة السلوك ، ص 11 .
(2) نفسه ، ج 2 ، ص 188 ؛ واسطة السلوك ، ص 171 .

وكذلك في قصيدة مولده (سنة 770 هـ) ، نرى أبا حمّو يستعيض الاشادة بمعجزات الرسول وفضائله ، بشكوى قساوة الدهر ، وتأثره بما كان يواجهه من فتن وثورات في المناطق الشرقية ، فيقول :

لقد كنت والدهر لي مسعد فاغضبني ليت مـــا أغضبا
فمـــا باله اليوم محلولكا وما زلت أعهـــده مذهبا
فخان وأخنى وجورا جفى وظهر المجن لنـــا قلبا
فصرت أعاتبـــه اذ عتا فاسلمـــني بعدمـــا قربا
فلادر درك يا دهر قـــل أيرجع منك الذي قد نبا
فقـــال مجيبا ألست الذي على الرغم فرقت آل سبا
وأرزأتهم كل مـــا ملكوا وأضحت معاهدهم سبسبا
وأنت أخا الصبر مهلا اذا بساحك خطب الدنى طنبا
فمفتاحها الصبر ان ضيقت فصبراً فبالصبر يرجى الحبا
فبشراك موسى بنيل المنى بفضل الإله فما أقربا (1)

وهكذا ، فاعتناء أبي حمّو بإحياء ليالي المولد الشريف لا يمنعه من الالتفات إلى قضايا الساعة ، واغتنام الفرصة للتسكين من روع الأتباع والرعايا ، ومحـــاولة تقوية معنويات أنصاره وكسب ثقتهم ووفائهم لعرشه .

---

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص209 .

وأخيراً ينهي شاعرنا نظمه بخاتمة مالوفة ، تتضمن التوجّه الى الله لطلب مغفرته أو الى الرسول لطلب شفاعته ، ويزفّ له سلامه العاطر ، مثل قوله :

فيا سيدا قد حباه الاله على الخلق طرّاً بما قد حبا
ويا من سما قدره رفعـــة ويا من علا في العلى منصبا
يخصّك موسى بأزكى سلام يروق النفوس كنشر الكبا
ومسك فتيق وزهر أنيق بروض شريق حوته الربى[1].

(1) بغية الرواد ، ج 2 ، ص 139 .

الخـــاتمة

والآن ، وقد حاولنا تسليط بعض الأضواء على حياة أبي حمّـو الثاني السياسية ثم الأدبية ، نريد أن نعود الى رسم شخصيته كما نتبينها من كل ما سبق ، مع مراعاة مـا قد يكون طرأ عليها من تطوّر ، من جرّاء تأثير الوقائع السياسية والبيئة الاجتماعية .

لقد كان أبو حمّـو ذا همّـة عالية وطموح كبير ، لم يفتأ يسعى الى بلوغ مرامه في بسط نفوذه على أقطار المغرب الأوسط، ومقاومة الأخطار التي كانت تهدّد الدولة العبد الوادية ، وكان رجـــل سياسة وتدبير ، وتعقّـل وتبصّـر ، لا يقدم على الأعمال الا بعـــد روية وتفكير ، ولا يتأخّـر عن بذل الاموال والإقطاعات لكسب صداقة قبـائل الأعراب القويّـة ، وجعل حدٍّ للفِـتن والثورات ، أو مقاومـــة احتلال بني مرين لبلاده .

لقد استطاع أبو حمّـو الثاني أن يبعث الدولة الزّيانية بعد إندثارها، وأن يعيد لها مجدها وعزّتها ، رغم تقلّـب الأوضاع في شتى المناسبات ، وتظافر الأسباب لإزعاجـــه مراراً عن عاصمته وحمله على التغرّب

والتجوال في المناطق المقفرة النائية ، إلا أنه لم يستسلم لليأس ، وواجه صروف الدهر برباطة جاش وصبر وعزيمة .

وكان عهد أبي حمّو الثاني فترة حاسمة في تاريخ المغرب الأوسط ، تعرّضت فيها الدولة الزيّانيّة إلى أخطار جسيمة ، فجاس بنو مرين خلالها مراراً ، وحاولوا استضافتها الى مملكتهم فلم يوفقوا في شيء من ذلك ، لما كان يحدث في بلادهم من فتن تشغلهم عن تحقيق أمنيتهم وتمكين سلطتهم .

كما أن عرب زغبة ، من بني عامر وسويد وحصين وغيرهم شكّلوا عاملا رئيسياً لتطوّر الأوضاع السياسية والاجتماعية في المغرب الأوسط أثناء عهد أبي حمّو الثاني . فقاموا بدور هامّ في جميع الحوادث وانطلق منهم قوم لإثارة الفتن ، وإحداث منافس للسلطان الزيانيّ ، وانحاز آخرون إلى جانب أبي حمّو يعضّدون امارته ويحمون عرشه ، فكأنّ الأوضاع السياسية استحالت إلى صراع بين عرب زغبة حول امتلاك أراضي التلّ ، وتهافتهم عليها، وكانّ بني عبد الواد أصبحوا لا يلعبون الأدوار الرئيسيّة ، ولا يصلون إلى غرض من الأغراض إلاّ بما يحصلون عليه من نصرة القبائل العربيّة وتأييدها .

في هذه الظروف المضطربة ، تمكّن أبو حمّو من الحفاظ على عرش أجداده أكثر من ثلاثين سنة ، بفضل دهائه وحنكته ، وسعيه الحثيث إلى كسب الأتباع ، والتحالف مع الأنصار .

وكان أبو حمّـو رجلا ذكياً عاقلا ، ذا أدب وثقافة ، فشجّـع الحركة الفكرية ، وأكرم العلماء والشعراء ، وأحلّـهم منزلة سامية في بلاطه، فـكان عهده عهد ازدهار علمي وأدبي ، وتقدّم ثقافي .

وكان أيضاً رجل دين وتقوى ، وحلم وحياء ، وأخلاق كريمة باراً بوالديه ، محباً لأبنائه ، معتنياً بتربيتهم وتثقيفهم . محسناً إلى المعوزين، محترماً للأولياء والصلحـــاء ، مشجّـعاً للعلماء والطلبة، يحضر بنفسه للدروس الدينية ، ومجالس الوعظ والإرشاد ، فكانـ لذلك كله أثر محمود في البلاد ، وتدعيم للدين والقيم الأخلاقية في عصره .

غير أنّ أبا حمو اصطدم بأوضاع سياسية واجتماعية واقتصاديـــة خاصّـة ، جعلت المغرب الأوسط يعيش في فترة من أشدّ فتراته اضطراباً وغليانا ، وأقلّـها استقراراً وتوازنا ، مما كان له تأثير عميق في حياتـــه السياسية وتطور الامارة الزيانية أضف الى هذا أن تحقيق مطامح أبي حمّـو ، في التوسع من الجهة الشرقية كان يقتضي إنشاء جيش قوي ، والحصول على أتباع أوفياء ، وقادة مهرة مما لم يتوفّـر لأبي حمّـو الا في السنوات الأولى من عهده ، ولقد استقامت أمور دولته ما دام على رأس جيوشه الوزير الشجاع عبدالله بن مسلم الزردالي .

ولكن بعد وفاة هـــذا الأخير ، في أواخر سنة (765 هـ ، أخذت الأحوال تضطرب . وانتشرت الفوضى في الناحية الشرقية ، وعرف أبو حمّـو هزائم شديدة ، أضعفته بصفة محسوسة ، وجعلت بلاده تسير

بخطى حثيثة نحو الانحطاط والتأخّـر . ومما زاد في الطين بلة ، ما قام بين أبنائه من منافسة على الحكم وتهافت على المناصب الادارية العليـــا . ولمّـا تحولت تلك المنافسة الى صراع عنيف بـــين أبي حمّـو وابنه أبي تاشفين ، كان السلطان الزياني شيخا يناهز السبعين عاما،قد أبلته الشدائد والفتن ، وكدّرت صفو عيشه وأضعفت معنوياته . ولم يكن له آنذاك ، نفوذ واسع وأنصار أقوياء ، فاختـــلّ أمره وانهار ، ومُنِـيَ بالفشل والخسران ، وترك عرشه لابنه الأمير أبي تاشفين .

ولا شك أنّ أبا حمّو كان يتمتّـع بشعبية واسعة ، لما امتاز به من فضائل وخصال محمودة ، ولإنه حقّـق أمنية رعيته مدة ، فخلصها من الاحتلال المريني ، وضمن لها الأمن والرخاء والأزدهار .

ولذا فلم تمح الايام ذكراه ، ولم تفتأ الأجيـــال المتلاحقة تذكره وتوليه احترامها ومودّتها ، ولم يزل هذا السلطان الأديب يحتل الصدارة بين رجالات المغرب ، وشخصياتـــه البارزة ، ويعدّ مفخرة لبلاده ولقومه .

القسم الثالث

مختارات من آثار أبي حمو الثاني

الباب الأول

منتقيات من كتاب « واسطة السلوك »

1 -توصية ترشد إلى حفظ الجيوش والاجناد والامراء والقواد [1].

اعلم يا بني أن الجيش أنصار ، وبهم تستفتح الأمصار، فاحرز جيشك بمالك ، فهو أصلح لاحوالك ، ولا تقوّ عدوك بضعف أنصارك ، فيعودوا أعواناً عليك يوم إعسارك ، فبالجيش تنال المقاصد، وتستجلب الفوائد ، ويكبت العدو والمعاند ، والجيش أبهّة الخلافة ، وحصن منيع من المخافة ، وهم سيوف الإرهاب ، وحماة الطعان والضراب .

فمن كثرت أجناده ، عمرت بلاده ، وهابه أعداؤه وحساده ، ومن كثر جيشه ، قلّ خوفه وطاب عيشه ، ومن قلّت أنصاره،ضعف انتصاره ، ومن فرّط في جيشه ، سقط عن عرشه ، وأعان على نفسه اعداءه ، وشتت بالتضييع آراءه .

واعلم يا بني أن جيشك عزك ، وأنصارك حرزك،وهيبتك قوادك، وحرمتك [2] أجنادك ، وبجيشك تستقيم أحوالك ، وينفذ أمرك

---

(1) نفسه الباب الأول ، الفصل الرابع ص 12 15 .

(2) وفي مخطوط« واسطة السلوك» في المكتبة الوطنية بالجزائر: وحماتك

ومقالك ، فاستعمل قلوبهم بودادك ، يدينوا بجميل اعتقادك ، وأفض عليهم أياديك ، ليعمر بهم ناديك ، وأوف لهم بحقوقهم ، تأمن من عقوقهم .

يا بني ، إكرام الجيش إستعباد ، وإهانتهم استبعاد . واعلم ان افساد قلوبهم ، يوجب إظهار عيوبهم ، فلا تغضب كبيرهم ، ولا تحقر صغيرهم، ونوّه قوادهم ، وفضّل أنجادهم، وأعدل في أرزاقهم ، يتواطؤوا اليك باخلاقهم [1] ، ولا تضيع لأحد فعلته ،ولا تحقر لخديم خصلته ،ولا تنس له سبقيته ، ولا تفسد في سبقيته نيته،ولا تخلهم من إحسانك، وسايسهم سياسة على وفق زمانك ، وعليك بتفقّد أحوالهم ، والتفكّر في مصالحهم ومآلهم ، فانك ان حفظت أجنادك ،حفظت رعيتك وبلادك، وان اهملتهم خذلوك ، وان أعرضت عنهم ملّوك .

واعلم ، يا بني ، أن الملك بلا جيش ، كالأرض لا نبات لها والطائر لا ريش له ، والطائر لا ريش له يوشك أن يؤخذ لحينه .

يا بني،إياك والمخاطرة ، فانها غير محمودة إلافي طلب الملك والسلطان، فانها محمودة في هذا الشان ، لأن الملك اذا خاطر بنفسه في طلب سلطانه، واسترجاع بلاده وأوطانه ،حمدت مخاطرته في سره واعلانه، فانه إن نجح سعيه ، وأنتج رأيه ، نال غاية مطلوبه وبلغ نهاية مرغوبه ، وان

---

(1) واسطة السلوك : بأكنافهم (أي باجماعهم ،والأكناف،جمع كَنَف، وهو الجانب وكذلك الجناح) .

عاقه حلول منيته ، دون بلوغ أمنيته ، فله في ذلك أوضح عذر، وأجمل ذكر ، وأعظم فخر ، كما قال امرؤ القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انمـــا نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقد خاطرنا نحن في ذلـــك ، وسلكنا بحول الله أحسن المسالك ، وأوردنا العدى موارد المهالك . وذلك لما هاجتنا الحمية ، ودعتنا النفوس الأبية ، للانتصار لملكنا وسلطاننا ، واستخلاص بلادنا وأوطاننا ، وردّ دولتنا الى نصابها ، واستخلاصها من أيدي غصّابها . فطوينا المراحل ، وحثثنا الركائب والرواحل ، ورحلنا [1] مستعينين بالله سبحانه في كل سكنة وحركة ، مغترفين [2] من الله عز وجل كل يمن وبركة .

فكان ابتداء حركتنا السعيدة من تونس بالجد والاعتزام ، عاملين على مدينة تلمسان حضرة أسلافنا الكرام ، فارتحلنا من البلاد الإفريقية الى البلاد الجريدية ، وكان عدونا السلطان أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن ابن عبد الحق المريني بالبلاد القسنطينية ، فبادرنا من حيننا اليه ، برسم أن نشنّ الغارة عليه ، ولم يكن بيننا وبينه الا مرحلة ، وعصابتنـــا

---

(1) واسطة السلوك : وحللنا .
(2) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، وفي النسخة المطبوعة : معترفين .

السعيدة اليه مقبلة ، وعندما علم بإقبالنا ، ونجدة حماتنا وأبطالنا ، وافق ذلك أن وقع بينه وبين قبيله الشتات والشنآن ، وخشي الفضيحة في تلك الأوطان ، فترك بقسنطينة قائداً من قواده ، وحصة من أجناده ، وعاد راجعاً الى بلاده ، وكذلك فعل بميلة، [1] ترك فيها شرذمة قليلة،فقصدنا الى ميلة لننتهز فيهـــا الفرصة ، ونوقع بتلك الحصة ، فاستفتحناها من يومها ، فأخذنا الشرذمة وعفونا عن قومها .

ثم ارتحلنا إلى الزاب ، وفي صحبتنا جملة من الأعراب ، من وجوه عرب رياح ، المعروفين بالجلاد والكفاح ، وهنـاك وصل الينا عربنا بنو عامر ، ولاحت لنا الفتوحات والبشائر ، فبـادرنا حضرة ملكنا أجمل مبادرة ، وخاطرنا في ذلك أعظم مخـاطرة ، ويسّر الله لنا في الفتح أتمّ مياسرة ، ونزلنا ساحتها ورياح النصر على راياتنا خافقة ، ودلائل السعد تشهد مقدماتهـــا أن نتائجها صادقة ،فالفينا بها ابن سلطان مرين، فازلناهم [2] وساء صباح المنذرين ، ليخرجـوا عن بلادنا وميراث آبائنـا وأجدادنا ، فابوا إلا تمادياً في عنادنا ، فبرزوا الينا بظاهر مدينة تلمسان ، في عدّة تنيف [3] على ألفين من أنجـــاد الفرسان ، يقدمهم المهدي ابن

---

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ،وفي النسخة المطبوعة : بالمسيلة .

(2) هكذا في النسخة المطبوعة وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. ولعل الصواب أن يقال : فنازلناهم .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة : نيف .

السلطان أبي عنان ، فلما التقى الجمعان ، وشرعا في الضراب والطعان ، رأوا منا ما لا قبل لهم به ، ولا طاقة لمن هو أشد منهم قوة وأكثر جمعاً بحربه ، فأحجموا بعد الإقدام ، وتزلزلت منهم الأقدام، وانهزموا هنالك أيّ انهزام ، حتى كان البطل الشجاع من أبطالنـا يقـدم منهم عشرة من أمام ، طعناً بالرمح وضرباً بالحسام ، كما قيل :

وأمر كانَّ المصطلـــين بجرّه وإن لم تكن نار وقوف على الجمر
صبرنا له حتى تناهى وإنمـــا تفرَّج أيام الكريهـــة بالصبر

فنكصوا على أعقابهم ، وسيوفنا متحكّـمة في رقابهم ، ولجؤوا الى الفرار ، وأيقنوا بالتباب والثبار ، وحـــلّ بهم الخسار والبوار ، ولم ينفعهم التحصُّـن بالأسوار ، من شبا سمر الرماح وظبى بيض الشفار ، وتركناهم إلى غد ذلك اليوم ، إبقاء منا على القوم ، ولم تكتحل أجفانهم تلك الليلة بنوم .

فلما كان من الغد افتتحناها عنوة عليهم ، وخلصنا من جميـع جهاتنا اليهم ، وذلك غرة ربيـع الأول من سنة ستين وسبعمائة ، فتشفّـعوا الينا ، بالفقهاء والصلحاء في الابقاء عليهم، وخلوصهم الى غربهم بجميـع ما لديهم، فأسعفناهم بما طلبوا من العفو ، وسوغناهم من الأمان العذب والصفو . وذلك هو المعهود منا ومن أسلافنا الكرام . وخيّـرناهم بـــين الانصراف والمقام ، فمن انصرف فمبلّـغ المراد والمرام ، ومن أقام للخدمة المرضيـة فمرعيّ الذمام ، ومحمول على ساعد البر والاكرام ، كما قيل :

جنحوا الى السلم التي سلموا بها | لما انبرى ليث الشرى ليصولا
وتوهّموا شهب النجوم أسنّة | وتخيّلوا لمع البروق تصولا
حملوا شروطا لم تكن محمولة | لكنّ من خاف استخفّ ثقيلا

فاستقللنا بحضرتنا العليّة ، والبلاد كلها مرينيّة ، واستولينا على ما كان بتلمسان ، واستقرّ لنا بها الملك والسلطان ، ومرين محدّقة بنا من كل جهة ومكان ، ليس بيننا وبينهم الا مسيرة يوم أو نصف يوم ، ومن شدة الحزم لم تكتحل أجفاننا بنوم ، فلم نزل ، يا بني ، نستعمل معهم المحاولات والمكايد ، وننصب لهم الاشراك بكل المراصد ، الى أن استخلصنا جميع [1] بلادنا من أيديهم وجازيناهم على تعدّيهم ، وذلك بين محاولة وقهر ، ومساعدة دهر ، وتأييد ونصر ، ولقد دخلناها عليهم دون كثير جيش ولا مال ، فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الآمال ، الى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم ، وأحوالنا أحسن من أحوالهم ، وأعدادنا أكثر من أعدادهم ، واجنادنا أوفر من أجنادهم ، وبلادنا امهد من بلادهم ، وقد شرحنا جلية أمرنا ، وجل قصد خبرنا ، في قصيدتنا الميمية التي سارت بذكرها الركبان ، وافتخرنا ببلاغتها على جملة الأقران ، وهي: [2]

---

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة : أكثر .

(2) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، عوض ما سبق ابتداء من «وقد شرحنا» بما يلي: وقد شرحنا ذلك في قصيدة نظمناها ومقتضى الحال ضمناها ، وهي قولنا .

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم لما شحطتها من هبوب الرواكم.

2 ـ مراتب أعوان السلطان[1] .

اعلم يا بني ، أنه ينبغي لك أن تُنْـزِل الناس منازلهم ، وترتّبهم في مراتبهم[2] بحسب أقدارهم عندك ومناصبهم ، وذلك على طبقات :

الطبقة الأولى : اعلم يا بني انه ينبغي لك أن يكون أول داخل عليك مزوارك الموصوف ، وعونك المعروف ، ليعرّفك من ببابك ، من وزرائك وحجّابك ، وأرباب دولتك وكتّابك ، فأول من يدخل عليك كاتبك ووزيرك ، اذ بهما صلاحك وتدبيرك ، وذلك أهمّ ما تبتدىء به من أمرك ، لتلقي الى الكاتب ما أردت من سرّك ، ويعرض عليك الكتب الواردة من أقطارك وأمصارك ، وذلك بحضور وزيرك، المخصوص برأيك وتدبيرك ، ليجمع معك على الرأي والتدبير ، والجليل من أخبارك والحقير ، فان الوزير إذا كان على ما وصفناه ، بالصفة التي ذكرناه ، فلا ينبغي لك أن تخفي عليه[3] شيئاً من أمرك، بل تشاركه في حلوك ومرّك ، وقلّك وكثرك .

---

(1) كتاب واسطة السلوك ، الباب الثاني ، القسم الثاني ، من قاعدة السياسة ص 81 ـ 85 (وعنوان النص من إنشائنا) .

(2) في مراتبهم : ساقط في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة عنه .

ويجب على هذا الكاتب الذي تقدمت صفته ، ووصفت نباهته ومعرفته ، أن يكون درباً بقراءة الكتب وسردها ، متحرزاً عند قراءتها من ألفاظ شائنة ، أو وصمة في ضمن الكتاب كامنة ، فانه ربما يجد فيها ما يكون في حق الجلساء وصماً ، وقبيحاً يستحق في الوقت كتماً ، فيتجاوز الكاتب ذلك [1] اللفظ المشين ، ولا يبينه في ذلك الحين ، ثم ينتظر به خلوه [2] اليك ، فيعيد قراءته عليك ، ويظهر لك ما أخفاه عن الجلساء ، فيعدُّ ذلك من قوة [3] فطنته والذكاء .

فاذا فرغ الكاتب من عرض كتبك ، وتلقى بالتوقيع ما أردته من أربك ، خرج لكتابة ما أمرته به ، ويجري على أحسن مذهبه ، وتبقى أنت مع وزيرك تتفاوض فيما يصلح الدولة ، ويعود عليها بالمنفعة على التفصيل والجملة . يا بني : ينبغي [4] أن يكون مجلسك مع وزيرك مجلس هيبة ووقار ، وتعظيم وإكبار ، وتفاوض في الأخبار ، وأخذ في المصالح ، وتدبير يعود بالمناجع والمنائح ، لا مجلس هتار ومزاح ، ولا مباسطة اطراح ، فانه إذا مازحت وزيرك ، أسقط المزاح عنده هيبتك وتوقيرك ، لأنه ربما تكلمت بما تزول به عند الوزير هيبتك ، وربما أيضاً تكلم الوزير بما تستخفّ به عقله فتسقط رتبته عندك .

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة : عن ذلك .
(2) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . وفي النسخة المطبوعة : خلوة .
(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . من جملة .
(4) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : ينبغي لك .



مئذنة جامع المنصورية

وبعد دخول وزيرك وكاتبك ، وقضائك ما أردته من مآربك، يدخل صاحب أشغالك ، الموكل بجبايات أموالك ،يعرفك بما تجمل وتصيّر من مالك ، وبمحاسبات عمّالك ، وبجميع أشغالك المختصّة بدارك ، في إيرادك وإصدارك ، مثل أصناف الحلي وأنواع الثياب،وغير ذلك من الأثاث والأسباب ، وليتلقّى منك [1] ما تأمره به ، جارياً على غرضك في تقلّبه ، مما يستأنف في يومه من الأشغال ، وما يليق به من الأعمال .

ثم يدخل صاحب شرطتك ، وحاكم بلد حضرتك ، ليخبرك بما تزايد [2] في ليلتك ، حتى لا يخفى عليك شيء من أحوال رعيتك ، وبلدك مع ضبط مملكتك ، فتسأله عن القليل والكثير ، والجليل من الأمر والحقير ، لئلا يتوصل أهل العناية ، للرعية بالمضرة والاذاية، [3] . ولا يقع من الحاكم جورٌ في البلد ، ولا ظلم لأحد ، فإنه إذا علم الحاكم وغيره من أهل العنايات ، وأهل الدعارات [4] والجنايات ، بأن الملك لا

---

(1) منك : ساقط في النسخة المطبوعة .

(2) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : تزيد .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : بمضرة ولا إذاية .

(4) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : الدعاوى .

يغيب عنه شيء من أحوال بلده ، يمتنع كل منهم من استطالة يده، فيقف الناس عند حدودهم ، ويأمنون من الجور في صدورهم وورودهم . وفي هذا ابقاء لنظام الملك ، وأمان للرعية من الهلك .

يا بني ، وينبغي لك ان تتخيّر صاحب الشرطة ، لأنها عند الملوك أكبر خطة ، فتقدم لها من يكون صاحب ديانة ، وعفة وصيانة ، وهمة ومكانة وسياسة ، ورأي وفراسة .

ثم تدعو للدخول عليك الأقرب فالأقرب من خاصتك وخلصائك ، وأشياخ قبيلك وأوليائك، فتشاركهم فيما ظهر لك من آرائك ، وتأخذ معهم فيما عليهم وما لهم ، وما يصلح أحوالك وأحوالهم . ثم تدعو الى الدخول أشياخ القبائل، المقرّبين لخدمتك ، وقوّاد أجنادك المستمسكين بحرمتك . (1)

يا بني ، وينبغي لك أيضاً أن تتخذ طعاماً تجعله عادة مستمرّة، لتستجلب به القلوب للمسرّة ، لإطعام من ذكرناه لك من القبائل ، ومن يرد عليك من قبل الملوك بالرسائل. فإذا فرغ الناس من أكل الطعام بين يديك ، قمت الى منزلك ، ودخلت اليه وانصرف الناس ما عدا الحاشية ، ثم تعود إلى مجلسك ثانية .

---

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر .وفي النسخة المطبوعة: المتمسكين بخدمتك .

ثم تدعو للجلوس وزيرك وخاصتك ، وتتخذ ذلك سيرة وعادة[1] فيكون مجلسك [2] معهم مجلس وقار وهيبة، وسكون ورغبة، يصغون لحديثك وأخبارك، غير مذيعين لأسرارك، يعلمون [3] بما انطوت عليه سرائر خدامك وجميع أجنادك ، فتفاوضهم فيما يصلح أمور دولتك ، ويعود بالمنفعة عليك وعلى رعيتك، ويكون جلوسك معهم بقدر ما يقتضيه [4] الحال ، ويحتمله المجلس من المقال .

ثم تدخل إلى دارك ، لراحتك واستقرارك ، وتصرف الخاصة اثر ذلك ، ويتربص الوزير قليلاً هنالك ، لقضاء حاجة من لا يبلغ اليك ، ولا يجد من سبيل ولا مسلك للوقوف بين يديك ، فاذا استوفى مآرب الناس على اختلاف الأنواع والاجناس، رتّب الحراس على باب [5] القصر، وقد استوفى ما قبله من الأمر .

---

(1) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : سيرتك وعادتك .

(2) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : جلوسك .

(3) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : يعلمونك .

(4) هكذا في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر. وفي النسخة المطبوعة : بما يقتضيه .

(5) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : أبواب .

فاذا أذّن العصر خرجت للصلاة ، وترتّبت للجلوس في أحسن الهيئات ، ثم تجلس بمجلسك المعتاد ، وتأذن لوزيرك بالدخول دون الخاصة والقواد ، فتفاوضه فيما يختصّ بك وما تراه من مطلبك ، ثم تامر بدخول الخاصة بعد ذلك، تسلك معهم في الحديث أحسن المسالك، وتاخذ معهم فيما يظفر بالاعداء ، ويصلح على حماتك الاولياء ، وكيف تتوصّل لأخذ بلاد العدو المعاند ، والمناوىء الحاسد بوجوه المقاصد .

وليكن جلوسك ذلك متصلاً بالعشاء الآخرة، تقطع ذلك في المفاوضة والمذاكرة ، ثم تدخل لدارك، وقد نلت من التدبير معهم غاية اختيارك، فتخرج الخاصة إلى ديارهم ، ويبقى الوزير قليلاً بعد انتشارهم ، يرتّب لك الحراس للبيات ، وتغلق [1] بعد الترتيب على البيات ، ويأخذ الحراس بالطواف على القصر من خارجه ، ويحصن بالتحفظ على جميع مناهجه .

وعلى هذا تكون عادتك في سائر الأيام، على الاستمرار والدوام ، ما عدا يوم الجمعة ، فانه يوم [2] راحة وسعة ، فيه تستعد للصلاة ، ويعتمد الخدّام لركوبك في أحسن الهيئات ، فتتطيّب وتتعطّر ، وتتنظّف وتتطهر ، وتخرج في أحسن اللباس نوعاً ، على الترتيب

---

(1) لا يتضح معنى هذه الجملة على هذه الصورة ، ولعل هنا تنقص كلمة: الابواب .

(2) يوم : ساقط في النسخة المطبوعة .

المطلوب شرعاً ، وبعد فراغك من الصلاة تجلس بمجلسك للشكايات ، وتأخذ في قضاء الحاجات ، والفصل بين الخصماء ، والانتقام من الظلمة الغشماء [1] ، فتقمع الظالم وتقهره ، وتحمي المظلوم وتنصره ، وتحضر الفقهاء في مجلسك حين الفصل بين الناس لازالة ما يقع في [2] الاحكام من الالتباس ، وهذا المجلس في هذا اليوم المذكور ، مخصوص بالرعية وبالجمهور ، فيه تتفقّد الضعفاء والمساكين، والأرامل والأيتام المحتاجين، وتنظر في أهل سجوناتك ، وفيما أخذ المأخوذ من رعياتك ، فتسرّح من ترى تسريحه ، وتردّ إلى السجن من لم يرد الله أن يريحه ، وتواسي ذوي الحاجات ، ومن يستحقّ المواساة ، فمن كان له حق من الحقوق الشرعية، رددت أمره الى قاضي البلد ليفصل في القضية ، ومن كان في غير ذلك من الأحكام ، التي لا يقضي فيها أحد سوى الامام ، فصلته بما يقتضي نظرك السديد ، ورأيك المصيب الرشيد ..

(1) وفي النسخة المطبوعة : الغشاء .

(2) وفي النسخة المطبوعة : الى .

3 - موقف السلطان من العدو [1]

اعلم ، يا بني أن العدو بالنسبة الى الملك على ثلاثة أقسام: عدو أقوى منك ، وعدو مساو لك ، وعدو أضعف منك .

القسم الاول :

أن يكون العدو أقوى منك، فيجب عليك أن تدافعه بنفسك، لأنه ليس من دهائك ولا من كيسك . فمن رأيك الذي يندفع بـــه عدوك ، ويرتفع به سموك ، أن تكون لك جواسيس في بلاد العدو ، يرتقبون أفعاله على البعد والدنو ، وعيون تلاحظ أعماله ، وتشاهد أحواله ، لا يفارقونه ليلاً ولا نهاراً ، يسألون عن أحوال العدو سراً وجهاراً، فكلما رام هذا العدو خداعاً، وأظهر فيك أطماعاً، جاءت الجواسيس بأخباره، وما أكنّه في بلاده من أسراره ، فتأخذ في قوام مدافعته اما بحيلتك

(1) هذا النص لا يوجد في النسخة المطبوعة ، وقد أخذناه من مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، ورقة 56 ظ الى 66 ظ.وهذا النص هو الباب الثاني من القسم الرابع من قاعدة السياسة :وهي القاعدة الثانية من قواعد الملك .

ومصانعتك وذلك بقدر حزمك وجدك، وسياستك وكيدك ، وذلك بأن تكتب كتاباً إلى عدوك ووزرائه وخاصته وأهل رأيه ، تعدهم باعطاء الأموال، والزيادة الكثيرة من الأفضال، وتعاملهم بالتعطّف ، والسياسة والتلطّف ، حتى تخدمهم بمالك ، وتستميل قلوبهم بنوالك ، فان صحت معاملتك باعطاء الأموال ، ونلت بغيتك في كل الأحوال ، سكّنت عدوك من غلوه ، وحططته من سموّه .

وإذا لم تقدر على دفع عدوك بما ذكرناه ، ولا تجد في خاصته من يقبل ما توثره به بل يرده ويأباه ، فتتحيل بوجوه الحيل ، لتنال من عدوك غاية الأمل، وتأخذ بضروب من المخادعات، لا بالاعطاء ولا بالمصانعات ، فرب حيلة، أنفع من قبيلة، ومنها أن تزوّر كتباً بعدها أجوبة، وتزخرفها بزخارف معجبة، وتبدع في تزويرها، وتحسن في تصويرها، كأنها وردت عليك من خاصة عدوك ، وتظهر بها غاية سلوك ، فتقرأها على خاصتك الأقربين ، وتعلمهم أن خاصة عدوك في جنابك محبين ، وأن خواص العدو قد كتبوا اليك ، بما يعود بالمنفعة عليك، فتشيع ذلك بين خواصك الأخيار، وتناولها أهل الحضرة الحضار، وفي هذه مكرمة عجيبة، وحكمة غريبة ، وذلك أنه إذا سمع الصديق بذلك قرّت عينه باستماعه ، وانشرح صدره لإيذاعه ، وإذا سمعه غير المحب في جنابك تغيّر في نفسه، وأشرب في حسّه ، فاما أن يحمله البغض على أن يكتب للعدو ، ويعرفه بما عليه خاصته من البغي والعتو، فيقع الفساد بين العدو وخاصته، إذا اطلع على هذا الكتاب المفضي لآفته ، واما أن يخاف المبغض على نفسه فلا يكتب

إلى الأعداء ، فينقطع عنك هذا الداء ، وفي هـــذا لك مصلحة في كلا الوجهين ، وقطع المادة من الجهتين .

فإذا قرأت هذه الكتب المزوّرة على خاصتك ، لما أردت ودبرت من مصلحتك ، أمرت بالجواب عليها ، بما يناسبها وينضاف إليها ، منها أن تضمن لهم ما طلبوه في كتبهم ، وتعيّـن لهم ما عيّنوه من مطلبهم ، ويضبطها كاتبك بأمارات كأنها حق عند السامع ، وصدق وتقرع المسامع ، وتبعث هذه الكتب صحبة من يبلغها الى العدو .

وكيفية ذلك أن يكون لك ، يا بني ، قريب من دخلتك، تستخلصه لنفسك برسم أسرارك وخدمتك ، تجعله يكتب للعدو ويريه الخدمة والنصيحة له، ليبلغه ذلك العدو أمله ، ويأخذ معـــه على ذلك المواثيق والعهود ، ويبقى على حاله المعهود، وينبغي ألاّ يطّـلع أحد على سره ، ويكتم عليه سريرة أمره ، فإذا فعل ذلك فلا بدّ أن يكتب للعدو في أوقات معلومة ، وحركة مخدومة ، حتى يأنس العدو لذلك ، ويرى أنه سلك في خدمته أحسن المسالك، ويكون هذا القريب منك يكتب للعدو بامور لا تضرك . فإذا استمر الأمر بينهما على هذا الحال، واتصلت بينهما الأرسال ، فتكون أنت من هذا تطّـلع على أسرار العدو من قبل الكتب الواصلة منه الى القريب ، بما يحدث عند العدو من أمر غريب ، ويكون أيضاً حامل الكتاب وهو السفير، يطلعك على أحوال العدو القليل منها والكثير ، حتى كأنك تشاهد حاله عياناً ، ويخبرك مشافهةً وامتحاناً .

فحينئذ تعطي الكتب التي زوّرتها جوابات، لمن يوصلها الى خاصة العدو بما سطرت فيه من الأمارات، ثم تامر ذلك القريب أن يكتب كتـــابا للعدو ويعرّفه بأنك قد كتبت لخاصته، كما استمرّ معك على عادته، ويصف له صفة رجالك المصروفين بكتبك، المعدودين لأربك، وتقـــدم بهذا الكتاب على العدو رجلاً، وتأمره أن يصل قبل حامل الكتب المزوّرة، سيما في وقوع الشتات، بـــين العدو وخاصته الثقات، فإنه لا بد أن يتخيّل العدو بسببها، ويجد في نفسه شيئاً يحمله على طلبهـــا، فيأخذ العدو على خاصته الحنق، ويزيد في الاكتئاب والرهق، فيعلمهم بما صدر من أحوالهم، وما أتوه من قبيح أفعالهم، فتدعوهم الضرورة إلى الأيمان، والشحناء بين الخاصة والسلطان، فيكون العدو حذراً من خداعهم، والخاصة غير آمنين لسوء اصطناعهم، هذا إن لم يعجل بعقوبتهم في الحال، وان عجّل بعقوبتهم بلغت فيهم الآمال، وهذه مكيدة موذنـــة للعدو بالفساد، وقاضية عليه بالشتات والنكاد.

وبذلك، يا بني، احتلنا على موسى بن إبراهيم اليرنيـاني [1] حين أراد أبو سالم أن يستوزره ويقرّبه، كما كان عند أبيه، وقد كان من وزراء أبيه المعتبرين، وممن يسوس هو وأبوه [2] دولة بني مرين، وكان

(1) عن موسى بن ابراهيم اليرنيـاني، انظر: الاستقصاء، ج 3، ص 137 – 138.

(2) هو إبراهيم بن عيسى اليرنياني، انظر: الاستقصاء، ج 3، ص 101، 105 – 106، 114.

من أهل الدهاء، مشتهراً بالحيل والآراء ، ولم يبق من وزراء أبي الحسن أدهى منه في أمر، ولا أكفى منه في مكر،فاتفق أن أرسل أبو سالم أرسالاً برسم المكيدة الينا ، والخديعة علينا ، فرددنا مكيدتهم عليهم ، وقلبنا خديعتهم اليهم .

وكيفية ذلك أنا استعملنا عليهم كتباً مزوّرة على لسان الأمير عبد الحليم ابن أخي أبي الحسن ، وسلكنا فيها كل مسلك حسن، فضمناها أن موسى بن إبراهيم المذكور ممن دان بطاعته ، وانخرط في سلك جماعته ، وأنه تحدث في [1]... مع أبي سالم والاحتيال عليه ، وانه تحالف مع عبد الحليم وركن إليه ، واستعملنا أرسالا أشعنا أنهم أتوا من عند عبد الحليم ...[2] وهي التي زوّرناها، واسْتَعْمَلْنا الحيلة بها ودبرناها ، فعرفنا بذلك أرسال أبي سالم الذين كانوا عندنا ، وأحضرناهم في خفية حتى سمعوا نص الكتاب ، فعادت قلوبهم لهذا السبب متغيّرة ، وأشعنا الخبر بذلك وسلكنا في ذلك أحسن المسالك ، فلما انفصلوا ووصلوا إلى مرسلهم أبي سالم ، أعلموه بما سمعوه ، وما من نص الكتب علموه ، فلما سمع أبو سالم ما ذكره أرساله ، فسدت معه لهذا الخبر حاله، وتسبب في أخذ موسى بن إبراهيم المذكور والقبض عليه ، فأخذه بعد أن تسبّب إليه ، فنكل به وحبسه ، ووبخه ونكسه ، ففرّ ولده محمد السبيع بن

---

(1) هنا بياض في الأصل .

(2) بياض في الأصل .

موسى إلى عبد الحليم لما قبض أبو سالم على أبيه ، وتشتت شمل جميعهم بما تحب النفس وتشتهيه ، وما زال السبيع يكتب إلينا رغبة في خدمتنا، ويعترف أنه متمسك بحبل ذمتنا، وانه راغب في الدخول في طاعتنا ، والانخراط في سلك جماعتنا،وقد قدم لنا قصيدة قبل أن يقدم علينـــا ، يتملّق فيها لدينا، فأجبناه بهذه القصيدة ، وهي :

تذكرت أطلال الربوع الطواسم   وما قد مضى منعهدها المتقادم[1]

فتأمل ، يا بني ، هذه المكيدة ، واعتبر هذه الحركة ، يا بني ، واذا رأيت عدوك الذي هو أقوى أراد التحرك عليك ، والمبادرة اليك ، وكان قليل السياسة ، مع كثرة جيشه وماله ، وأمداده وأبطاله، فيرجى لك الظفر به والنصر عليه ، وذلك لعدم سياسته وسوء تدبـــيره في فعله ، كما اتفق لنا في ابتداء أمرنا مع الحسن بن عمر الفودودي [2] حين استقلاله بمملكة المغرب ، وتقديمه محجوراً لنيل المطلب .

وكيفية ذلك أنا لما دخلنا تلمسان على بني مرين [3] تحدث مع الأشياخ المعتبرين ، وقال : يا بني مرين ، ما ترون في بني عبد الواد ،

---

(1) انظر باقي القصيدة فيما يلي من مختارات شعر أبي حمو الثاني .
(2) عن الحسن بن عمر الفودودي ، انظر : الاستقصاء ج 4 ، ص 3 – 5 ، 7 – 8،32 – 33 .
(3) عن الحوادث التي سيشير اليها أبو حمو في هذا الصدد ، انظر ، فيما قبل ، ص 93 – 94 .

وكيف أخرجوا اخوانكم من البـــلاد ، فاضطربت آراءهم وأحوالهم، فاجمعوا رأيهم أن يبعثوا ستة آلاف فارس ، من حماتهم الشوارس ، دون من انضاف اليهم من الحشود ، وما أعدوه من الجنود ، وأقبلوا بعدد وافر ، وجيش متكاثر، فلما قربوا من البلاد ، وتهيّؤوا بما جاؤوا به من الأمداد ، وفي هذه الفترة التي كانت بين أخذ تلمسان ، ومجيء بني مرين الى هذه الأوطان، أرسلنا الجواسيس إلى المغرب لنتعرّف الاخبار، ونقف على الصحيح من الجد أو الاقتصار ، فأتتنا الجواسيس بأنهم في أوائل البلاد ، في غاية العزم والاشتداد ، فلما تحقق عندنا إتيانهم لهذه الأوطان ، وأنهم عاملون على تلمســـان ، استخرنا الله في الخروج الى ملاقاتهم ، والعمل على الضرب في صدورهم وساقاتهم ، فخرجنا بالأهل والولد ، والأثاث والعدد ، وحماتنا الانجاد ، وقبيلتنا بني عبد الواد ، وقصدنا إليهم ، عاجلين عليهم ، إلى أن قربوا من وادي الزيتون ، بمـــا جاؤوا به من الحشد والزبون ، فعندما رأونا إلى قتالهم مبادرين ، وعلى ملاقاتهم مثابرين ، وطبولنا تزأر عليهم ، وخيلنا تحمحم إليهم، وشارفت خيولهم خيولنا ، وعاين قبيلهم قبيلنا ، تأخروا عن وادي الزيتون ، خائفين من ملاقاة المنون ، مقهقرين ، على الأعقاب ناكصين ، فاضربنا عن رأي الملاقاة ، وذلك أنه كان بقية جيشنا في البلاد، مفترقين في الملال والوهاد ، وإن وقوفنا في الوقت في صدورهم ، تخويفـــاً لهم في وردهم وصدورهم ، بحال ما بعثنا أثقالنا ، وصرفنا أولادنا وأموالنا ، وبقينـا منفردين في الحماة الأنجاد ، وأجوادنا بني عبد الواد ، وقدمنا الخيرة في

الدخول إلى الصحراء ، ورأيناه من أحسن الآراء ، وقصدنا متوجهين إلى أعرابنا بني عامر ، بما معنا من الأهل والولد والدخائر ، وتركنا لهم تلمسان خالية ، لنمكن بهم مرة ثانية .

فلما سمع بنو مرين دخولنا إلى الصحراء،ودخلوا تلمسان واستبشروا بالاستيلاء ، ولم يعلموا أن ذلك منا خدعه،لنستاصل أصل العدو وفرعه، فدخلوا البلاد في يومهم ، ورأوا ذلك من جدّهم وعزمهم ، ولم يروا أنهم تورطوا في المهالك ، وسلكوا في مبادرتهم شر المسالك ، فاقتضى نظرنا أن نبعث إليهم من يتجسّس عليهم بالجهات الوجديّة ، ويعرفنا بما هم عليه بالكليّة، فلما سمع بنو مرين أن الطريق قطعت عنهم المعقل ، [1] علموا أنهم رموا بالداء المعضل ، فعمدوا إلى ألفي فارس أو يزيدون ،من حماتهم الذين بهم يقتدون، وطاروا برسم المعقل بظاهر وجدة، وأظهروا في أنفسهم غاية النجدة ، فعندما التقى الفريقان في القتال ، وقتل قائدهم ابن مَاسَاي ، وأدركوا أن ما صنعوه ليس الرأي،فانهزموا هزيمة شنيعة، وقتلوا قتلة ذريعة ، فتداخل بنو مرين من الرعب والطيش ، لمّا لم يعد إليهم إلا القليل من الجيش ، وبات كل واحد يقلب كفيه ، ويحسب كل صيحة عليه،وأتيناهم من حيث لم يحتسبوا ،وحاق بهم سوء ما اكتسبوا ،

---

(1) في هذه الجملة بعض الغموض وذلك أن المؤلف أخر اسم ان لاجل السجع وعوضه بالمفعول به (الطريق) ، والمعنى فلما سمع بنو مرين أن المعقل قطعت عنهم الطريق .

وخيّب الله أمنياتهم ، ببغيهم وفساد نياتهم ، وطفقوا يريدون الحيلة في سبب النجاة، وكيف يخلصون إلى غربهم وتلك غنيمتهم المرتجاة، فعقدوا لأحدهم البيعة ، وخرجوا معه بعد أن عقدوا عقد الصلح على أنفسهم بالمهادنة ، والموالاة بيننا وبينهم بالمحاسنة ، وعاهدونا بعهد وثيق وعقد متين ، ألاّ مفاتنة بيننا وبينهم إلى يوم الدين ، وأن يسرحوا من بأيديهم من بني عبد الواد ، ويستقرّ كل منا في بلاد الآباء والأجداد ، وخرجوا في ليلهم ، مبادرين لغربهم برحلهم ورجلهم ، ولم يكن عندنا علم حتى هربوا إلى أوطانهم الى أن قربوا من وادي ملوية ، واتصلوا بأول بلادهم المنجية ، وذلك خوفاً من سيوفنا ، وهرباً من زحوفنا ، ولما استقروا ببلادهم نقضوا ما عهدوا ، وأخلفوا ما وعدوا ، فأوقع الله بينهم الشتات والشحناء ، والعداوة والبغضاء ، حتى صار بعضهم يقتل بعضاً ، ثم عدنا تلمسان ، وكان من أمرنا ما كان .

ثم تبيّن لنا أنهم عهدوا ثم نكثوا ، وحلفوا ثم حنثوا ، وكذبوا بما حدثوا ، وكم بدعة أحدثوا، فلما جاملناهم ولم يجاملوا ، عاملناهم بما عملوا ، فانعطفنا على من كان منهم في بلادنا الشرقية،مثل مليانة والمدية ، فاستولى عليها والدنا المرحوم، وعمل فيهم سيفنا المحطوم ، فوجّه إلينا منهم أربع مائة فارس مصفّدين في الأغلال ، ليذوقوا العذاب والنكال ، وسيقوا في أسوإ حال وطبولنا تزأر عليهم أسداً ، وقد كان الأولى قتل هؤلاء الأعداء ، فمنهم كان الظلم والعداء ، لكن أبقينا عليهم ليكونوا عوضاً عن من في أيديهم ، ورأينا أن نعاقبهم بهذا الأمر المشبه لقوله تعالى : « وإن

عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » .

يا بني ، وإن كان لك معقل تلجأ إليـه ، لكنك لا ترجح التعويل عليه ، وترى ان قالت الحكمـــاء أن كل محصور مقهور ، وحاله سائر مشهور ، فينبغي لك حينئذ أن تحصّـن معقلك الذي أعددته لحصرك ، وتلجأ إليه في مهم أمرك ، وتضع به أثقالك ، وأموالك ، وأثاث جيشك وأولادك وحماتك ورجالك ، ثم تتسع لعدوك عـن البلاد بمـا عندك من الأجناد ، خارجاً عن طريقة ذلك ، راكباً المعطشات والمهالك ، قاصداً لبلاد العدو ، لتسكنه من الغلو ، وتصده من العتو .

وذلك أن العـدو إذا قصد بلادك ، وأراد قهرك ونـكادك ، فإنـه يأتيك بجميع أحشاده وأنصاره وأمداده وقواده ، ويترك بلاده خاليـة من الحماة ، ومعرضة للآفات ، فتقصدها أنت لفرصة تنتهزها أو وقيعة تنتجزها ، فتفعل ذلك في بلاده ، لتقابل ما أفسد من بلادك ، وفي ذلك مسفة على العدو القاصد ، لما يلحق بلاده من المفاسد ، فإنه إذا سمع العدو أنك قد أوقعت في بلاده الشتات ، وشننت عليـــه الغارات ، مرضت نفسه لذلك ، وأيقن أنه واقع في المهالك ، وساءت ظنون أتباعه من القبائل والعساكر ، وانقلب سرورهم إلى تغيير الخاطر ، لما مسّـهم من تشتيت بلادهم ، والخوف على أهليهـم وأولادهم ، فيصيرون إليـه لا عليه [1] ،

(1) كذا في الأصل .

ومتأخرين عنه وإن كانوا بين يديه ، فيرجع العدو ناكصاً على أعقابه خاسراً في مجيئه وذهابه ، وهذا كان حالنا مع عدونا أبي سالم ، حين رأينا أنه إلى بلادنا قادم .

وكيفية ذلك ، يا بني ، أن أبا سالم كان له قواد بالجزائر ،يكتبون له في الباطن والظاهر ، يطلبون منه الانتصار، لما ضيّق عليهم والدنا الحصار [1] ، ويعرفونه بالزور ، ويسهلون عليه الأمور ، بضعف بني عبد الواد ، وقلة مالهم في البلاد ، ويقبحون له المحاسن ، ويحسّنون له القبائح في المواطن ، ولم تزل كتبهم تتواتر عليه، وتصل في كل يوم إليه، إلى أن أخذته العزة والنجدة ودعته الثورة ، وهاجته الحمية ، وحط النفس على الحركة إلى البلاد الشرقية ، فجمع الأجناد الوافرة، والأعداد المتكاثرة، ولم يترك بالمغرب خيلاً ولا رجالاً ، ولا شاباً ولا كهلاً ، والرماة المترجلة من المغرب ، ليرجف بها ويرهب ، ولينال بذلك غاية المطلب ، ولم يزل يستعمل المحال بالمسير ، إلى أن وصل أطراف البلاد في الزمن اليسير ، وعندما تحققنا إتيانه، وأنه قد نقض عهوده وأيمانه ، وأنه قاصد للبلاد ، وأنه لا يصده عنها صاد ، أخذنا في الترجيح بين الخروج إلى الصحراء ، أو ملاقاته في هذه الأنحاء ، ثم نظرنا إلى بلاده قد خلت من الأجناد ، ولم يبق بها أحد إلا القواد ، فاقتضى نظرنا أن

---

(1) راجع ، فيما يخص الحوادث التي يشير إليها هنا أبو حمّو إلى ما جاء فيما قبل ، ص 98 – 99 .

نخرج من تلمسان ، ونقصد إلى بلاده بمن معنـــا من الحماة والفرسان ، فوجهنا إلى والدنا بالبلاد الشرقية ، فالتحق بنا بمن معـــه من الجيوش العبد الوادية ، وخرجنـا إلى الصحراء نخويهـا على بني مرين ، ونحن في الحقيقة إلى بلادهم قاصدين .

ولما توغل أبو سالم في البلاد، وظن أنه بلغ غاية المراد، واستقرّ بدار تلمسان ، وأنه تأثّـل له فيها الملك والسلطان ، قصدنا بلاده فالفيناهـــا خالية من الحماة ، وطعمة للغارات ، فأتينا على حصونها نخرب ونهدم ، ونحرق وندمدم ، ونسلب ونسلم ، إلى أن ملأنا الأحقاب بالأسلاب ، والسعات بالأمتعة والأسباب ، وهدمنـا القلوع والحصون ، وأذقنـا من تعرض إلينا كاس المنون ، وأبو سالم يظن أنه قد ظفر بتلمسان ، وملك هذه الأوطان ، فبينما هو بالفتح سار،منتظراً لما يرد عليه من الأخبار ، إذ كتب إليه أهل بلاده بالاعسار ، يطلبون منه الانتصار ، ويعرفونه بما لقوا من البوار ، وأنه إذا لم يبادر البلاد ، استولت عليهـــا بنو عبد الواد ، فعندما سمع أبو سالم بأخبارنا ، وما دهم بلاده من حماتنا وأنصارنا، طاش لبه فرقاً ، وصارت دعته قلقاً ، وعلم أنه مخذول ، وعقده محلول، وحده مفلول ، ولم تنفعه أحشاده، ولا حماتـــه ولاأُجناده، وكاد جيشه يكون عليه ألباً ، لما ملئت قلوبهم رعباً ، فلم يقتض نظره إلا تقديم حفيد أبي تاشفين المتامن بتقديمه قلوب بني مرين ، ويثير الفتنة بهذا الوطن بمن يترك معه من المفسدين ، فلم يقم أبو سالم في البلاد إلا ثلاثة أيام ، بعدما

أراد أن يصيّرها دار مقام ، طريداً من مخافة سيوفنـــا شريداً ، ولم يرجع إليه عقله ، حتى اتصل بفاس هو وأهله ، وعدنا إلى بلادنا سالمين ، وبما نلناه من الأعداء غانمين .

ولما سمع بنـــا حفيد أبي تاشفين أخذ في الهرب ، فجددنا في أثره الطلب ، فنجا بنفسه ، ولم يفلت إلا برأسه ، ثم بعث إلينـــا أبو سالم بالمصالحة والمحاسنة ، والموالاة والمهادنة ، ولم يزل يعرف لنا هذه الفعال ، ويدركه من حركتنا الاذهال ، وقد كانت مصالحته لنا على رغم أنفـه ، ولم يزل يجاملنا إلى أن لحق بحتفه ، وهذا باب من السياسة ، ونكتة من الرياسة ، ونبذة من الحزم ، أدت إلى غنم .

يا بني ، وان كان العدو صاحب حزم ، ووحيد عزم ، وترى أنك لا تقدر على ملاقاته ، ولا قبل لك بجيوشه ولا ساقاته ، وهو مواز لك في الدهاء ، والسياسة والآراء ، ولم يقدم على بلادك بأجناده ، حتى حصّن معاقل بلاده ، فينبغي أن تخرج عن صوبه وطريقه إلى أن ينزل معقلك ، ويهم بتضييقك ، فإذا نزل معقلك فتحرّك عليه ، وآت بجيشك قاصداً إليه ، فما يمكن عدوك المذكور ، إلا تزحزحه عن معقلك المشهور ، وقصده إلى ملاقاتك بمن معه من الجمهور . فاذا رحل العدو عن ذلك المعقل اشتد أهله وانتعشوا ، وأنسوا بالفترة بعدما استوحشوا ، ووقعت الرجفة في جيش العدو ، وسكن من ذلك الغلو ، فاذا صمم العدو للقائك قاصدا ، ورحل إليك مواجها جاهدا ، فترحّل مرحلة من أمامه ، تحل بها عقدة

اعتزامه، فلا يزال دأبك كذلك، ترصده في وجوه المسالك، كلما دنا منك العدو وتعرفت مكانه وأينه ، فجعلت مسافة بينك وبينه ، لا يقـــدر فيها على التوصل إليك ، ولا أن يقاتلك ويهجم عليك ، فيضطرب العدو في أحواله،ويضعف في ترحاله،فلا يقدر على العودة الى الحصار،فيتوقّف بـين الاقدام والفرار ، وتضعف حينئذ حركته ، وتنكسر شوكته وتقل نجدته ، وينكره جيشه ، وينخفض عرشه ، فما يرى أرجـح من الرجوع إلى بلاده ، ليريح نفسه وجملة أجناده .

يا بني ، فان لم يرحل العدو عـــن معقلك الذي نزله ، ولم يرد الا نكايتك حين قدمت له ، فينبغي لك أن تنجز من خيلك وحماتـك ، وأهل نُصْرَتِـك وكفاتك ، وتغير على أطراف محلته ، ولا تترك من أتباعه من يتحرك في حيلته ، فيكره مقامه ويجنح الى رحلته ،فلا يزل ذلك دأبك مساء وصباحا ، حتى تضيق عليه المسالك قتـــالاً وكفاحاً ، فتمنع عنه القوافل ، وترصد فرسانه في المخـــادع والمخاتل ، حتى يصير محصوراً بعد أن كان حاصراً ، ومقهوراً بعـد أن كان قاهراً ، فتضيق حاله حينئذ بأجنادك ، وتقل قوتهم فيضعف عن استبداده، ولا يتحصل بجواده ، فتشتت عليه الأجناد ، وتختلف عليه آراء القواد ، وتضعف نجدة الاحشاد ، فيرحل عن المعقل بغير اختياره ، ويود أنه لم يخرج من داره ، فان وجدت فيه فرصة فانتهزهـــا ، وان تيسرت لك عدة فانتجزهـــا .

يا بني ، وإن كان العدو حين أتى مصمما الى معقلك ، قاصداً الى

محلتك ومنزلك ، تابعاً لك ليلاً ونهاراً ،عاملا عليك سراً وجهاراً، وكان العدو مثلك في الدهاء ، ونظيرك في الحزم والآراء ، ينبغي لك أن تظفر به وإن كنت مطلوباً ، فتغلبه وإن ظنك مغلوباً ، فان المطلوب يغلب الطالب حتما ، ويستولي عليه رغما ، لأن الفرض أن التابع أكثر جيشاً وأثقالا ، وأكثر حركة وانتقـــالا ، وفي الجيش الكبير القوي والضعيف ، والثقيل والخفيف ، والطالب أبداً على اختياره ، والمطلوب لا يهتم إلا بفراره ، والانثناء لأخذ ثاره ، وهو أقوى جلداً وصبراً ، فلا يأمن الطالب منه ، لا سيما في المواضع المعطشات ، والمهامه المدهشات ، فإنه لا يأمن من الطالب أن ينثني عليه ، فيهلكه فيلقي امتحانه .

وكذلك اتفق لأبي الحسن المريني ، [1] وكيفية ذلك أن أبا الحسن لما أخذ تلمسان واستطار صيته في جميع البلدان والأوطان ، تاقت نفسه لأخذ البلاد الافريقية ، وأن يقطع ذكر خلافة التوحيد ، وأن يعم أمره القريب والبعيد ، فاستعمل حركته التي كانت آخر حركاته ، وأعظم معركاته ، وأعدّ لها الأعداد وحشد لها الأحشاد ، وأمدّ لها الأمداد، وقاد أهل المغرب باسره ،واستظهر بأمواله وقوته ووفره ، عاملاً على أن لا يترك بالبلاد المشرقية إلا من يدين بطاعته ، ويدخل تحت إيالته وفي سمط جماعته ، وهو على اعتزامه يظن ألاّ راية تعلو رايته، ولا خلافـــة

(1) راجع ، فيما يخص الحوادث المشار إليها هنا ، ما جاء فيما قبل ص 23 ـ 25 .

إلا خلافته ، وذلك لما استولى عليه من البلاد ، وما تحت إيالته من الحماة والأجناد . فخرج من حضرته فاس الى مدينة تلمسان، وقد طبق الأرض بما حشد من الفرسان ، ثم استخلف ولده أبا عنان ، وجعل له النظر على جميع البلدان ، واستوثق بولده في البلاد ، ورأى أن ذلـــك من الحزم والاشتداد ، ولم يدر أن القدر سائقه لحينه ، ومزعجه من مكمن أمنه ، إلى أماكن حصره وسجنه . فلم يزل يستعمل الركاب ، ويرحل المضارب والقباب ، ويقطع الأرض طولا وعرضا ، ويخوضها رفعاً وخفضاً ، إلى أن بلغ بجاية ، فاستولى عليها وبلغ منها الغاية ، فاستفتحها من غير طعان ولا ضراب ، بل باذاعة الصيت والارهاب .

ثم إخرج صاحبها إلى محلته ، وأدخل عامله إلى البلد في ليلتـــه، ثم ارتحل إلى قسنطينة يريد حصارها ، لما ظهر له من تحصينهـــا وشدة أنصارها ، فلم يلبث إلا ثلاثة أيام ، وخدمه أهلهـــا على الأمان التام ، فاخرج من كان بها من أهل التوحيد ، وأدخل عامله اليها على حسب ما يريد ، بعد احتوائه منها على الطارف والتليد ، ثم تمادى الى بلد العناب ، فخدمه أهلها من غير ضراب ، ثم دخله العجب المؤذن بالهلاك ، المفضي بصاحبه الى الانتهاك. ثم قصد تونس لا يصده عنها صاد، ولا يرد لقوته راد ، وقد أعجب من أعداده المتكاثرة، المديدة الوافرة ، فعزم على ملاقاته الأمير أبو حفص عمر ابن أبي يحيى ، وأراد صده عن تونس لو ساعده القدر وكان من أهل الدنيا ، فقتله أحد قواد أبي الحسن ، وخمدت بموته شحناء المحن ، وعندما أوتي أبو الحسن برأسه عظم في أعين أناسه ،

وأيقنوا بالتمهيد في البلاد، وأنهم أعفوا أثر التوحيد وبلغوا غاية المراد . ثم استقبل تونس والبلاد ترتج لسلطانه ، وتبتهج بإتيانه ، وقد أجمع على طاعته أهل تلك البلاد ، ورغب في امتثال أمره جميع العباد ، فدخل تونس بجيش يضيق عنه المتسع ، ويذل له الممتنع ، ولا يخالفه المتبع، فاظهر بها صيتاً عظيماً وملكاً عتيداً أزال بذلك زي أهل التوحيد ويأبى الله الا ما يريد ، فخدمته البلاد الافريقية ، وتلتها البلادالجريدية، ففرق عماله فى البلاد ، وبعث إليها بالحصص والقواد ، وأتته القَبَائل والأعراب ، وانقادت لخدمته الصعاب والصلاب ، ثم انه حمله حال الاعجاب ، على أن ياخذ المراهين من أولئك الأعراب ، وأن يغيّر عليهم عاداتهم ، وأظهر أموراً أفضت به إلى معاداتهم.فعندما علم العرب بذلك انسلوا من حضرته انسلال الطل،وصاروا له أعداء أسرع من فيء الظل، فاخذته الأنفة من فرارهم، وسولت له نفسه في أخذهم وانتهارهم، ولم يعلم أنه كالباحث على حتفه بظلفه . والجادع مارن أنفه بكفه .

ولما استحقر العرب واستقلّهم ، وأراد أن يأخذهم ويستذلهم ، فاستعمل حركته من تونس عاملاً عليهم ، ومنتهضاً اليهم ، ليقطع آثارهم من البلاد الافريقية ، ولا يترك بها من بني كعب بقية ، فخرج في طلبهم مبادراً ، وعلى غزوهم مثابراً ، ولم يزل في أثرهم طالباً ، وفي استئصاهم راغباً ، وهم مع ذلك يظهرون الفرار بين يديه ، ويطلبون انتناء الوثبة عليه ، قد دخلوا أمامه الى الصحراء يستجذبونه حيث ضعفت له جملة النصر ، وعندما أجهد في أثرهم أجناده ، وأتعب جيشه وقوّاده ،

حتى سئمت جيوشه من الصبر ، وأيقن أعداؤه فيها بالظفر ، فعندما عاينوا فرصتهم فيه ، أثنوا أعنّتهم عليه حيث لا ينفعه تلافيه ، فكانت ساعة حينه ، فانهزمت جيوشه الوافرة ، وانخذلت أمداده المتكاثرة ، فتلافى القيروان ، منفرداً مع أفلال من الفرسان ، واستولت العرب على أمواله ، وأثاثه وجملة أثقاله ، ولم ينفعه عزمه ، لما انتقض حزمه ،وذلك من سوء التدبير ، واحتقار العدو الحقير ، فلو كان يقظان ما احتقر عدوّه ، حتى سكن علوّه ؛ فكانت هزيمته تضرب بها الأمثال ، وبسببها آل ملكه للزوال ، فلا تخش يا بني ، من عدوّك وإن كان قوياً .

القسم الثاني :

أن يكون العدو أضعف منك ، وكان ذا رأي وحزم ، وانتهاض وعزم ، وله معاقل حصينة ، وأماكن أمينة ، ينحصر فيها ويمتنع ، ويأمن فيها وينقطع ، فلا يقدر قائد من قوّادك عليه ، ولا أنت إذا قصدت بنفسك اليه ، امّا بتحصنه بمعاقله الحصينة ، واما لركوبك المعطشات التي يبلغ بها مينه ، فينبغي حينئذ أن تغزوه مرّتين في السنة ، ولا تغفل في يقظة ولا سِنة ، وذلك في زمن الصيف والخريف ، وحين تستوي الخيرات من بلاده من كل تالد وطريف ، فتستعدّ له الاستعداد التام ، وتنهض له بالجدّ والاعتزام ، فتدخل الى بلاده ، فتأكل زرعهم في أوان حصاده ، وثماره في إبان جنائها ، وتزلزلها في جميع انحائها ، حتى تضيّق عليه كل التضييق ، وتخرج الرعية من طاعته بالتشتيت

والتفريق ، لعدم دفاعه عنهم ، وإمكان جيشك منهم ، ولخراب بلاده ، وقلة جيشه وأعداده ، فيضعف بعجزه عن الخروج الى المعطشات،ولقلة صبره على المدهشات ، فيسامه جيشه ، ويزداد كربه ووحشه ، وينكره خاصته والأقربون ، ويعودون عليه بالزبون ، ولا يمتثل أحد من أتباعه أمره ، ولا يوافقه فيما جهر به وأسرّه ؛ فحينئذ تقصد إلى حصونه وبلاده ، لقلّة أعداده وضعف أجناده ، فتأخذ منها الأقرب فالأقرب ، وهذا مما لا يتم به المطلب ، فكلما أخذت من حصون عدوّك ، زاد في قوّتك وعلوّك ، واستعنت عليه بما أخذته من حصونه ، وذلك زائد على ضعفه وهونه ، فتستولي على مجابيها وأموالها ، وحماة البلاد ورجالها ، فتضيّق عليه بانواع التضييق ،وتحاصره محاصرة القوي المطيق لأنك استعنت ببلاده على بلاده ، وبمدده على أمداده ؛ ثم تأخذ في البناء والتضييق عليه ، بكل وجه ترى أنك تصل به اليه ، فتبني على كل برج من بروج معقله برجين ، لم تفتر عنه طرفة عين ؛ ثم تشحن الأبراج بالرماة والرجال ، والآلات التي يحتاج للقتال ؛ ثم تدير بمعقله الحفائر ، والمخادع التي تليق بالمحاصر ، وتستعمل الدرقات ، والأنفاط والمنجنيقات ، وتستأصل الرمي على ذلك المعقل في كل الأوقات ، فبالضرورة تأخذه عنوة . وتغلب عليه سطوة ، ويسلم لك المعقل بالاضطرار ، لشدة ما يلقى أهله من الحصار .

أن يكون العدو مساوياً لك في جيشك وبلادك ، وحزمك وجلادك ، وكفاءتك وسياستك ، ونجابتك ورياستك ، فينبغي لك إذا رأيته موازياً لك في الدهاء ، وأحواله جارية معك على السواء ،أن تحاوله بالمصالحة والمهادنة ، والموالاة والمحاسنة ، فتكون مصالحتك له من جملة المكائد ، ومن الدهاء الذي يبلّغ للمقاصد ، لأن مصالحة العدو متى تظفر به مكيدة ، وتلك سياسة وكيدة ، وإن كانت عند الناس مذمومة ، وصفتها بالغدر موسومة ، فهي عند الملوك محمودة ، وآثارها مشهورة مشهودة ، ومع ذلك لا تأمن عدوك في مهادنة ، ولا في موالاة ولا محاسنة .

وقد اتفق لنا ذلك مع السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن ، حين وجهنا إليه للأندلس بكل فعل حسن ، وكيفيته أن أهل المغرب لما أرغمناهم بالخروج من بلادنا، وانتزعنامن أيديهم إرث آبائنا وأجدادنا، وعاهدناهم على قطع المفاتنات ، وصالحناهم على الموالاة والمحاسنة ، لم تزد نفوسهم الا شحذا ، ولا حركاتهم إلا أذى ، ثم اتفقوا على نقض العهود ، وتمادوا على حقد الآباء والجدود، ألا نعقد معهم صلحا الا نقضوه، ولا نوليهم صلحا إلا رفضوه، ولانوافقهم على الكف عن شيء الاتعرضوه ؛ إلى أن تبيّن لنا ان غاية مطلوبهم الفتن، وأن التردّد اليهم من المحن، وان أظهرت ظواهرهم الموالاة ، فإنما حشوها الحقد والنكايات ، وعندما تواتّر شرهم ، وتبيّن

غدرهم وقلّ خيرهم ، أخذناهم بالمحاولات ، فلم تنفع فيهم في كل الحالات ، ومتى أردنا تسكينا ومهادا ، أبدلوه هرجا ونكادا . فاقتضى رأينـــا السديد السالم ، أن نبعث للأندلس لأبي سالم ، لنثير عليهـــم الفتنة ، ونذيقهم بخروجه أليم المحنة ، ليشتغل بعضهم ببعض،بموجب ما أسلفوه من نقض وبغض ، فعندما وصلت أرسالنا لأبي سالم تحضه على الجواز ، وتعلمه أن أوان الفرصة قد آن للانتهاز ، وأن يكون جوازه الى بلادنا، لنمدّه بحماتنا وأنجادنا ، على عهد لازم ، وأمر بالمهادنة قائم ، وأن يبادر في حينه ذلك، وأن يسلكه في ذلك أحسن المسالك . فلما وصلت أرسالنا بالكتب اليه ، وصلوا بغرناطة قادمين عليه ، أعمل الحيلة في خروجه في الحال ، واحتال غاية الاحتيال [1] وخاف أن يشعر به،فيصد عن مطلبه، وكان هنالك بعض قبيلنا الخلصاء ، وحماتنا النصحاء ، فوجهنا اليهم في محاولته ليجوزوه إلينا ، ويقدموه علينا ، فلم يجدوا لخروجه سبيلا ، وتعذر عليهم بسبب البحر لما رأوا في ذلك تطويلا ، .فاقتضى نظرهم السديد ، ورأيهم المصيب الرشيد ، أن يتوجّهوا به الى الفنش الطاغية ، ورأوا ذلك أقرب الى المغرب من الجواز به الى هـــذه الناحية ، فأنا شوقناه الى مغربه ، وأُرِيناه بما ندبناه غاية مطلبـــه ، وحضضناهم على الامتنان بدار ملك أسلافه، ومبادرة المغرب قبل تلافه، فجوّزه الطاغية حين وصل إليه في غراب البحر ، فأنزله بظاهر أصيلا ومنها تعين له

---

(1) قارن بين ما يلي وبين ما جاء في كتاب الاستقصاء، ج 4 ص 7 – 8 ، حول خروج أبي سالم من الأندلس .

بارق النصر والظفر ، فاستقلّ من عامه بالخلافة ، ورقي مرقى الإنافة ، وحلّ بحضرته وداره،على حكم اختياره ، ومن هناك اجتاز الى المغرب، وبلغ غاية الأماني والمطلب ، فتحصل على ايدينا بدار لمكه وسلطانه ، واستولى على جميع بلاده وأوطانه،فراسلنا بالمحاولات والمصالحة،والمهادنة والمناصحة ، وكان ذلك منه خداعاً ومكراً ، ودهاء وغدراً ، ومع ما أظهر من موالاته ، ومناصحته ومصافاته ، لم نزل نحذر من مكائده ، ونتقي سوء مناكده ، وقد كتب لنا بخط يده على ختمة من القرآن العظيم ، بعهد وثيق وعقد سليم مستقيم ، وجعل كتاب الله حكما بينا وبينه أن تكون بيننا المجاملة في المعاملات والموالاة والمهادنة ، والمصافاة والمحاسنة،وأن لا يتبدل عن الحال التي وقع عليها العقد،وكتب على ظهر المصحف العهد .

فلما استقل بسلطانه ، أول شيء أبداه بخذلانه ، أن نقض العهود ، وحلّ العقود، وحشد الاحشاد ،وأمد الأمداد، وقصد الى بلادنا ، عاملا على قتالنا ، ولم يراع العهود والايمان، ولا ما خطه من عهده على مصحف القرآن ، فكان من إتيانه ما كان ، وما اتفق له في دخوله الى تلمسان، كما قدمناه آنفا في غير هذا المكان ، فعلى هذا يا بني، لا تأمن عدوك في حال، لا في المصالحة ولا في القتال .

واعلم ، يا بني ، أن المصالحة بين الملوك مكيدة ، وهي عين المحاولة الوكيدة ، والحركة الشديدة ، فلتكن لعدوك يقظان ، وفي محاولته دهقانا .

يا بني ، أكثر لعدوك الهدايا ، وفيض على أرساله جزيل العطايا ، وآنسه ووآله ، وأكرمه وصافه ، وأظهر له الوداد ،وأبنْ له الاعتقاد، ووال خاصته بالاكرام، وعاملهم بجزيل الإنعام ، وأظهر للعدو الشفوف عليك في الحال ، حتى يظن أنك تخافه ، وأنه ظفر منك بالآمال ، وأنك تهاديه لأجل المخاف ، وتواليه على وجه الاستعطاف ، وكذلك تكاتب خاصة عدوك ، الذين يوصلون الهدايا ، ليعلموك إذا رجعوا ما هو عليه وما فعل في بلاده ، وما أحدث من زيادة في أجناده، وما درّك من الجيش في عامه ، وما أحدث من الحوادث في مدة مقامه ، فتفعل أنت ما يقابل ذلك ، وتزيد أضعافاً على ما هنالك ، من حيث لا يكون للعدو بك شعور ، ولا يعرف ذلك عند الخاصة ولا الجمهور .

والعمل في ذلك ، يا بني ، أن لا تظهر زيادة بحضرتك ، ولا تفشي ذلك في امرتك ، بل تفعل ذلك في البلاد التي لا تلي العدد وهي منه بعيدة ، وذلك إذا فعلته من وجوه المكيدة ، فلا تزال في زمان المهادنة تدرّك الفرسان والأجناد ، وتستعدّ لعدوك أتم الاستعداد ، وليكن اشتغالك بتوفير العدة ، وآلات الحرب التي تكون بها النجدة والشدة ، وكل ذلك بحيث لاشعور للعدو ، ولا يعلم وجه تسببه ، لأن العدو يكون آمناً من عناياتك ، لأجل مهادنتك ومصالحتك ، وعاملاً على أحوالك التي تفعلها في أقصى بلادك ، وعن تدريكك وجملة أجنادك ، لأنه يراك آخذاً في مناصحته ، متمسكاً بمهادنته ومصالحته ، موافقاً بجميع أغراضه

واختياره ، مؤثراً له على خاصته وأخياره ، وتلك مكيدة أردتهـــا ، وخديعة حسنة دبرتها .

وفي أثناء هذا كله ، على عقد الأمر وحله، تكون عادتك ضم جيشك للأعياد ، تجمعهم من سائر البلاد ، وتحض قوادك والأجنـاد ، يعيّـدون لعيدك ، ويمتثلون أمرك في وعدك ووعيدك . يا بني ، في الأعياد تكون هداياك لعدوك ، وفيهـــا تظهر إقامتك وسموك ، لتتعرف أحواله في أعياده ، وما يزداد في أجنـاده وقواده ، يعلمونك إذا رجعوا إليك ، حتى لا يخفى شيء من حاله عليك ، حـــتى يأنس العدو بذلك ، ويرى أنك جريت معه على أحسن المسالك ، فيأمن العدو من غوائلك ، لحسن محاولتك وتراسلك .

فإذا تحققت ، يا بني ، أن جيشك أكثر من جيش عدوك ، وأنجادك أكثر من أنجاده ، ومددك أوفر من أمداده ، ورأيت فرصة فانتهزها ، واقتحم عليها وانتجزها ، فإذا فعلت ذلك على حين غفلة، فيرجى لك الظفر به من أول وهـــلة ، لأجل افتراق جيش عدوك في البلاد ، وطمأنينته بترك الاعتداد ، فإنك إذا أقبلت إليه لا يسعه إلا ملاقاتك ، إذا ظهرت له راياتك وساقاتك،لأنه يرى أنه موازٍ لك في العدد والعدة، والدهاء والكفاية والنجدة ، فإن خرج إلى لقائك ، فالغالب أنك تغلبه ، وتظفر به وتنكبه ، لأنك أكثر أهبة واستعداداً ، وأقوى جيشاً وأوسع أمداداً ، وإن لزم العدو موضعـه ولم يخرج إلى لقائك ، لعدم وجدان

جيشه هنالك ، فينبغي لك أن تدخـــل إلى بلاده ، وتسعى في اشتاته وفساده [1] ...

4 – في الشجاعة واقسامها (2)

اعلم، يا بني ، أن الشجاعة وصف محمود، وبها يتفاخر الوجود،واعلم أن ثمرة الشجاعة لم يكن مثل صاحبها في الدنيا وخصوصاً في الملوك ، فانها لمآثرها كالوسائط في السلوك ، وأصل الشجاعة الصبر في المواقف، وربط الجاش عند المخاوف ، ورأسها الحذر والتوقي ، وسياستهـا الممارسة عند التلقي .

يا بني ، إذا وضعت قتالك في موضعه،وحذرت ما يتقى من مصرعه، كنت شجاعاً كاملاً ، وفي الحروب شهما [3] باسلا ، وإن تركت الحذر في حين القتال، وتوكلت على شجاعتك في ملاقاة الأبطال ، والمباشرة بنفسك للاهوال ، كانت شجاعتك هوجا ، وقوام حربك عوجا .

واعلم ، يا بني إذا كان الملك شجاعا ، كان منصوراً مطاعاً ، ترهبه

---

(1) توجد بقية هذا الباب في النسخة المطبوعـة ، ابتداء من ص 115 س 21 .

(2) واسطة السلوك ، الباب الثالث القاعدة الأولى وهي الشجاعة ، ص 129 – 135 (وعنوان النص من إنشائنا) .

(3) وفي النسخة المطبوعة : شهلا .

الأعداء ، وتطمئن إليه [1] الأولياء ، يعتد به جيشه في مواقع الحروب ، ويخاف سطوته الطالب والمطلوب .

فالشجاعة ، يا بني ، مكملة للمحاسن ، محبوبة في كل المواطن ، فرُبَّ الشجاعة بالرعب منصور ، وفي زمانه معظّم مذكور ؛ وينبغي لك يا بني ، وإن كنت شجاعا ، أن تتحذر الوقائع ، التي تخاف فيها المصارع ، واعلم بأن الشجاعة والكرم أخوان ، كما أن الجبن والبخل أخوان ، ودليلهما أن الشجاع يجود بنفسه فاحرى أن يجود بماله ، والبخيل يبخل بماله فكيف يجود بنفسه في حاله . والشجاعة تنقسم على أربعة أقسام :

القسم الاول : وهي الشجاعة التي يصحبها الراي .

اعلم ، يا بني ، أنه ينبغي لك أن تكون حاضر الذهن عند الملاقاة ، رابط الجأش عند تلاقي الساقات ، لا تزحزحك الرياح العواصف ، ولا ترهبك القواضب القواصف ، ولا الحروب على اختلاف أنواعها ، ومعظمات إيقاعها ، وقد قدمنا لك أنه لاينبغي لك أن تخاطر بنفسك، ولو كنت أشجع ابناء جنسك ، فإن المخاطرة غير محمودة إلا في طلب الملك والسلطان ، فإنها محمودة في كل أوان .

يا بني ، وإذا اقتحمت القتال، واختلطت الأبطال بالأبطال، فغايتك

(1) وفي النسخة المطبوعة به .

ان تكون حاكما على نفسك صابراً ثابتاً في جاشك،ناظراً على ساقاتك التي هي قلب جيشك ، فلتلزم بها الثبات، ولا تزحزح الى جهة من الجهات ، ولتشد بثباتـــك الأنجاد والحماة، والمقاتلين الكماة ، وان انكسر أحد الجناحين من جيشك فلا تهتم به،ولا تنتقل بسببه ، فان انكسار الجناحين مع ثبات القلب لا يضر ، والصبر في مثل هذا عائد عليك بما يسر ، لأنه اذا كانت رايات القلب تخفق وطبوله تزأر كان ذلك حصنا للجناحين ، وأمانا للعسكر من الحين ، وأرجى للظفر بالعدو عند رجوع الجانبين ، يا بني ، اذا لاقيت عدوك في الحرب ، فاجعل راياتك أمامك ، ونظرك أمامك ، ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً ، فان الالتفات يورث خبالا ، لانك ربما رأيت في أحد الجناحين انكسارا ، فيتشوش خاطرك لذلك ويدعوك الشره ابتدارا ، فتميل إليهم بمن معك من العساكر فيكون ذلك سبب [فسادك في الباطن والظاهر ، لا ريب أنـــك سبب] (1) الفساد ، وخروج (2) عن الاقتصاد ، لأنه اذا رآك جيش ملت الى أحد الجهتين حسبوا أنك منهزم دون مين ، مع أنك لا تقدر على جبر الجانب الذي انهزم ، والركن الذي انثلم ، لما دخل الرعب قلوبهم ، وافسد التزحزح أسلوبهم ، فالذي يجب عليك أن تجمع خاطرك،وتثبت في عدوك ناظرك مصمّما اليه ، عاملا في اللقاء عليه .

---

(1) ما جعل بين حاصرتين ساقط في النسخة المطبوعة .

(2) هكذا في النسخة المطبوعة . وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر خروجا . ولعل الصواب أن يقال : خارج .

يا بني ، لا تخل شجاعتك من الرأي ، تنجح مطالبك في كل سعي ، ويرجى لك الظفر والنصر ، والاستيلاء على العدو والقهر .

يا بني ، رتب جيشك يوم الحرب واللقاء ، فانّ في ترتيبه إرهاباً للأعداء ، وهيِّئه تهييئاً حسن الانتظام ، مضبوط الانقسام ، على أربعة أقسام : ميمنة من حماة أنجادك [1] ، وميسرة من كفاة أجوادك،وتقدمة من أبطال فرسانك ، و ساقة من أسود شجعانك ؛ وتقدم على كل واحد من الميمنة والميسرة قائداً مقداماً ، بطلاً ضرغاماً .

فأما التقدمة فتقدم منهم فرساناً بين يديك ، يكونون في نحر العدو إذا قصد إليك، من أنجاد قبائلك الشجعان، وأهل دخلتك العارفين بالضراب والطعان ، وتقدم عليهم قائداً من الأبطال ، الخائضين بحور الأهوال ، واجعلهم على قسمين : قسم يلي الميمنة بين يديها ، وقسم يلي الميسرة بين يديها ، ويكون قتال كل قسم من هاذين القسمين ، اللذين في الجهتين، مستنداً لمن خلفه من الميمنة والميسرة،فتكون الأجنحة بأولئك الحماة منتصرة .

وأما الساقة ، وهي قلب جيشك ، فاعلم ، يا بني ، أن الساقة لا تكون [2] توازي الميمنة والميسرة ، فإن القلب يوقف الجيش ويشده ،

---

(1) وفي النسخة المطبوعة : أجنادك .

(2) لا تكون : ساقط في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر .

ويصد العدو ويرده، فلا يكون فيه إلا أهل الشجاعة والنجدة، والكفاية والشدة، من كل بطل مقاتل، وشهم في الحروب باسل ، تخافهم الأبطال، وتتقيهم أسود النزال،فترتب هذه الساقة وتجعل عليها من زعماء حاصتك الأنجاد ، وحماتك الأسود الأفراد ، قائداً عن يمينها ، وقائداً عن يسارها، يضبطانها ويحفظانها ، في إقبالها وإدبارها ، وإيرادها وإصدارها ، لتبقى الساقة موفورة ، وحماتها مضبوطة محصورة ، بحيث لا يفل أحد من الساقة ولا يختل ، ولا يتزحزح ولا يتحول ، ولو انكسرت الميمنة والميسرة فإن الساقة تثبت معه على حالها ، منعقدة بحماتها وأبطالها ..

وليكن تشوفك إلى عدوك غير ملتفت كما قلنا ، ولا ناظر إلى شيء [1] سواه ، وتوكل في جميع أمورك على الله ...

يا بني ، وإذا قربت من عدوك فلا تعجل عليه بالحملة ، ولتأخذ في أمرك بالتأنّي والمهلة ، فإنه لا بد لكل دفعة من رجعة ، ولكل كبوة [2] من رفعة ، وليكن انتهاضك إلى عدوك زحفاً ، فإنك ترهبه خوفاً ورجفاً ، فإن أبطالك تقاتل بين يديك ، معتمدة في قتالها عليك، فإن انهزم العدو وفر أمامك ، ونلت من هزيمته مرامك ، فلتبادر من فورك إليه ، ولا تمهل في مسيرك عليه ، ولتكن خلفك محلتك وأثقالك، وأسبابك وأموالك ، ولتصل في أثره مسيرك في ليلك ونهارك ، حتى

(1) وفي النسخة المطبوعة : لا تناظر لشيء .

(2) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : كرة .

تنال من عدوك غاية اختيارك ، فإنك إن بادرته أخذت أمواله، وحويت أثقاله ، وقتلت حماته وأبطاله ، وربمـــا قعد بالعدو جواده ، وخانته أجواده ، أو كبا حصانه أو عثر ، أو دهش وتعذر ، فتظفر بعدوك من غير تجديد طلب ، ولا تكرير تعب ، وإن نجـــا العدو برأسه ، وفر بنفسه ، ثم وصل إلى أمنـه وحصنه ، وحضرته وكنّـه ، فإن كنت في اتباعه عازماً ، وفي طلبه جازمـاً [1] ، فيرجى لك أن تاخذه في بلده الذي لجأ إليه ، وحصنه الذي عول عليـــه ، لأنه لا يصل إلا في جهد وضعف ، وتزلزل ورجف ، منقطعاً عن حماتـه ، متفرداً من أنصاره وولاته ، فيسهل لك أخذه من غير تطويـــل ، ويتيسّر لك الإستيلاء عليه عن تعجيل .

يا بني ، وإن كان الأمر عليك لا إليك ، وتفرق جيشك من بـين يديك ، ولا ترتجي له جبراً [2] ولا عودة، ولا عطفة ولا نجدة ، ولم يقف عليه [3] أحد من حماتك ولا قوادك ، ولا من أنصارك ولا أجنادك ، فحينئذ تحتاج إلى جوادك الذي أعددته ، وإلى وزيرك الذي تخيرتـــه واستحسنته ، فتتفرد بوزيرك ، المخصوص بتدبيرك ، المشاور في قليلك وكثيرك ، فتقصد معه إلى معقلك الذي أعددته لحصارك ، واستخلصته ملجأ لك [4] ولأنصارك ، فإذا استقررت في حصنك ، الذي هو موضع

---

(1) وفي النسخة المطبوعة : حازماً .
(2) وفي النسخة المطبوعة : خبراً .
(3) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : عليك .
(4) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : إليك .

أمنك ، ومنشأ سلطانك ، وقاعدة بنيانك ، فتتحيّـل على عدوك بأنواع الحيل ، وضروب المكائد التي تبلغ بها الأمل، وتأخذ في مدافعته [1] عن حصارك ، ولا تغفل عنه في ليلك ولا في نهارك ، ولا تكل أمر معقلك إلى أحد من خدامك ، ولتباشره بنفسك في كل أيامك ، فـــإذا كنت ، يا بني ، بهذه المثابة في الاجتهاد ، فلا يتصل منك العدو بمراد .

القسم الثاني من الشجاعة :

ما يصحبه العقل دون الرأي ، وهو أن يكون الملك عاقلاً في نفسه يقظان في أحواله ، دهقاناً غير طالب فتنة ، ولا جـالب لمحنة ، يشتغل بتأخرته ، ويغفل عن رعيته ، ولا ينظر في أمر جنده ، ولا في شأن من دخل في عهده ، ويرى انه من زهده لا يضرّ احداً من الأعـــداء ، ولا تصله يد الاعتداء ، حتى إذا نزل بـه أمر ، أو ساءه من عـــدو مكر ، أظهر حينئذ شجاعته ، وأبدى براعته ، وذلك حين لا ينفعه إظهارها ، ولا تستحرّ له نارها ، ولا يغنيه استحضارها .

فهذا ، يا بني ، شجاعته غير محمودة ، ومن قلة النجابة معدودة ،لأنها شجاعة عن الرأي قاصرة ، فهي مذمومة بالنسبة الى الدنيا والآخرة

القسم الثالث :

أن تكون شجاعته غير مفرطة ، بل بين ذلك متوسطة ، غير أنهـا

(1) وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : مرافعته .

يصاحبها الرأي المصيب ، وينتفع بها مع الرأي في الموقف العصيب [1] .

فهذه ، يا بني ، شجاعة محمودة الأثر ، جميلة السير ، وإن كان الذي قبله أشجع منه ، فهما لأجل الرأي يقصران عنه ، فانالشجاعة المتوسطة إذا صحبها الرأي ، لا يكون صاحبها الا ناجح السعي ، لأنه يحاول برأيه ما لا يحاول بقدرته ولا بشجاعته ، وينتفع بنفسه ان التجأ الى براعته ، فبرأيه يقصر عن الحروب ، ويبلغ غاية المرغوب ، لأنه يحاول في دفـــع المكاره ، ويلاقي ملاقاة الأسد الشاره .

فهذا ، يا بني ، اذا حل به كرب ، أو دهمه من عدو خطب ، لا يرجف له قلب ، ولا يداخله رعب ؛ هذا وان لم يبلغ من شجاعتهالغاية، فهو في تدبيره في غاية النجابة والكفاية ، كصاحب القسم الأول الذي قدمناه،وبالشجاعة والعقل ذكرناه ،فمثل هذا، يا بني ، اذا كان الأمرعليه، وجد من رأيه ما يرجع اليه،فهذا أحسن حال من الذي قبله ، وان لم يكن في الشجاعة مثله .

القسم الرابع من الشجاعة :

وهي التي لا يصحبها عقل ولا رأي .

فهذا ، يا بني ، شجاعته مذمومة ، وبالجهالة موسومة،وهي فيالحقيقة

---

(1) وفي النسخة المطبوعة : الصعيب .

هور ، والعمل بها خطر ، لأنه اذا كان حرب لم يتمالك أن ينغمس في القتال ، ويلجج بهوره في معمعة الأبطال من غير رأي ولا تدبير ، ولا نظر في الأمور ولا تقدير ، فمثل هذا يا بني أوله للهلك ، وآخره لزوال الملك .

5 – في الفراسة ، وهي خادمة السياسة [1] :

وينبغي أن تكون فراستك في وزيرك وكاتبك، وقاضيك ومفتيك، وصاحب شرطتك وعمالك ، وصاحب أشغالك وقوادك ، وصاحب [2] أجنادك وعدوك والأرسال الواردة عليك ، بل [3] المتوجهة من قبلك إلى الملوك أمثالك ، والكتب الواردة عليك من العدو وغيره .

فأما فراستك في وزيرك ، اعلم ، يا بني ، أنه ينبغي لك أن تتفرس في وزيرك،الذي اتخذته لرأيك وتدبيرك،وشاركته في قليلك وكثيرك، وتنظر إلى أقواله وأفعاله ، وكافة أحواله .

فاذا تكلم في المسائل المرة بعد المرة ، فيما لا ينفع الخلافة ولا يعود

---

(1) واسطة السلوك ، الباب الرابع ، ص 141 – 162 .

(2) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر : وسائر .

(3) والأرسال الواردة عليك ، بل : ساقط في النسخة المطبوعة ، وعوض بكلمة : والرسل .

عليها بسرة ، مثل اذا تعين لك عند أحد مال ، تعرّض لك في تركه في نفس الحال ، أو ألحّ عليك في الكلام عليه أو أظهر لـــك وجوها من الاعتذارات بضعف المطلوب وإقلاله ، وقلّـة وجدْانه ورقة حاله ، فتعلم أنه أراد منفعة نفسه فازجره يا بني عن مقاله، ومره الا يعود الى مثاله، فإن تمادى عليك بالالحاح وجدّ في ذلك، فتعلم أنه قد رشي على مالك ، وان كف بعد أن زجرته ، ولم يعد الى الكلام الذي عنه أخرته ، فتعلم أن كلامه عن صحة من غير غرض ، ولا داعية تدعوه الى أخذ عرض.

يا بني ، وان كان لك خديم ناصح في خدمتك ، مسوف لجميع حقوقك وحرمتك ، ويريد وزيرك أن يوقع به عندك ، ويغيّر خاطرك عليـه ويفسد نيتك وقصدك، فخذ معه في ذم ذلك الخديم ، وقل ما ليس فيه من حادث وقديم ، فإن رأيته وافقك على ذلك ، وسلك في ذمه كل المسالك ، ثم أتى بما هو أشنع علمت أن وزيرك عدو لذلك الخديم ، طالب نكبته بكل فعل ذميم ، وأن كلامه باطل ، وحاله معه حائل ، اذا كرر عليك المرة بعد المرة ، وتمادى عليه بالذم والمضرة ، فان قال [1] قولا وتغافلت عنه ولم تنتهره ، وتغافل هو أيضاً ولم يذكره ، ولا أعاد كلاما ولا أكثر به اهتمامه ، فتعلم أن الحق ماقال وزيرك،وإنما هو نصيحك فيهومشيرك، فابحث على ذلك واختبره ، وتأمله واعتبره ، تجده ان شاء الله تعالى.

---

(1) وفي النسخة المطبوعة : كان .

يا بني ، لا تسمع كلام أحد من أول وهلة ، حتى تأخذه بحكم الفراسة على التفصيل والجملة .

يا بني ، اذا أردت أن تتفرس في وزيرك هل هو كامل العقل أو ناقص العقل ، فاذا رأيت أن أدنى الأمور يغضبه ، ويهمه ويكربه ، وأدنى الأمور يرضيه، وأقلها يسليه أو يفضيه،[1] فتعلم انه ناقص العقل، مضطرب الفعل [2] ، فان كان لا يغضب إلاّ من أشد [3] الأمور ، ولا يكترث إلا بامر مشهور، ويكون راضياً بما يأتيه منك ، ويتحمله عنك ، لكنه يرى بوافر عقله أنك أنزلته تلك المنزلة الكريمة ، وأحللته محلا واردت به تعظيمه ، فيقابل جميع ما يصدر عنك بالقبول ، ويتلقاه بالسرور المأمول ، إلا فيما يضرّبك فلا يوافق عليه، ولا يجنح بعقله اليه ، فتعلم أنه كامل العقل ، وحيد الفضل ، شديد المحبة في جنابك ، متودد لك آخذ في جميع آرائك .

يا بني ، اذا كان وزيرك كامل العقل ، آخذاً بشمائل الفضل ، فتتفرس في حال انبساطه وانقباضه ، وعلوه وانخفاضه ، فان

---

(1) كذا في النسخة المطبوعة ، وقد سقطت هذه الكلمة من المخطوط المشار إليه .

(2) كذا في المخطوط ، وفي النسخة المطبوعة عوضت العبارة الأخيرة بالجملة التالية : وعقله أخف من ريشة في الميزان ، ولا هو في عقله رجحان.

(3) كذا في النسخة المطبوعة : شدة .

رأيته في حال إقباله إليك مسروراً ، مبسوطاً طلق الوجه محبوراً ، فتعلم أنه أتى اليك بمسرة سمعها في جنابك ، أو صدرت له عند بابك ، فاختبره فإن أبدى لك ذلك فالمسرة في جنابك ، وان أخفاها فتعلم أنها في جانبه منك وان أقبل اليك على حالته المعتادة ، فتعلم أنه لم تتزايد عنده زيادة ، وان أقبل اليك مطرق الرأس، منقبضاً [1] غير طيب الانفاس، فانه سمع مقالة تسوؤه في جانبك من أمر عدوك ، أو ما يسوء جانبه من قبلك ، فان أخبر بذلك وأظهره ، فتعلم أن ما سمع في جنابك غيره ، وإن كتم ذلك عنك ، فتعلم أن ذلك صدر منك .

يا بني ، اذا سمعت عن وزيرك سقطـــة في جانبك وأردت اختبار حقها من باطلها ، وهل صدرت منه كما سمعت من قائلها، ويظن وزيرك أنك سمعتها عنه ، فتفرس في وزيرك ،فان رأيت منه زيادة في البشاشة ، والخضوع والتذلل والهشاشة ، وتلك خلاف عادته فان ذلـك دليل على الريبة ، وتحقيق لتلك السقطة المعيبة ، فحقق ذلك من غير ارتياب ، فإنه لا تخفى حالة المرتاب ، وإن لم ينتقل عن حالتـــه المعتادة ، [2] ولم يظهر في كلامه نقصان ولا زيادة ، فتعلم أنه بريء مما قيل لك فيه ، لأن ظاهره دلّ على ما يخفيه .

(1) كذا في النسخة المطبوعة : منفض .

(2) كذا في النسخة المطبوعة : عن حالته المرتابة ، ولا عن طريقته المعتادة .

يا بني ، إذا أردت استخراج ما في ضمير وزيرك العاقل فخذه بالرفق والتلطف ، والايناس والتآلف ، وائته من الباب الذي يوافقه ويحبه حتى يستخرج ما في ضميره بحسن السياسة ، وحكم الرياسة .

يا بني ، وأما من كان من وزرائك ناقص العقل ، فلا تمهله بالقول ، وأكثر عليه من الكلام ، فانه من ضعف عقله لا يقدر على الاكتتام ، فيخرج لك ما في ضميره ، من قليل الأمر وكثيره .

يا بني ، وأما جلساؤك ،فينبغي لك أن تتفرس فيجلسائكوتختبرهم، وتنظر في طباعهم لتعتبرهم ، من هو المحب في جنابك ، اللائذ ببابك ، المسرع لقضاء آرابك ، [1] ومن هو على غير ذلك ، واختبر المفشي منهم لأسرارك ، والحافظ على أخبارك،من رأيته كثير الكلام، شرهاللاقدام، لا يتوقى المقام ، لا يخفي شيئاً من أسراره ، ولا من أسرار غيره ، ولا له في إفشاء ذلك منفعة، فتعلم أنه غير محافظ على سرك ،فاحذره فانه كما لم يحافظ على سره فكذلك لا يحافظ على سرك ، وكذلكمن هو متهم ، فامره أعظم وأهم،فان المتهم يختبر بمعرفتهبالناس،وبتألفهوكثرة الجلاس، وان كان أقل كلاماً في مجلسك ، فلا تامنه في سر علىنفسك ،لأن معرفته بالناس تدعوه الى إفشاء الاسرار، واذاعتها على وجه الأسرار .

يا بني ، ومن رأيته من جلسائك قليل الكلام ، غير مخالط للأنام ؛

---

(1) كذا في النسخة المطبوعة : آرائك .

ولا يجالس أحداً ، ولا يرى فيها مقصداً، ولا يتكلم إلا في محل الكلام ولا ياخذ الا فيما يجمع عليه الخاص والعام ، وتعلم أن صمته أكثر من كلامه ، وإمساكه معرب عن جوابه ، وعقله غالب عليه ، وعارف بكلامه ما يؤول اليه ، فذلك ممن يكتم الأسرار، ويأخذ بفعل الاخيار،[1] فاودعه جميع سرك ، وما تقتضيه من خيرك وشرك .

يا بني ، وان أردت أن تعرف من جلسائك من هو محب فيك ، عامل على خدمتك وتصافيك ،[2] أو من هو بخلاف ذلك ، سالك في خدعك شر المسالك ، فتفرس في طباعهم ، وانظر الى تملقهم واصطناعهم ،[3] واختبرهم اذا ورد عليك سرور على غفلة ، وأتاك بشير وارد بعجلة ، وكيفية اختيارهم أن تنظر إلى وجوههم في الحين فتتبين منهم أحوال المحبين وغير المحبين ، فمن رأيت وجهه متهللا داخله السرور ، فتعلم أنه محب بسرورك محبور ، ومن رأيته منقبض الوجه حين تنظر اليه ، فتعلم من بغضه ما انطوى قلبه عليه ، لأن الانبساط والانقباض يفيضان من القلب على الوجه[4] فيبدو ما في الباطن على

---

(1) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المشار إليه : وخذ بفعل الاختيار .

(2) كذا في المخطوط ، وفي النسخة المطبوعة : عامل على خدمتك ومنتشل ما يخرج من فيك ، وعلى جميع ما يرتضيك

(3) كذا في المخطوط ، وفي النسخة المطبوعة : وأصناعهم .

(4) زائد هنا في النسخة المطبوعة : فيدل على صاحبه انه بسرورك راض .

الظاهر ، [1] وتطلع من ذلك على السرائر ، وإن أبدى لك غير المحب بشاشته ، حين يظهر هشاشته ، لأن السرور يكسو الوجـــه طلاقة [2] وحمرة ، حتى يصير كأنه جمرة، والحقد يكسو غبرة ،أو كورة أو صفرة، وذلك لسماعه مالا يريد ، ولشدة تغيره وحقده لونه يسود ويزيد [3].

يا بني ، واذا ورد عليك خبر غير سار ، فان وجـــه المحب يعود منقبضاً ظاهر الانكسار ، وربما ظهرت على وجـــه غير محبك امارة الاستبشار ، فاعتبر المحب من غير المحب بهذين الاعتبارين ، يتبين لك في كلا الاختبارين ...

يا بني ، وأما فراستك في أرسال الملوك الواردة عليك ، القاصدين من بلادهم اليك ، إما من قبل الأعداء ، أو من قبل الأولياء ، فان كان من قبل الاولياء فلا إشكال ، ان ذلك موالاة وافضال ، وان كان من قبل عدوك فينبغي لك أن تتفرس فيهم تفرس النبلاء الأذكياء النجباء .

فإذا أقبل رسول عدوك اليك، ورأيته طلق الوجه لديك، وأسرع في

---

(1) زائد هنا في النسخة المطبوعة : فتطلع في وجهه البشائر .

(2) كذاك في المخطوط ، وفي النسخة المطبوعة : لطافة .

(3) كذا في النسخة المطبوعة . وفي المخطوط المذكور : ولشدة عقد تغيير يزيد .

مشيه مظهراً للمسرة ، فتعلم أنه يبدي لك من كلام الخير ما أسرّه ، ثم يفصح بحسن سلامه، ويظهر الأدب بين يديك في كلامه، ويقدمك في الشكر والثناء على سلطانه ، ويظهر لك البشاشة في تبيانه .

فإذا كان على هذه الحال فتفرّس فيه بأحد وجهين ، فان فراستك لا تخطيك [1] من غير مين ، اما أن سلطانه ضعيف الملك أو ضعيف العقل ، فان كان ضعيف الملك فتفرّس فيه بأحد وجهين ، امـــا أنه يطمع فيما يناله منك وذلك من خذلانه ، أو يطمع فيما يدفع به المضرّة عن سلطانه ، فاذا رأيته كذلك فاذن له بالجلوس في مجلسك ، فانه يظهر ما في باطنه لتأنسك ، فتزيد فراستك فيه يقيناً ، وتظهر لك أحواله تبييناً ، ويسر أهل مجلسك بما عنده من الهسار ، وتطلع أنت على ما أكنّه من الأسرار ، ثم تأمره بالانزال عند خلاصتك ، لتتبين فيه غاية فراستك ، ويأتيك بما أضمره من سره ، وبما جاء به من خير الامر [2] وشره ثم تعده بالمطالب الكبار ، وتمنيه بالفوائد الكثار ، فان كتم عن خلاصتك أمر سلطانه ، ولم يطلعه على شيء من أحواله وشأنه ، فتعلم أنـــه رسول ناصح لمولاه ، ليس له من طمع فيما سواه ، ولا هو غادر ملكه ، وانما رأى الثناء عليك أحسن مسلك سلكه ، يا بني ، وتعلم أن ثناءه عليك لضعف سلطانه ، وقلة ذات يده وامكانه ، وعلامة ذلك أنه لم يشتمله

---

(1) وفي المخطوط المشار اليه سابقاً : لا تخطيه .

(2) كذا في المخطوط المشار اليه وفي النسخة المطبوعة : الأمور .

طمع ، ولا في غرضه إلا ما به ينتفع ، لكن قدمك في الثناء على سلطانه لدفع مضرة يتقيها ، وأظهر لك البشاشة والتودد ليحافظ على المحاسنة ويبقيها ، فاعرض عليه حينئذ ، يا بني ، بعض ما تريد من الاشتراط ، مما ترغب فيه وتحتاط غاية الاحتياط ، وخذ معه في الامور التي لا ينفر عنها ، ولا تأخذه عزة الانفة منها ، ولا مما لا يعود عليه بوصم ، ولا من سلطانه بذم ، فان قبلها من أول وهلة ، فتتحقق ضعف مملكة من أرسله ، فلا تترك فيه فرصتك فانها قد أمكنت، ومهابتك عند مرسله قد تمكنت، فان أردت المصالحة على وفق اختيارك ، وان شئت القصد اليه بحماتك وأنصارك ، فان عدوك ضعيف، وهو منك على تخويف ، وأما الرسول فنعم الرسول ، ولا لأحد فيه ما يقول .

فان كان سلطانه قوياً بالجيش [1] والمال، والحماة والانصار والابطال، مع ما صدر من الرسول من البشاشة ، والثناء والشكر والهشاشة ، فتعلم أن سلطانه ضعيف العقل ، لا يفرق بين الفرع والاصل ، وعلامة ذلك أن رسوله لم يوف له حقاً ، ولا أحسن اليه فعلاً ولا أجاد نطقاً ، بل أسقط حرمته ، وأساء خدمته حين أخّره في الذكر ، وقدمك عليه في الثناء والشكر .

واعلم ، يا بني ، أن الرسول الذي يتصف بهذه الصفة ، فقد خرج

---

(1) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور : قوي الجيش .

عن طريق المعرفة ، وأنه ما صدر الا لما يرتجيه من المطامع ، ولا قصد له الا في نيل المنافع ، وتلك المنافع عائدة على سلطانه بالمضار ، وجالبة عليه مناكد الحين والبوار ، وأيضاً انما كانت هشاشته لمكيدة ، عرضت له في جانبك وكيدة .

وقد اتفق لنا ذلك مع عمر بن عبدالله [1] وزير ملك المغرب أبي سالم حين أرسله الينا [2] بالجد العازم ، والعهد اللازم ، ليتحيّل بعض الحيل علينا ، ويخادعنا بين أيدينا ، فتفرسنا فيه المخادعة ، لما أظهر من التذلل والمصانعة ، ولما أظهر من البشاشة ، والثناء علينا والهشاشة ، فعلمنا من ثنائه علينا وتذلله لدينا ، مع قوة سلطانه ، ورفيع مكانه ، أن تذلله انما هو لمكيدة ، أو لمطمعة تنال منا مفيدة ، فانزلناه عند وزيرنا عبدالله بن مسلّم ، لما بينهما من تودد [3] متقدم ، وكانت رغبة عمر المذكور في ذلك ليتوصل الى غرضه من هنالك ، ثم أمرنا وزيرنا باستخباره [4] إذا أطلعه على أسراره ، واستخراج ما عنده،لنعلم مراده وقصده،فوجدناه على ما تفرسنا فيه من المكيدة والطمع ، والمحاولة والخدع .

---

(1) عمر بن عبدالله بن علي الياباني ، انظر : الاستقصا ، ج 4 ، ص 45 ، 50، 52 ، 53 .

(2) عن هذه السفارة ، انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص 90 .

(3) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور سابقاً : من تأكيد صدر .

(4) كذا في المخطوطة المذكور سابقاً ، وفي النسخة المطبوعة : باختباره.

فلما علمنا منه ذلك حاولناه وأوعدناه ، بما أراده منا وتمناه ، إلى أن عادت مكيدته على سلطانه ، فكانت سبب هلاكه وخراب أوطانه ، أما المكيدة التي أتى بها ، والمخادعة التي تسبب بأسبابها ، فامران: أحدهما انه أتى بمال يمد به أهل وهران ، ويعينهم على التمادي على الطغيان ، الثاني أنه أتى إلى وزيرنا ليخدعه، ويرده إلى جانب سلطانه ويطمعه ، وذلك لما تقدم بينهما من الوداد ، وصفاء المودة والاعتقاد ، وقد تفرسنا ، يا بني في وزيرنا أنه لا يخدعه عمر المذكور ، ولا يغتر منه بزخرف الغرور،من أجل محبته وخلوص نيته ، وصفاء طويته ، وعلمنا من حزم وزيرنا أنه يخدعه ويرد عليه مكيدته ، ويحل عزيمته وعقيدته ، ولذلك أنزلناه عنده وأريناه بذلك بغيته وقصده .

وكنا ، يا بني ، ندخله إلى خلوات مجالسنا ، وننره [1] بمحادثتنا ونمنّيه بمواعدتنا،حتى استملناه بكليته ، واستخرجنا ما في طويته ، وكان يتخيل بعقله أنه يستخلص أسرارنا ، ويطلع على أخبارنا ، ونحن نكيده بوجوه المكائد ، ونشيع ما جاء به من المقاصد ، إلى أن يبلغ خبره لسلطانه ، بما يريد [2] بذلك انخفاض مكانه ، وأبطأنا به في الوداع ولم نودعه حتى علمنا أن سلطانه ساء به ظننا ، وأنه إذا وصل إليه لا يلقى منه سلامة ولا أمنا ، وأنه غرس عنده ثمار الحقد ، لسوء ما أتاه من القصد ولما علم أنه جنى كبيرة ، ولم يحسن السيرة ، أطلعنا على أسرار مولاه ،

(1) النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور سابقاً : نسره .

(2) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور سابقاً : نريد .

وأظهر لناما أسّره وأخفاه ، أخذنا معه فيما يضر بسلطانه ، ليخلص مما جناه من خذلانه ، فاجاب الى ذلك ووافق عليـه ، وهجست نفسه بما ندب إليه ، فكان من قيامه على سلطانه ما كان ، الى أن أزال عنه الملك[1] والسلطان ، وغلق في وجهه أبواب فاس الجديـــد ، ولقي منـه أليم التنكيد ...

فينبغى لك، يا بني ، أن تتفرّس في أرسال عدوك اذا قدموا عليك ، ووصلوا بالرسالة إليك ، فتسايسهم أحسن مسايسة ، وتمارس حالهم أجمل ممارسة ، وتخادعهم بالطف المخادعات ، وتصانعهم بوجوه المصانعات ، حتى يظهر لك الحبيب والنصيـح ، والباطل والصحيـح ، فتعامل كلا منهم بما يليق به ، وتجري معه على مـــا تراه من مذهبه ..

يا بني ، فان كان الرسول وزيراً أو ما يقاربه ، فتكون فراستك فيه على نحو ما تبيّـن لك مناقبه ، وإن كان دون ذلك ، فتجري على ما تراه من أحوالك ، وليكن نزول كل رسول عند أمثاله من خدمك ، ولتكرم كل واحد بما يليق به من إكرامك ، وذلك سبب لاستخلاص الاخبار ، واختبار ما يكنّـه من الأسرار .

يا بني ، وان أقبـل عليك رسول عدوك حين دخوله عليك منقبض الوجه ، بطيء المشي مظهر الكراهـــة في الزي والوجه ، فتفرّس فيه

(1) كذا في النسخة المطبوعة ، وفي المخطوط المذكور سابقا ...الحكم.

باحد وجهين : اما أن يكون ذلك من قبل الرسول المذكور ، يريــــد بذلك غاية الظهور ، وذلك من خبث طباعه ، وسوء اصطناعه،فلتأمره بالانزال عند من يختبر حاله ممن يكون في الطبقة مثاله ، بعد أن تأخذ الكتب الواصلة صحبته ، وتتفرّس فيها من عدوك رغبته ، ومنهــــا تستدلّ على حقيقة الحال ، ولا تخفى عليك الحقيقة من المحال ، فإن كان مالا يليق بك ولا يرضيك لا من خطاب ولا من جواب ، فتعلم ان الرسول من طبع المرسل والكتاب ، فتحضره بعد ذلك بين يديك ، وتخلي له مجلسك حتى لا يطلع أحد عليك ثم تخفي حديثه كما تخفي [1] كتابه ، ثم تعطيه بعد ذلك جوابه ، وان كان في الكتاب ما يسرّ ويرضي، وبأنواع المسرة يقضي ، فتعلم أن الخباثة في طبع الرسول ، إذا لم يكن في الكتاب الا معاني الأمن والسول ، فتنعم عليه بالاحسان ، وتستميل قلبه بالامتنان ، لأن فعله ذلك سبب للانتفاع ، وخباثة من جهة الاطماع ، فإذا أخذ منك وأعطيته ، وأكرمته ومنيته ، دعته الخباثة [2] الى إفشاء سر سلطانه ، لأن إحسانك إليه حمله على اختيانه .

وهكذا ، يا بني ،كنانتفرّس في الأرسال ، فنجدهم على ما تفرسنافيهم من الصحة والاعتدال ....

---

(1) كذا في المخطوط المشار إليه : وفي النسخة المطبوعة سقطت العبارة التالية : تخفي حديثه كما .

(2) هكذا في المخطوط المشار إليه ، وفي النسخة المطبوعة : الخيانة .

الباب الثاني

شعر أبي حمو الثاني

الشعر السياسي

حان الفراق[1]

حان الفراق فكنت منـــه بمنزل ودنا الرحيـــل فكنت فيه بأوّل
وتحكم البـــين المشتت والنوى فينا بفتكـــة سيفه المتكلل
وبدا غراب البين في عرصاتهـــا يرثي عليهـــا منزلاً في منزل
والوصل ولّى راحـــلاً في اثره قاضي الفراق على كتيب محجـل
خلت المعـالم والطلول دوارس وذوى الرياض وكل ربـع مزبل
والدار أمست بلقعاً من أهلهـــا يرثي عليهـــا كل طير أليل
والورق[2] نائحة على أغصانها نوح الشجي[3] المدنف المتعلـــل
فسمعت هاتفـة على أفنانهـــا تشكو بصوت بيّـن لم يجهـــل

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة في بلاد افريقية قبيل قيامه بحركتـــه الموفقة لاحياء الدولة الزيانية ، وضمنها شوقه وحنينه وحزنه لفراق أحبابه ، وبعث بها الى أبيه الذي كان آنذاك بمدينة فاس ، وهي من بحر الكامل ووزنه : متفاعلن متفاعلن متفاعلن ، هذا ولم نعثر على هذه القصيدة الا في كتاب « زهر البستـــان » المشار إليه سابقاً ورقة 7 ظ – 8 ظ .

(2) وفي الأصل : والارق «وهو خطأ بين» .

(3) وفي الأصل : السجي .

فنشدتها عن حالهـــا فترنمت ... وبكت وأبكت صم صخر الجندل
قالت وأشواق النوى لعبت بهـا : ... عن غير حالي يا ابن آدم فاسأل
أوما رأيت الروض أمسى مقفرا ... لعبت به ريـــح الصبا والشمأل
هاذي ديارکم وهاذي أرضـــکم ... بالأمس قد كانوا بهـــذا المنزل
دعني أنوح عليهـــم طول المدى ... أبكي عليهـــم جدولاً في جدول
فشفِـقت لما أن علمت حديثها ... والجفن يغرق بالدموع الهطّـل
ناديتها والجسم مني قـــد فنى ... وعلى فؤادي غمرة لم تنجـــل
لو ذقت يا ورقاء مـا قد ذقتـــه ... لحرقت أغصـان الأراك الميل
كم حرقـــة كم زفرة كم لوعـــة ... يحلو لديها كل صعب مذهـــل
وشواهـــدي هم هؤلاء كما ترى ... بانوا وكل مبين لم يجهـــل
دمعي يسيح وزفرتي لا تنقضي ... والسهر أنحلني وعذل العذل
لو ذاق قاسي القلب مـــا قد ذقته ... لغدوا سكارى في محـــل مهمل
أوحل ما بي بالجبال تدكدكت ... دكاً وأمست مثل كحل المكحل
والحال تنبىء والكواكب تشهد ... أني أراقبهـــا ولم أتخيـل
حالي يطول ومِحْنَتِي لا تنقضي ... كم لي بميدان الوغى من محفل
لا بـــد من سوق النجوع مغرباً ... حتى تكل متونهـــا بالأحمل
وترى الفوارس دائرات بالعدى ... تسقي لواردها نقيـع الحنظل
وامامها قطب الوفـــا بحر الندى ... عطالها يوم الوغى بالعيطل [1]

(1) وفي الأصل : بالعيضل « وهو خطأ » . والعيطل : هي الحسنـــاء الطويلة العنق ، يعني الرمح، وعطل الأبل أو الخيل : تركها بلاراع أو فارس .

صدامهـــا رداحها حكامهـــا شرادها ورادهـــا بالفيصل
موسى الهمام ابن السراة دوي العلى من قد رقي في العز أعلى معقل
لا بد من طيّ [(1)] السرى لبلادهم من فوق صهّال أغرّ محجّل
وأسير في اعلائـــه متبختراً متوشحاً متقلّداً في جحفـــل
وقَبيِل عبد الواد محدقة بنا من كل ليث ضارب بالمنصل
ولها عوال كالشهوب اذا بدت قد عدلت للحرب أي تعـــدّل
والخيل تعثر [(2)] في الاعنة ضمراً من أشقر وأدهم ومحجـــل
يا نجل عامر سر بنا واطو السرى ليـــلاً لعـل الدهر يدني منزلي
يا نجل عامر سر غرست النخل في أوطانهـــا تجنى كطعم السلسل
يا نجل عامر طـــال قولي انني أحمي الحمى يوم الوغى بالمنصل
يا نجـــل عامر دارنا مع داركم قد عمرت من بعدنا بالحنظل [(3)]
وأسير من شد السرى مـــتمايلاً فوق الأغرّ ومقلتي لم تقفـــل
ياسر ما عندي اذا لاحت لنـــا يوماً على تلك الرسوم المحّـــل
ويعود دهر قـــد مضى بسبيله ويعود حسن الروض بعد تذبل
فابلـــغ سلامي يا نسيمات الصبا نحو الشقيق الوالد المتفصل [(4)]

---

(1) في الأصل : سوق «وهو مخل بالمعنى» . والمقصود : الرحيل الى بلاد أحبابه وأقاربه ليلا . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(2) في الأصل : تعثرى «وهو مخالف للوزن ومخل بالمعنى» .

(3) يعني احتلال البلاد الزيانية من طرف بني مرين .

(4) تفصل : تمزق وتقطع عضوا عضواً ، يعني من شدة الحزن والأسى.

أعني أبا يعقوب مـــولانا الذي نرجو رضاه وهو غاية من يلي
من آل زيان الكرام نتاجـــه ياقوتة في وسط سلك مجتـــل
من نجله موسى الذي هو لم يزل بين الخـــلائق كالسماك الأعزل
ثم الصلاة على النـــبي المصطفى ما دام سلطان القديم الأول

2 — جرت ادمعي [1]

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم — لما شحطتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهماً [2] لخطابها — وأي خطاب للصلاد الصلادم
وسرت على جون أقب مضمر — كلمعة برق أو كلمحـــة صارم
وجلت بطرف الطرف في عرصاتها — كجولة واه أو كوقفة هائم
وصفقت ما بين الطلول خوامسي — وفاضت سواقي الدمع مثل الأراقم
وقلت لصحبي لا تملوا من السرى — ولا يزدريكم في السرى لوم لائم [3]
سلوا ساكنات الحي [4] أين تحملوا — فقد عيل صبري بين تلك المعالم
ديار عهدناها بها الشمل جامـــع — مع الغـــانجات الآنسات النواعم
وكم ليلة بات السرور مساعدي — بسعـــدى وسلمى والمنى أم سالم
فعادت رسوم الدار بعد أنيسها — هشيما ولا تخفى بقـــايا المراسم

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بعد أن قام بحركته الموفقة ، ودخل تلمسان أول ربيع (760 هـ) وهي من بحر الطويل ، ووزنها : فعولن مفاعيل فعولن مفاعلن .

(2) وفي زهر البستان : مستخبراً .

(3) نفسه : ولا تزدريك اليوم لومة لائم .

(4) نفسه : فسل سامرات الحي .

وكم نسجتها من جنوب وشمـــال   وكم سجعتها من لغـــات الحمائم
كأني بهم والله يوم تحمّـــلوا   وحادي النوى يحدو بذات المباسم[1]
قطعت[2] الفيافي بالقلاص وإنما   تجاب الفلا بالخف أو بالمنـــاسم
وقد خلتها بـــين الرياح زوابعاً   تسابق في البيدا ظليم النعـــائم
مكحلة الأحـــداق فيها هشاشة   مهملجة الأطراف سود المباسم
ومعها أسود الحرب تطوي بها الفلا[3]   يرون المنايا بعض تلك المغانم
وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد   لنيل[4] العلى والصبر إذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى   نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهـــال أغر محجل   مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم
تسربلت كردوسين من آل عامر   ومن آل ادريس الشريف بن قاسم
رجال اذا جاش[5] الوطيس تراهم   أسود الوغى من كل ليث ضبارم
وجبت الفيـــافي بلدة بعد بلدة   وطوعت فيهـــا كل باغ وباغم

---

(1) وفي واسطة السلوك : هوادي الرواسم «والرواسم الابل التي تمشى مشياً شديداً .
(2) وفي زهر البستان قطعنا .
(3) نفسه : السرى .
(4) نفسه : لطلب ، وفي واسطـة السلوك ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر: لقصد .
(5) زهر البستان : هاج .

وجئت لأرض الزاب تذرف أدمعي[1]
لتـذكار أطلال الرسوم[2] الطواسم
وشبكت عشري[3] فوق رأسي فلم أجد
بها مخبراً غير الربى والمعـــالم

وجاوزتها مـا بين هوج هجائن   رقاق الهوادي[4] عاليـات القوائم
وجزت بأرض ريـغ راغت باهلها   ببلقعة قفر قفتهــا عزائمي
سالت ربوع الدار فيها[5] فلم أجد   بهـــا معلماً يــأتي الي بعالم
شددت عرى للنجع من كل جانب   وصيرتهـا مثل الرياح الرواكم
تخيلتها مثل القطا في مسيرها   وفوق ذراها كل شهم وحازم
وحفت بنا الابطال من كل جانب   يذكرهـا عهد الهوى بالصماصم
وجئت لوارجلا وجزت مصابهـــا   ولا مخبر غير الصلاد الاعـــاجم
ومازلت أطوي سهلها وأكامها[6]   وأحطمها بين الربى والهضائم
قطعت الحمادى والسراب غديرها   على هيكل عبل الذرا عين هاجم
مكر بيوم الحرب لا يشتكي الونى   مفر اذا طالت عظـــام الهزائم

---

(1) زهر البستان : فاضت مدامعي .
(2) وفي بغية الرواد : الربوع .
(3) وفي زهر البستان : شعري .
(4) نفسه : العوالي « والهوادي ج هادية وهي عنق الناقة» .
(5) نفسه : يوماً .
(6) نفسه : أطوي سيرها بأكامها :

الى أن بدا لي واد زرقون أزرقاً وبانت عليـــه شاحبات الغيائم
طرقت برأسي واستفزيت بالكرى [1] وكم من ليـال بتّها غير نائم
وجددت في طلب السرايا مسربلاً بسير حثيث أو سرى متـــداوم
وكم من فياف [2]قد قطعت اكامها وكم نسمة جادت عليها نسائمي
وبـــين ضلوعي زفرة مستكنة يصعدها فيض الدموع السواجم[3]
وبتنا نسوق النجع في غيهب الدجى وخرصاننا فيهـا كشهب عواتم
الى ملل ملنا وما ملت السرى سرايـــا ركاب كالقسي السواهم
ولما بدا لي غيهب [4]القوم ظاهراً وحيهم بين الظلال الغيـــائم
جبـذنا مجاذيباً وجدت جيادها وجالت كما العقبان بين السقاهم [5]
وضمر عناجيـج على صهواتها كرام سماح [6] بالنفوس الكرائم
نطارد فيها الخيل بالخيل مثلها فـكان على الأعـداء كر الهزاعـم

---

(1) هكـــذا في جميع المصادر ، والمقصود : استفززت بالكرى ، أي استخففته ، ولعله قال : استفزيت ، لاجل الوزن .

(2) وفي بغية الرواد : بلاد .

(3) وفي زهر البستان ورد هذا البيت كما يلي :
وكم زفرة تعلو من القلب صاعداً جواها وكم دمع على الخد ساجم .

(4) وفي بغية الرواد : منزل (والغيهب هنا السواد من الخيل) .

(5) كذا في واسطة السلوك وزهر البستان وسائر مخطوطات بغية الرواد.

(6) وفي زهر البستان : تجود .

حملنا عليهم حمـــلة [1] مضرية فولوا شراداً مثـــل جفل النعائم
فولت سويد ثم خلت مجيرهـــا وشيخ حماها في لجوج المصادم [2]
وكم خلفوا ما بين بكر وبكرة وكم[3] غادة ملتفة في الهدائم [4]
وكم قبة طاحت وطاح أميرهـــا
على الأرض ما بين الصفا والوثائم [5]
وجـــالت خيول للحجاز [6] كأنها
عقاب تمطّى بـــين فرق الحمـــائم
فحاز الثنـــا فيها سقير بن عامر كما حاز من قبل ذياب بن غانم [7]
وطاحت على وادي مـــلال هشائم
من القوم صرعى للنسور القشاعم [8]

---

(1) وفي زهر البستان : شددنا عليهم شدة .
(2) بغية الرواد : في الثرى أي جاثم .
(3) في بغية الرواد : ومن .
(4) نفسه : بالهدائم .
(5) في واسطة السلوك: الرثائم، وفي زهر البستان الزنائم وكلا المفردتين غير مناسب لغة ولعل الصواب ما أثبتنا (والوثائم جمع وثيمة وهي الحجارة)
(6) كذا في واسطة السلوك . وفي زهر البستان : للحجازى .
(7) سقطت هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة في بغية الرواد .
(8) وقد ورد هذا البيت في زهر البستان كما يلي :
وطاحت هياشيم على الأرض طعمة بوادي ملال للنسور القشاعم .

فكانوا [1] الى الطير الغشيم [2] فرائساً
وكانت على الأعداء شؤم النمائم

وهبّت رياح النصر من كل جانب   وجاءت الينا مبهجات الغنائم
ولما قضينا الأمر في الحرب منهم   رحلنا بعون الله نحو المعالم [3]
وخضراء كبود تبدت هضابها   وهبّت رياح عاطرات النواسم
درجنا الى درج ولاحت بشائر   بهلك الأعادي التاعسين الأشائم
ألا أيها الناعي البشير الذي نعى   أمير مرين حزت أسنى المقاسم
لقد قرّب الله البعيد بهلكه   فبشراك بالخيرات يا خير قادم [4]
ولاح لنا فرتون فافترّت المنى   الينا ابتساماً للثغور [5] البواسم
وصارت أسود الغاب تاتي مطيعة   وعادت لنا الأيام مثل المواسم
قطعنا الثنايا والخميس مسربل   صلاصله مثل الرياح القواصم
وعجنا وعرجنا على واد يسّر   وجزنا المخاض كالليوث الضراغم

---

(1) وفي بغية الرواد ، فكانت .

(2) وفي واسطة السلوك : العشيم .

(3) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(4) سقط هذان البيتان في بغية الرواد .

(5) وفي زهر البستان وواسطة السلوك : بالثغور .

وفي يسر آمالنا يسرت لنـــا فجددت [1] للأوطان فيها عزائمي
وبتنا وبات النوم غير مساعدى واني على جد السرى جد عـازم
وسرنا ضحى والنصر يهفو أمامنا برايات سعد فوقنـــا كالغمائم
قدمنا وكان الفتح يرجو قدومنا وكان على الأعـــداء شر المقادم
وصفوا صفوفاً ثمّ صفت صفوفنا وسالت دموع القوم مثـل العنادم
وجالت ليوث الحرب بين صفوفها وخط بهـــا الخطي بين الحلاقم
ولاح شعاع الهند بين خميسهـا كبرق تبدّى بين درج الأراقـم
سمونا إلى [2] اصطفطيف [3] واشتد بيننا
حروب تشيب الرأس قبـــل الفطائم
كررنا عليهـم كرة بعـــد كرة
وقد سعرت [4] للحرب نيران جاحم
بضرب يزيل الهام عن مستقره وطعن مضى بين الكلى والحيازم
فهذا أسير صفّدتـــه يد الوغى وهـذا قتيـل في عجاج المصادم
فطوبي لعبد الواد عند ازدحامهم لقد جدّلوا في الحرب كل مزاحم

---

(1) وفي واسطة السلوك : وجرحت ، وفي زهر البستان : وجددت .

(2) وفي بغية الرواد : علونا على .

(3) وفي بعض النسخ : الصفصيف (وهو النطق الحالي لاسم هـذا النهر الصغير الذي يسيل قريباً من تلمسان) .

(4) وفي بغية الرواد : شعلت .

وجالت خيـــول العامرية فوقها[1]
أسود[2] الشرى في موجها[3] المتلاطم

وعـــاد شعاع الشمس في الجو أصفراً
وجال ذباب السيف بـــين الغلاصم

جعلنـــا كراديساً على كل ربوة وطالت رقاب الأسد تحت العمائم
شددنا عليهم شدّة بعـــد شدّة فولّوا فراراً والتجوا للمعاصم[4]

وداروا بـــأسوار المدينة كلهـــا
كدور سوار فوق أبهى[5] المعاصم

وقد برزت من خدرها كل غادة درجن على الأسطاح درج الحمائم
وقد عاد ذاك الجمع منهم مكسراً يجمع لنـــا بين الكتائب سالم
فرامت مرين الصلح بعد فرارهـا وقد ظلموا عهـــداً ولست بظالم
فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها وتساقط الأبدان تحت الجماجم
وتخلى من الأعداء دار عهدتهـــا مع الآنسات[6] الناعمات الكرائم

---

(1) وفي بغية الرواد : عندها

(2) نفسه : كأسد .

(3) وفي زهر البستان : بحرها .

(4) هذا البيت ساقط في زهر البستان .

(5) وفي زهر البستان : حسن

(6) نفسه : الغانجات .

دخلت تلمسان التي كنت أرتجي كما ذكرت في الجفر أهل الملاحم[1]
فخلّصت من غصّابها دار ملكنا وطهّرتها من كل باغ وجارم [2]
لقد أسلموها عنوة دون عدّة لقد طلّقوها بالقنـــا والصوارم
ولم يغنهم ما شيّدوا من معاقـــل ولم يجد هم ما حصّنوا من معاصم
ولا كثرة الجيش اللهام ولا الظبى [3]
ولا مـــا أعدّوا من قسيٍّ سواهم
إذا لم يكن للمرء سعد مساعد فما يغنه عد [4] الجيوش الخضارم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقـــه وكم بات نهبا شمله دون ناظم
شددنـــا له أزراً وشدنا بنـــاءه بأوثق أركان وأقوى دعـــائم
فصارت[5] ملوك الارض تاتي مطيعة الى بابنـــا تبغي التماس المكارم
وجاءت لنا من كل أوب ووجهة تبايعنا طوعـــاً وفود العمائم
أنا الملـــك الزابي ولست بزابي ولكنني مفني الطغاة الاعاظم[6]
اذا مـا أتت من بعد ستين سبعة نبيـــد مرينا كل طاغ وجارم

---

(1) وفي زهر البستان : كما ذكروه في كتاب الملاحم .
(2) نفسه : ظالم .
(3) وفي واسطة السلوك وزهر البستان : مدرعا .
(4) كذا في بغية الرواد ، وفي زهر البستان : فـــما يغن تعداد ؛ وفي واسطة السلوك : فما يغني اعداد .
(5) في زهر البستان : فعادت .
(6) وفي بغية الرواد : الطماطم .

واني لمفنيهم ومفني جموعهـــم وهادم ما قد شيدوا من معاصم [1]
سطيـح وشقّ [2] خبروا في جفورهم [3]
بذلك حقـــا تحت حسن التراجم [4]
فقمنـا بأمر الله في نصر دينـه وفي كف ما قد احدثوا من مظـالم
فلله منا الحمد والشكر دائمـــا وصلى على المختار من آل هاشم

---

(1) كذا في واسطة السلوك ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، وفي زهر البستان : معالم .
(2) سطيح : كاهن عـــاش في الجاهلية ، والشق اسم عرافَيْن عاشا كذلك قبل الاسلام .
(3) يعنى الكتب التي سجل فيها مؤلفوها أخبار العصور القادمة .
(4) سقطت هذه الابيات الثلاثة من بغية الرواد ، ومن واسطة السلوك (النسخة المطبوعة) .

3 ـ دمع ينهل من المقل [1]

دمع ينهلُّ من المقل — لقبيح كان من العمل
وجوى في الصدر له حرق — فالقلب لذلك في شغل
ونهيت النفس فما ازدجرت [2] — وتولّى الصبر فما حيلي
ناس ركبوا التقوى ولقد — ركبت نفسي طرق الزلل
أبأذني الوقر فما سمعت — والذنب تكاثر من خللي
ليلي سهرٌ يومي فكرٌ — دمعي دررٌ برئي عللي
نفسي ضجرت لما افتكرت — هلاّ نظرت ما يصلح لي
اثمي كثرا ، شيبي ظهرا — وقد اشتهرا ، والأمر جلي
في القلب شجا ، كيف المنجى — لمن الملجا ، بارت [3] حيلي

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة في أول امارته ضمّن فيها حسن نواياه وما يتحلّى به من خلال حميدة ومزايا تجعله صالحاً للملك وتعود بالفوائد الجمّة على رعيته: والقصيدة من بحر المتدارك ، ولم يذكرها صاحب بغية الرواد .

(2) في واسطة السلوك : فما قبلت .

(3) وفي زهر البستان : حارت .

من ينقـــذني من يسعدني　　من يرحمـــني من يغفر لي

الا مولى ، يسدي الطـــولى　　ربي الأعلى ، شافي عللي [1]

منشي الرمم ، معطي القسم　　بـــارى النسم ، محيى الدول

أحيـــا وأعـــاد قبيل أبي　　من عبد الواد أولي الأسل [2]

أحيـــاها بي ، وبـــاعرابي　　وأنا الزابي ، والـــدولة لي

بي أحيـــاها ، بي أنشاها　　لي أعطاهـــا ، أزل الأزل

الله قضى ، والحـــكم مضى　　ولنا فرضا ، فدعـــوا عذلي

فـــله الشكر وله الأمر　　منه النصر ، لا من قبـــلي

حملني الملك ومن يقـــوى　　يحمل ما فيه من الثقل ؟

إلا بمعونـــة خالقنـــا　　مولى النعماء وخـــير ولي

أحمي المظـــلوم وأنصره　　وأقـيم الحـقّ على عجـل [3]

أنزلت [4] الناس منـــازلهم　　وتركت الظالم في وجـــل

وأنا [5] للطفـــل كوالده　　وأسوق الشيخ على مهـــل

والرفق كذلك من شيمي [6]　　والعدل به أعطى أمـــلي

---

(1) وفي واسطة السلوك : محيي الدول .

(2) هذان البيتان ساقطان في واسطة السلوك .

(3) في واسطة السلوك : بلاميل .

(4) وفي زهر البستان : نزلت .

(5) وفي واسطة السلوك : أحنو .

(6) وفي زهر البستان : شيمتي .

وأنيـــل القاصد حاجته ... وأنيـل المــال بلا ملل
وأنا للحرب كعنترهـــا ... وأنا في السلم أخو جدل
خيلي للخير ملجمـــة ... وكذا للحرب [1] ولا تسل
وأنا موسى وأبو حمّـو ... أصلح للملك ويصلح لي
سيفي إن صلت بقائمـــه ... أدني المُـرّاق الى الأجــل
وكذا كفّـاي إذا انبسطت ... من كان مقلاً عـــاد مَـلي
أهل تلمسان بدولتنـــا ... كالشمس لدى برج الحمــل
تفـــنى الدنا ومحبتهم ... فينــــا وحياتك لم تحل [2]
ولقـــد بذلوا في خدمتنـــا ... أقصى الغايات بلا كسل [3]
فلهم منّـا عـــدل ونـدى ... ولهم منا [4] أقصى الأمـــل
فبفضل الله ومنّـتـــه [5] ... أرشدت إلى أهــــدى السبل
وأنا أرجـــو من رحمته [6] ... أن يغفر لي يوم الخجـــل
بعنـــاية أحمد سيّـدنا ... وهو المبعوث الى المِلَــل
مُبدي الإسلام ومظهره ... علم التقـــوى خير الرسل

---

(1) وفي واسطة السلوك : للشر .
(2) وفي زهر البستان : فينا أبدا ما ان ترحل .
(3) نفسه : بلا مثل .
(4) وفي واسطة السلوك (النسخة المطبوعة) : ولنا منهم .
(5) وفي زهر البستان : ورحمته .
(6) نفسه : ومنته .

4 - كتمت حبي[1]

كتمت حبي فأفشى الدمع كتماني وزاد شوقي على قيس وغيلان

يا جيرة الحي إني قد فتنت بكم كم تهجروني كأني مذنب جاني

ناديتهم ودموع العين هامية[2] بأي ذنب رضيت اليوم هجراني

يا فتنة القلب كم لي في هواك وكم[3] أطلت هجري وحالي صار ضدان

الماء والنار تشكو من فراقكم وحبكم قد رمى قلبي بنيران

---

(1) لم ترد هذه القصيدة في بغية الرواد وفي النسخة المطبوعة من واسطة السلوك ، والظاهر أن أبا حمو نظمها اثناء مقاومته للخطر المريني ومحاولته إخراج جنودهم من المراكز التي كانوا لا يزالون يحتلونها ، والغالب على الظن أن تاريخ نظم هذه القصيدة يقع في الفترة التي تلت محاولة أبي سالم المريني للاستيلاء على تلمسان ، أي حوالي صفر (762 هـ) ، بعد عودة أبي حمو من حركته الى الشرق لمطاردة أبي زيان القبي وأنصاره ، أو في شهر شوال (762 هـ) ، بعد استيلائه على وهران ، انظر، فيما قبل ، ص100- 105، وهذه القصيدة من بحر البسيط ، ووزنه، مستفلن فاعلن مستفلمن فاعلن.

(2) وفي واسطة السلوك ، المخطوط المذكور سابقاً : هاملة .

(3) نفسه : كم لي لا أواصلكم .

كم تهجروني وهجري لا يحل لكم		الموت أهون من بُعدي وهجراني
وإن عزمتم على بعدي فوا أسفا		بان الزمان بحالي أي تبيان
يا أحسن الناس ما لي عنك مصطبر		وكيف صبري وصبري اليوم أعياني
أنا جلبت الهوى حتى بليت بـه		وخاض بحر الهوى قلبي وجثماني
نازعت عيني على ما كان من نظر		فقالت العين إن القلب أبـلاني
مهما نظرت إلى شيء أراقبـه		يميـل نحوكم سري وإعلاني
وهذه حالـتي يا جيرتي ولـكم		تضاعف الوجد من شوقي وأشجاني
إني فتنت بذات الخـال يا خولي		وعذبت بجفاها العاشق العاني (1)
يا قرة العـين كم ترضى تفارقني		رفقاً عليَّ أمـا يكفيك هجراني
رقت (2) لحالي وما قد بان من شغفي		واعطفت بعـد ذاك الهجر سلواني
قالت : وحق هواك اليوم مـا نظرت		عيناك عيـني إلا ذبت من شاني
الحب من شيمتي (3) والوجد معرفتي		والصبر نافلـتي يا آل زيّـان
إني شغفت بكم منذ زمان مضى		وأنت لم تدر مـا قد كان أجفاني
رقت حشاشة قلبي من هواك (4) وقد		تضاعف السقم في روحي وأبداني

---

(1) وفي واسطة السلوك : الفاني .
(2) نفسه : رثت .
(3) نفسه : شيمي .
(4) نفسه : هواكم .

إني وحق حياة الحب ما اكتحلت   والله بعدكم بالنوم أجفـــاني
ولا شغفت بحسن غير حسنـكم   ولا أخذت عليـكم في الهوى ثاني
ولا شربت لذيذ المـاء من عطش   إلا رأيت خيالاً منـــك خالاني
ولا جلست إلى قوم أحدثهـــم   إلا حديثـك مع قاص ومع داني
إن كنت مثلي فنعم الحب منقسماً   فافعل بفضلك ما أرضاك أرضاني
ضممتها حين زارتني ببهجتهـــا   وقلبها عندمـــا أدعوه لبّاني
بتنـــا وباتَ نعيم الدهر يأنسنا   والعيش صاف وروض الوصل ريان
ولا رقيب ولا واش يطوف بنا   إلا الحسان بأصوات وألحان
من كل غانية رقت [1] شمائلهـــا   تزهو على ناعمـات القضب والبان
وكل عـاطرة فاحت نواسمهـا   من عنبري ومسكي وريحان
هُـمُ سبوني وكم أسبوا لذي خطر   من الملوك وحبي اليوم برهـاني
قد كان فـيما مضى قلبي وإن جهلت
مولى حباب [2] وكسرى نوشروان
ذلت لعزتنا أسد الوغى ولقد   تزهو علينا وايم الله غزلان
كم من كريم وكم من ماجد بطل   أفنى الغرام وكم من عابد عان

---

(1) وفي واسطة السلوك : راقت .

(2) كذا في الأصل . والمقصود من قوله : مولى حباب (حبابة) يزيد بن عبدالملك الذي احب جاريته حبابة ومات من جراء حبه لها. وقدأورد أبو حمو قصيدته هذه في كتابه «واسطة السلوك» ليبين خطر الحب على الملوك ، وضرورة اتقائه والاجتهاد في ترك حياة اللهو والترف.

يا لائمي في هوى الغزلان لا تلمن فما خلا من هواهم قلب إنسان
وهذه صفتي [1] يا عاذلي وكفى إن الملام قد أعيـــاك وأعياني
ولا جعلت بنات الحي من شغلي حتى شغفت بقد البيض والزان
وقد ألفت من الهيجـاء عاطلة تشب يوم الوغى والحرب نيران
وكم سقيت كؤوس الموت [2] صافية
وقد حميت بحـــد السيف أوطاني
وكم قهرت عدواً ظالماً غشماً يوم اللقاء بأظعان وأطعان [3]
وكم [4] عمرت دياراً قل عامرها وقد جعلت ديار الانس عمران
وقد أقمت [5] رسوماً قبل ناصرها يوم الهياج وكل النـــاس عاداني
حتى ظفرت بشيء كنت أطلبـه فالحمد لله في سر وإعلان
نعم ولا بد لي من أخذ أرضهم بالمرهفات وجرد تحت عقبان
حتى أروي سيوفي [6] من دمائهم ري الحجيج إذا حلت بحسيان [7]

---

(1) كذا في واسطة السلوك (المخطوط).وفي زهر البستان : قصتي..

(2) كذا في واسطة السلوك (المخطوط).وفي زهر البستان : وقد سقيت كؤوس الماء .

(3) وفي واسطة السلوك (المخطوط) : بأطعان وأظعان .

(4) نفسه : وقد .

(5) كذا في واسطة السلوك (المخطوط) ، وفي زهر البستان : حييت .

(6) كذا في المصدرين ، ولعل الصواب أن يقال : حتى أروي سيفي .

(7) وفي واسطةالسلوك (المخطوط) ، بغيلان (والغيل : الماء الجاري على وجه الأرض).

وتسقط الهام والألبــــاب طائشة والخيل عارية من غير فرسان

والبيض تضرم نار الحرب إن خمدت والسمر [1] مثل شهاب إثر شيطان

والخيل عابسة كلّت فوارسها والأرض كاسية ثوباً كعقيان [2]

فما ترى غير أبطال مجدلة ما بين سهل وأهضاب وكثبان

والأرض هامدة والأسد داهشة والبيض ضاحكة تزهو على الزان [3]

هناك نحمي حماها عندما اشتعلت والأسد ما بين سكران ونشوان

ونضرم الحرب صدمات يكل لها أسد [4] الحروب ويغمور بن زيان

ونأخذ الثأر ممن قد نأى ودنا ويرجع الشرق بعد الغرب ديواني

---

(1) وفي زهر البستان : والشمس .

(2) وفي واسطة السلوك (المخطوط) : والارض كاسية من لون مرجان .

(3) نفسه : والسيف ضاحكة تزهو على البان . «والزان شجرة تصنع منها القسيّ ، وتطلق هنا على القوس» .

(4) وفي زهر البستان : ليث .

5 – تذكرت أطلال الربوع الطواسم[1]

تذكرت أطلال الربوع الطواسم　　وما قد مضى من عهدها المتقادم
وقفت بها من بَعد بُعد أنيسها　　بصبر مناف أو بشوق ملازم
تهيم[2] بمغناهم وتندب[3] ربعهم　　وأي فؤاد بعدهم غير هائم
تحن إلى سلمى ومن سكن الحمى　　وما حب سلمى للفتى بسالم[4]
فلا تندب[3] الأطلال وأسال عن الهوى　　ولا تغل في تذكار تلك المعالم
فان الهوى لا يستفز ذوي النهى　　ولا يستبى إلا الضعيف العزائم
وكل فتى أعطى الغرام قياده　　وبات على ضيم فليس بحازم
فما[5] فاز بالعليا سوى كل ماجد　　مشمر ساق الجد[6] ماضي العزائم
صبور على البلوى طهور من الهوى　　قريب من التقوى بعيد المآثم

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة في أول ذي الحجة سنة (762 هـ)، وقد شرح الظروف التي نظمها فيها في كتابه «واسطة السلوك». انظر فيما قبل: مختارات كتاب واسطة السلوك، ص 249 – 251 – وهي من بحر الطويل.

(2) وفي بغية الرواد: أهيم:

(3) نفسه: أندب.

(4) هذا البيت ساقط في بغية الرواد.

(5) وفي بغية الرواد: وما.

(6) نفسه: العز.

ومن يبغ درك المعلوات [1] ونيلها … يساو بحلو الشهد مرّ العلاقم
ولائمة لما ركبنا الى العلى … بحار الردى في لجها [2] المتلاطم
تقول بإشفاق أتنسى هوى الدمى [3] … وتنثر دراً من دموع سواجم
اليك فانا لا يرد اعتزامنا … مقالة باك أو ملامة لائم
ألم تدر أن اللوم لؤم واننا … لنجتنب اللؤم اجتناب المحارم
فما بسوى العلياء همنا جلالة … إذا هام قوم بالحسان النواعم
بروق السيوف المشرفيات والقنا … أحب الينا من بروق المباسم
وأحسن من قدّ الفتاة وخدها … قدود العوالي أو خدود الصوارم [4]
وأما صهيل السابحات لدى الوغى … فاشجى لدينا من غناء الحمائم
إذا نحن جردنا الصوارم لم تعد … لاغمادها الا بحز الغلاصم
نواصل بين الهند والهام [5] والطلى … بتفريق ما بين الطلى والجماجم [6]
فيرغب منا السلم كل محارب … ويرهب منا الحرب كل مسالم [7]
نقود [8] إلى الهيجاء كل مضمّر … ونقدم إقدام الأسود الضراغم

---

(1) وفي بغية الرواد : ومن يبغ إدراك المعالي.
(2) وفي زهر البستان وبغية الرواد : لجة :
(3) وفي واسطة السلوك (المخطوط) : الـــدنى .
(4) هذا البيت ساقط في زهر البستان .
(5) هذه الكلمة غير واضحة في المخطوط ، ولعل الصواب ما أثبتناه .
(6) لم يرد هاذان البيتان الافي واسطة السلوك (المخطوط) .
(7) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .
(8) وفي واسطة السلوك : نعد .

وما كل من قاد الجيوش إلى العدى ... يعود إلى أوطـــانه بالغنائم

وننصر مظلوماً ونمنع ظالـــماً ... إذا شيك [1] مظلوم بشوكة ظالم

ويأوي الينـــا المستجير ويلتجي ... ويحميه منـــا كل ليث ضبارم

ألم ترَ إذ جـــاء السبيّع قاصداً ... إلى بابنا يبغي التماس المكارم

وذلك لما [2] أن جفـــاه صحابه ... وكل خليل وده غـــير دائم

وأزمع ارسالاً الينـــا رسالة ... باخلاص ود [3] واجب غير واجم

وكان رأى أن المهامـــه بيننا ... فخلى لذات [4] الخف ذات المناسم

وقال ألا هل من عليم [5] مجرب ... أبث له ما تحت طي الحيـــازم

فيبلغ عني الآن خير رسالة ... تؤدى الى خير الملوك [6] الأعاظم

على ناقـــة وجناء كالحرف ضامر ... تخيرتها بـــين القلاص الرواسم

من اللاء يظلمن الظليم اذا عدا ... ويشبهنه في جيده [7] والقوائم

---

(1) وفي زهر البستان : شك .

(2) وفي بغية الرواد : مما

(3) نفسه : بود جديد .

(4) وفي واسطة السلوك : بذات .

(5) نفسه : وقال لامري من حليم .

(6) وفي بغية الرواد : الى خير أعلام الملوك .

(7) وفي واسطة السلوك : في جريه .

اذا اتلعت [1] فوق السحاب جرانها[2]
تخيلتها [3] بعض السحاب الرواكم

وان هملجت بالسير في وسط مهمه
تراءت كمثـل البرق لاح لشائم

ولم يامن الخلان بعد اختلالهم
فامسى وفي أكباده أي جاحم [4]

فقالوا فحمّلها الحمائم قـال لا
لبعد المدى أو خوف صيد الحمائم

وما القصد الا في الوصول بسرعة
فقالوا فحمّلها أكف النواسم [5]

فقال لنعم المرسلات وإنمـا
لهـا ألسن مشهورة بالنمائم

كتابي [6] زهر في كمائم طرسه
وبالريح يفشى سر زهر الكمائم

فلم يلف فيها للامانـة موضعا
وكل امرىء للسر ليس بـكاتم

فحينئذ وافى الينـا بنفسه
فكان لدينـا خير واف وقادم

يجوب لنا البيداء قصدا[7] وبشرنا
يضيء له الظلمـاء من كل عاتم

طلاب العلى يسري مع الوحش في الفلا
ويصحب منها كل باغ وباغم [8]

---

(1) وفي واسطة السلوك : اتملت (وأتلعت الناقة في سيرها : مدت عنقها متطاولة).
(2) كذا في المصدرين : وجران البعير عنقه .
(3) وفي واسطة السلوك : تجلى (وهو مخل بالوزن) .
(4) هذه الابيات الثلاثة ساقطة في بغية الرواد .
(5) هاذان البيتان ساقطان في زهر البستان .
(6) وفي بغية الرواد : وكتبي .
(7) نفسه : طوعاً .
(8) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .



بعض الأطلال لأسوار مدينة المنصورة

على سلهب ذي صهوتين مطهم من المقربات الصافنات[1] الصلادم
اذا شاء أي الوحش أدركه بـه فتحسبه في البيد بعض النعـائم
ويقدمه طوعاً [2] الينا رجاؤه حمايتنا اياه من كل ظـــالم
الا أيها الآتي لظـــل جنابنا نزلت برحب في عراض المكارم
وقوبلت منــا بالذي أنت أهله وفاض عليك الجود فيض الغمائم
كذا دأبنـا للقاصدين محلنا حمى وندى ينسى به جود حاتم
وهذا جواب عن نظامك انـــا بعثنا به كاللؤلؤ المتناظم [3]
ونحن ذوو التيجان من آل هاشم[4] لعمرك ما التيجان غير العمائم
بهمتنا العليـــا سمونا الى العلى وكم دون ادراك العلى من ملاحم
شددنا بها[5] أزرا وشدنا بناءها [6] وكم مكثت دهرا بغير دعائم [7]
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه وكم بات نهبا شمله دون ناظم

---

(1) وفي بغية الرواد : من الصافنات المقربـــات .

(2) نفسه : حبا .

(3) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(4) وفي واسطة السلوك : حِمْيَر .

(5) في بغية الرواد : له؛ وفي زهر البستان : لها .

(6) في بغية الرواد : بناءه .

(7) نفسه : بأوثق أركان وأقوى دعائم .

ورضنا جياد [1]الملك بعد جماحها فذلت وقد كانت صعاب الشكائم[2]
منـاقب زيانيـــة موسويـة يـذل له عز الملوك القـماقم
يقصر عن ادراكهـــا كل مبتغ ويعجز عن احصائها كل ناظم[3]
فلله منا الحمـــد والشكر دائماً وصلى على المختار من آل هاشم
ويختصكم منا السلام الأثير مـــا تضاحك روض من[4] بكاء الغمائم

الرثـــاء

(1) في زهر البستـــان : جياح ؛ وفي واسطة السلوك ، عياد ، ولعل الصواب ما أثبتنا .
(2) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .
(3) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .
(4) كذا في واسطة السلوك ، وفي بغية الرواد وزهر البستان : عن .

6– السيف أجدر والخطي من خطب (1)

السيف أجدر والخطي من خطب   فيها اللجاج وقول غير منتسب
خط الكتائب لا خط الكتاب بها   جلية الامر عند السمر. والقضب
والحق فرض على الانسان مفترض   والصدق أفضل ما أودعت في الكتب
ومن غدا السيف في كفّيه عارية   فكيف يدرك ما يرجو من الارب
فكم تحـــاول أمراً ليس تدركه   تخطي الطريق وكم ترمي فلا تصب
قد خنت من بعد أيمان مؤكدة   وتلك عادتكم في سالف الحقب
وكم تجيب لداعي الغيّ مبتدرا   وان دعوتك يوم الحرب لم تجب

---

(1) ذكر يحيى بن خلدون الظروف التي نظم فيها أبو حمو هذه القصيدة وذلك أن أبا حمو قام بغارة على الناحية الشرقية من المغرب الأقصى وخصوصاً في ناحيتي دبدو وجر سيف ، في أواخر سنة (766 هـ) وكانت الدولة المرينية آنذاك تعيش في جو فتن واضطرابات، وكان السلطان أبو زيان المريني تحت سيطرة وزيره عمر بن عبدالله الياباني وفي هذه القصيدة يخاطب أبو حمو الوزير المريني عمر بن عبدالله. عن غارة ابي حمو المذكورة انظر بغية الرواد ، ج 2 ص 155 – 156 كتاب العبر ، ج 7 ، ص 266 – 267 ، انظر كذلك كتـــاب الاستقصاء ، ج 4 ، ص 50–52،والقصيدة من بحر البسيط .

فانصب إلى الحرب ميداناً تشيب له ... سود الذوائب بين الحرب والحرب
قدمت طـــائرك المشؤوم أن له ... دلائلا ظهرت في منزل خرب
أخطات في رأي من خابت روايته ... حتى اقتحمت الردى من غير ماسبب
تخوض بحراً ولا تخشى عواقبه ... وليس تسلك لجّ البحر بالنجب
عاندت ويحك من أعطاه خالقه ... ومن ساذكره في العلم والكتب
ومن يعارض بامر الله معترضاً ... يخسر ويصبح على بحر من التعب
أيمنح المرء والقهـــار يمنعه ... أو يوهب الأمر والوهاب لم يهب
كم غاصب قبلكم قد عاد منتهبا ... وطالب خاب والمطلوب لم يخب
من رام ادراكنا رام المحال ولا ... ينجو من السيف من قد لجّ في الهرب
كم رام غيركم مـــا رمتموه فما ... نالوه وانقلبوا في سوء منقلب
جرتم على الله في أحكامه ولقد ... قطعتم الدهر بين اللهو واللعب
هتكت ستر مرين طالما سُتِروا ... قتلتً مالكهم غدراً بلا سبب
تعمـــدا جرءة اخليت دارهم ... ولم تدع لبني الاملاك من عقب
فلا يغرك ما قـــد كان من لعب ... شمّـر إزارك جاء الحق فارتقب
لما دعوت على بعـــد اجبتكم ... وقد دعوناك من قرب فلم تجب
وقـــد نهضت بعون الله متكلا ... على الاله ومـــن يرجوه لم يخب
بعسكر لجب ضاق الفضاء بـــه ... كالبحر أعظم به من عسكر لجب
عرمرم زاخر فاضت مواكبـــه ... كانّـه سحب أربت على سحب
من كل ليث شجاع فارس بطل ... حامي الذمار من الأعجام والعرب
على سوابق خيـــل ضمّر عرب ... تزهى بحليتهـــا كالخرد العرب

من أحمر عسجديّ اللون مذهبه	وأشقر كشعـــاع الشمس ملتهب
وأدهم متنه ليـــل وغرّتـــه	صبح فيا حسنه من منظر عجب
وأشهب كشهاب إن رميت بـــه	شيطان كل عدوّ في الوغى تصب
فالحمر من فلق والشقر من شفق	والدهم من غسق والشهب من شهب
تشن غاراتهـــا فيْ كل منهلة	فتنثني بالذي نهـــواه من ارب
بها وطئنا بلادا لا سبيل لهـــا	وما أردنا تناولنـــاه من كثب
حيث الهوادج والبوجات مشرقة	لاحت بمنزل رأس العين كالشهب
وافت بنو عامر من كل ناحيـــة	في خيلهاالعرب أو في نجعها الاشب
جاءت الى نصر حزب الله وآبتدرت	كالأسد تبدو عليها سورة الغضب
ومن امـــام عبيد الله في امم	فاضت مواكبهـا بالبيد والشعب
كتائب ضاقت الأرض الفضاء بها	في ظل ألوية خفاقـــة العذب
بحر على البر مرتجّ غواربـه	من فوقه قطع الرايات كالسحب
ونحن نقدمهم والنصر يقدمنـــا	والأرض تهتز بالفرسان والنجب
ثم ارتحلنـــا لتامسلمت مرحلة	وكوكب الفتح قد وافى ولم يغب
الى ثنيـــة بلزوز فحين أتت	للمستراح أرحناهـــا من التعب
ثم ارتحلنا على اسم الله تقدمنـــا	طلائع الفتح في أبرادها القشب
حتى نزلنا على دبدو وساحته	جالت عساكرنا في السهل والهضب
لما بدا للعدى ألاّ نجـــاة لهم	ولا قرار وقد أشفوا على الشجب
تضرعوا وأتوا طوعـــا لخدمتنا	بالذل والذعر خوف الهلك والعطب
وقد عفونا وان العفو شيمتنـــا	ومن تردّى رداء العفو لم يخب

ونال من عفونا ما كان يامله حمّو بن زيدان[1] بعد القهر والغلب
ومن هناك لوينا نحو ملويه وكم تركنا بها من منزل خرب
ما كل من قاد جيش الزحف قائده وليس يذكر غير الماجد الدرب
لما دعوناك من قرب فلم تجب علمت قولك بين الهزل واللعب
ثنيت عنك عنان العزم محتكما بالرأي والحزم لا عجزا عن الطلب
لا بدّ من ساعـــة بيني وبينكم تغيب شمس الضحى فيها ولم تغب
وتكتسي الأرض ثوبا كالعقيق ولا تجري الجداول الا من دم سرب
والخيــــل جائلة والأسعد ذاهلة والأرض عارية من ثوبها القشب
هناك تجني ثماراً كنت غارسهـــا ويحكم الدهر بالآيات والعجب
وناخذ الثار ممن قد دنا وقصا من العداة وهـــذا منتهى أربي
ثم الصلاة على المختــــار من مضر خير البرية من عجم ومن عرب

---

(1) حمو بن زيـــدان : شيخ قبيلة بني علي من بني ونكاسن ، القاطنين آنذاك ناحية جبل دبدو . وكان قبل ذلك قد تحالف مع ونزمار بن عريف شيخ قبيلة سويد بالمغرب الأقصى ، ضد أبي حمو الثاني .

7 ـ قف بالمنـــازل [1]

قف بالمنـازل وقفة المتردد ما بـــين نؤي بالطلول وموقد
واذا مررت على الربوع مسلما فاسأل عن القلب الغريب المفرد
حدث بها خبر الأسى عن مدنف بحلى الغرام موشح ومقـــلد
هجر السلو فمـــا يقر قراره فيظـــل حلف تأوه وتنهد
نزحت منـــازله وشط مزاره ونات أحبتـــه بغير تعمد
فغدا يكابـــد عبرة في زفرة للبين بـين مصوب ومصعـــد
يا سائق الأظعان هل لي بعدهم . من منجـــد في حبهم أو مسعد
ركبوا بدورا في الخدور وأدلجوا فسألت توديعا فقلن الى غـــد

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة أثناء تجواله في الصحراء ، عندمـــا ترك عاصمته والتجأ بناحية تيقورارين في جنوب الصحراء ، أيام استيلاء عبد العزيز المريني على تلمسان والمغرب الأوسط . وقد ضمن أبو حمو هذه القصيدة ما كان يشعر به في منفاه من الام وآمال ، وما مني به من خداع أنصاره وهزيمة ، ومحن ومشاق .
انظر ، فيما قبل ، ص 129 ـ 130 ، والقصيدة من بحر الكامل ولم ترد الا في بغية الرواد .

فغرقت في دمعي وما يغني البكا ضنوا بتوديـــع فكيف بموعد
لو كان لي يوم الفراق تخيّرا لفديت ظعنهم بما ملكت يدي
تركوا المنازل بلقعا وترحّلوا فغدت معاهدها كأن لم تعهد
سحبت عليهـا الرامسات ذيولها من شَمْـال وصبا تروح وتغتدي
وتعوضت بالاثل بـــين عراصها من بعد ذاك الزهر والورد الندي
ومن الأوانس بالرياض نواعما بالوحش يرتع في خلاء فدفد
من بعـــد طول تنعم ونضارة للعيش فيهـا بالحسان الخرد
وغناء غانية سبت بجمالها تزهى بكل مغنّـج ومورّد
الشعر ليـل فوق صبح جبينها يحمي لعقرب صدغها بمجعّـد
ولحـــاظهن صوارم مسلولة فتكت بألباب ولما تغمــــد
ومباسم كالاقحوان تخالهـــا درّاً بسمط في العقيـــق منضد
ولكم ظفرنا بالرضى من دهرنا وأتت لنا الدنيـــا بوقت مسعد
نجني المنى وبنو الزمان عبيدنا والسعد يدني ما لنا من مقصد
لا نختشي في الحي رقبة عـــاذل كلا ولا نصغي لقول مفنــــد
نلنا الذي شئنا بدهر طائل من أنعم دامت برغـــم الحسد
حتى إذا شهر الزمان سلاحـــه بيد العدى من اسمر ومهنــــد
ورمى سهاماً للفراق كأنمـــا كانت لشت جميعنا بالمرصد
وأرى بروق القضب في ليل الوغى ذهبت بابصار العلى والسؤدد
والخيل تعثر في طلى صرعائهـا ما بين مضطجع وبين موسّد
من كل أشهب كالشهاب تخـــاله أو أدهم مثل الغراب الأسود

أو أحمر كالورد لون أديمـــه		أو أشقر متجلـــل بالعسجد
أو أصفر منهن كالخـــيري في		حسن معارفـــه كخط باليد
أو أبلق حسن الحجال مدثّـر		ومدرهم ومقصدر ومحـــدّد
أو أشقر أصدى فسحرة لونه		سحر وغرة وجهه كالفرقد
وفوارس من فوقهن عوابس		بسلاحها من أبـــتر أو املد
فكأنهم أسد الشرى في غابهـــا		والسيف قرع زناده لم يصلد
فيجول بـــين جماجم وغلاصم		ويقدّ كل مدرع ومحـــدد
ومقـــانب من خلفهن عساكر		طافت بنا من كل شهم أمجـــد
من عـامريّ ضيغم يوم الوغـى		أو معقلي بهمّـة لم يرفـــد
وزنانة من خلفنا وأمـــامنا		من كل ليث في الحروب ممجّـد
وطبولنا زأرت كأسد في الوغى		وبنودنا خفقت بنصر منجـــد
واصطفّـت الجمعان واحتدم الوغى		لكنّهـــا خبثت بسعي المرّد
وجرت غشائم خاربين لحزبنـا		من كافري نعمائنا أو جحّـــد
حتى تفرّق جمعنـــا وتشتّـتوا		بسعاة كل مضلّـــل أو مفسد
فالبعض منهم قـــد أزى لعدوّنا		والبعض فرّوا كالنّعـــام الشرّد
نقضوا العهود وخلّـفوني في الوغى		بين الأعـــادي كالغريب المفرد
كفروا بأنعمنا وخـــانوا عهدنا		وأتوا من الخـذلان ما لم يعهـد
فهناك فرسان العـدى طافت بنـا		من كل طاغ في الوغى أو معتـــد
فنضيتها صمصامـــة روميـــة		وهززت منها منتهى ضرب اليد
أوردتها علق النجيـع من العدى		نهلا ومـا رَوِيَتْ بذاك المورد

فلـــكم كررت عليهم من كرّة   بمشطّب ومثقّب ومهنّـــد
من فوق ضامرة الحشا وحشيـة   جرداء حجر نعالها كالجلمـــد
فكأنها برق يـــلوح لشائم   وكأنّها نجم يلوح لمهتـــد
من خلفنا النجل الرضى متسربل   شهم اللقـــاء فمثله لم يولد
فكأنه في الخيل ليث عـــابس   يسقي الفوارس في الوغى كاساً ردي
وإذا انثـــنى نحو العداة فكم له   من فارس فوق التراب موسّـــد
من فوق أشهب ضامر حسن الحلى   فكأنّـه ريـــح تروح وتغتدي
دارت بنا الأعدا فصرنا بينهم   كالدرّة البيضا بليـــل أسود
اثنان كان الله ثالثنـــا بها   ولكم له عقد الشدائـــد من يد
ولكم عفا ولكم أنال تفضّلاً   والله ربّي ناصري ومؤيّـدي
يا ربّ كم آنستني في غربـــتي   يا ربّ كم فرّجت كرب المكمد
يا ربّ فاجبر ما ترى من حالـتي   يا ربّ واجـبر قلب كل موحـد
يا نفس لا تيئس وإن طال المدى   فالله يجمع شمـــل كل مبعـــد
ستعود أيام السرور وطيبهـا   وتعود عن قرب ليالي الأسعد
يا ربّ بالبيت العتيق وأهـــله   وبجاه يثرب والنـبي محمـــد
فرّج بحقك كربتي يا موئلي   وبحـق فضلك لا تخيّب مقصدي
ثم الصلاة على النبيّ محمـــد   ما غرّدت ورق بغصن أمـــلد

الرثـــاء

8 ـ دنف تذكر حسرة التوديع (1)

دنف تذكر حسرة التوديع ... وهنيء وصل بالنوى مقطوع

ولما عرا من فقد خير أحبتي ... ومرارة التوديع والتشييع

فبكيت من أسف لذاك كما بكت ... حزنا عليه منازلي وربوعي

لم تنصف الأيام حرّ فراقه ... لاكنّه قد أنصفته دموعي

عجباً لأجفاني سخت بدموعها ... والقلب محترق بنار ضلوعي

هذي تجود وذا يشح بناره ... فعنيت بالممنوح والممنوع

والبين فوّق سهمه ورمى به ... عمداً الى قلب الشجي الموجوع

آه لوصل قطّعته يد النوى ... ولحسرة الموصول والمقطوع

والدهر أفجعني وغيّر باطني ... حتى أضرّ بقلبي المفجوع

فعدمت سلواني وبان تصبّري ... وفقدت خلاني فزاد نزوعي

ولكم خشيت الفقد قبل وقوعه ... ولكم حذرت مرارة التوديع

يا مسعدي أبصرت ما فعل النوى ... بكريم قوم في التراب صريع

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بمناسبة وفاة والده ، في شعبان (763هـ) وقد وردت في بغية الرواد ، ج 2 ، ص 105 ـ 106 . وهي من بحر الكامل .

في طي لحد بالثرى فكانـــه ما كانـــ في عزّ وفي ترفيع
والقصر أمسى ماحلاً من بعده ومنـــازل تزهى بكل صنيع
ونمارق مصفوفـــة قد زيّنت من درّهـــا المنظوم بالترصيع
ومقاصر لم يُبْنَ قط مثالهـــا من قبل للمامونـ والمخلوع
والأسد تخضع والملوك تهابـــه فلكم له من سامـــع ومطيع
ولكم تزاحفت الكتائب خلفه فيروع باساً وهو غير مروع
ولكم عساكر قادها يوم الوغى من كل صنديـــد بكل نجوع
من خير قوم من أجلّ عشيرة وأعز منتسب إليـــه رفيع
سبط الحسين ابن البتول وجدّه خير الأنام أجل كل شفيـــع
من كان هـــذا أصله أو فصله فله العلى في منزل الترفيـــع
قد حاز أشتات المحـــاسن كلها فاعجب لحسن ثنائه المجموع
جود ومجد والشجاعة والندى والجود في طبع له مطبـــوع
فبكفّه بأس وفيـــه رحمة قسمان بـــين معاند ومطيـــع
عدل إذا يقضي وغيث إن يجد وحسامه نار لكـــل قريع
قد كان كهفاً للأنام وعـــدّة وحمى لمن يرجوه جـــدّ منيع
حتى دنا منـــه الحمام فصابه سهم الردى وانبتّ كل جميع
ترك الجميـــع وصار عن أحبابه لم يغن ما قد ضمّ من مجموع
لو كان يعرض للفداء فديتـــه بالدرّ ثم بعسجد مطبـــوع
وبما ملكت وناظري وحشاشتي وبمهجـــتي وبقلبي المصدوع
قد كان لنا منه أباً ذا رأفـة كنا له في البرّ جدّ مطيـع

حتى رمي الدهر المشتّ بسهمه   في شملنـــا المنظوم والمجموع
فاحذر زمانك لا يغرّك انـه   في شهده يـــاتي بكل فظيع
وكذلك الدنيا فلا تأمن لها   فلكم تغرّ بوصلهـــا المقطوع
ولكم غدا في أمرها من ماجد   ولـــكم لها من ضيغم مصروع
أين الملوك وأين ما قد جمّعوا   من كل ذخر في الحياة رفيع
ساروا فلم تسمع لهم خبراً ولم   ترَ منهم أثراً يـــلوح بريـــع
وأبادهم صرف الزمان وخلّفوا   ما جمّعوا من جنّة وزروع
لم يبق منها غير فعل صالـــح   يمـــلا الصحيفة أو ثنا مسموع
أو حبّ خير المرسلين محمـــد   شرف البريّة درّة الترصيـــع
صلى عليـه الله ما لاح الضيا   أو حطّت الركبان بالينبـــوع
ثم السلام عليـــه من مستعصم   بجاه خير حمى بخير شفيـــع
موسى بن يوسف مرتجيه في غـد   للفوز من هول هنـــاك فظيـــع

9 - صب تذكر عهداً (1)

صب تذكر عهداً بالحمى سلفـاً ... فظل يسكب دمعاً هاطلاً وكفا
وبات من شدة الاشراف في قلق ... وخامرت عقله الأفـكار فاختلفـا
وهيّجته الصبا يوماً بهم فصبا ... وصاح من وهج التبريح وا أسفا
وظل يركض في ميدان ِمرّته ... ولا درى أن ناعي الموت قد هتفا
والدهر منقلب والعمر منصرف ... والعبد مقترف للذنب زاد جفـا
بانت شواهده من كل جارحة ... والدمع أفصح ما قد كان قبل خفى
وكم حمامة وصل بيننا صدحت ... وكم غراب النوى في غصنها وقفا
لا تأمن الدهر والدنيا وزينتهـا ... إن الزمان ولو يدنيك منصرفا
وكم خليل تخلى عـن أخلتـه ... وكم خليل صفا في وده وصفـا
قد كان لي في الدنى أب يساعدني ... فصار تحت الثرى في لحده اكتنفا
مددت في ظل نعماه يدي زمنـاً ... ونلت من رفده في دهره التحفـا

---

(1) أورد صاحب زهر البستان (ورقة 84و) هذه القصيدة ، وذكر أن أبا حمو رثى بهاأباه أبا يعقوب يوسف بعد وفاته في شعبان (763هـ) ولم ترد هذه القصيدة في غيرها من المصادر التاريخية ، وهي من بحر البسيط .

رعى جناني وليد غير مضطجر حتى ترعرعت في ظل له ورفا
وكلما قد رآني صرت يافعـــة لها وسرّ وأسدى لي منه عرفا [1]
يا كابد الدهر في الثرى ليكسبني ويبتني لي في نيل العلى غرفا
يسرّه إن رآني سرت في ترف ويستزيد على الأعداء بي صلفا
وإن عراني ما أخشاه من دنف بكى ورق وأضحى يشتكي لهفا
كأن ذاك الذي قد ذقت من وجل أصابه [2] فهو يشكو ذلك الدنفا
لا غرو أنّا رجال لا نفيء بما للوالدين علينا بالحقوق وفـا
مولاي يوسف أفجعت البنين وقد أضحى وليدك موسى ناحبا نحفا
لو كنت تفدى بمال أو بنفس فتى فدتك نفسي ومالي كي أبي نصفا[3]
لاهملن دموعي ما حييت وان أبقاني العمر ترفت الدما ترفا
يا فقد يوسف ما أبقيت لي جلدا يا فقد يوسف ان الصبر عنك عفا
ما مثل يوسف مفقود لفـــاقده ولا كموسى أخو فقد اذا وصفا
أصيب بالمعضل الادمـــى بوالده كفقد يوسف لكن حتف ذا جحفا
يا قبر يوسف لا تهدوك هاميـــة من الغمام ولا زال الثرى رعفـــا

---

(1) كذا في الأصل . وهو مخل بالوزن . ولعـــل الصواب أن يقال : وأسدى منه لي عرفا .

(2) لا يمكن أن يستقيم الوزن الا بزيادة كلمة في أول هذا المصراع ، مثل التي اثبتناها .

(3) كذا في الأصل .

يا دهر[1] كم لك في الأحباب تفجعني وهكذا الدهر ما أوفى ولا نصفا
فرقتنا بعدمـــا كنت تجمعنا وقد نثرت نظاما إذ وهي الصدفا[2]
أفجعتني يا زمان اليوم في خلدي ما أسرع الموت في الأحباب حين وفى
صارت مساكنهم تحت التراب وقد تمزّق الدود مـــا قد كان مؤتلفا
الماء والنار مجموعان في كبدي فاعجب لضدين في قلب قد ائتلفا
نار تشب وأكباد تذوب بهـــا ويح المعذب بالجنسين يا لهفـــا
أين الذين بنوا من قبلنـــا وناوا وشيدوا أطما واستوطنوا غرفا
وظنهم أن هذي الدار باقيـــة ولم يظنوا بأن الدهر ساء صفا
كم من قرين مع الأحباب مبتهج أمسى فريدا وأضحى بدره كسفا
وكم غريب بعيد الدار ذي حزن أضحى من الغرب يحكي اللام والألفا
الموت باب وكل الناس داخله والعبد يجزى بما جنى وما اقترفا
والله مطّلع فوق العبـــاد وقد يواخذ العبد في الدنيا بمـــا سلفا

---

(1) في الأصل : يادار . وهو غير مطابق لما بعده ولعل الصواب مـــا أثبتنـــا .
(2) كذا في الأصل .

الشِّعر الدّيني

المولديات

10 ـ نام الأحباب ولم تنم [1]

نام الأحباب ولم تــنمِ عيني بمصارعة النــدمِ
والدمع تحــدّر كالديم جرح الخــدّين فوا ألمي
وزجرت النفس فما ازدجرت [2] ونهيـت القلب فــلم يرم
ونذير الشيب لقـــد وافى وحلول الشيب من [3] الهرم
والعمر تولّى منصرمـا آه للعمــر المنصرم
وكذا الأيام لهـــا عبرٌ [4] وليالي الدهر كما الحــلم
والدار تغرّ بساكنهــا ويح المغرور بهـــا النهم
يا نفس خــدعت بزخرفها كم تغــترّين [5] بهـــا وكم

(1) أنشدت هذه القصيدة بمنـاسبة مولد سنة (760 هـ) . وقد وردت في كتاب بغية الرواد ج 2 ، ص 41 - 42 ، وفي واسطة السلوك، ص 10 – 11 . وهي من بحر المتدارك .
(2) وفي واسطة السلوك : فما انزجرت .
(3) نفسه : مع .
(4) وفي بغية الرواد : دول .
(5) نفسه:كم ذا تغتر .

يا ربّ ذنوبي قد عظمت فـامنن بالعفو لمجترم
فالعفو إلهي منك وان الذنب وحقك من شيمي
شأن الملوك الذنب وشا ن المولى العفو عن الخدم
اني بذنوبي معـترف والخوف أشد من الألم
يا رب إذا لم تعصمـــني ما لي بذنوبي من عِصَم
كم أجـــني الذنب وتمهلني وتقابل ذلـك بالنعم
ولكم أعصيك وتسترني يا ذا الأفضال وذا الكرم
ما زلت بفضلك ترحمـــني وتجود عليَّ على القـدم
والعبد ببابك ملتزم وبغير جنـــابك لم يحم
يا رب أنلني منك رضى [1] فرضاك الفوز لمغتنم
يا رب سالتــــك تغفر لي بشفيع الخلق من الأمم[2]
أدعوك إلهي معتذراً في ضوء الصبح وفي الظلم
قلبي انفطرا والدمع جرى والركب سرى نحو العلم[3]
قلبي بنواه [4] أسير هواه فيا شوقـــاه إلى الخيم[5]
سرت الإبـــل لما ارتحلوا قلـــبي حملوا في ركبهم

---

(1) وفي بغية الرواد : ورضى المحبوب له أرب .
(2) وفي واسطة السلوك (النسخة المطبوعة) : بشفيع الخلق وكهفهم .
(3) وفي بغية الرواد : نحو الخيم .
(4) نفسه : بهواه .
(5) نفسه : الى العلم .

حملوا خلدي أفنوا جلدي تركوا جسدي رهن السقم
حطّ العشاق ركائبهم بين العلمين وبالحرم
وغدا [1] المشتاق بزفرته في مغربه يبكي بدم
قد قيّدني ما قلّدني من أمر [2] حكيم ذي حكم
وصروف الدهر تعارضني عمّا أبغيه من القسم
ساروا وذنوبي تقعدني [3] فقرعت السنّ من الندم
وبكيت الدمع على زللي ومزجت الدمع بفيض دم
بدت الأنوار على السّمار [4] من الأقمار بذي سلم
زاروا الهادي بهوى بادي وحَدا الحادي عزماً بهم
شدّوا عزموا فازوا غنموا لما قدموا لحمى الحرم
طافوا بالبيت وقد وقفوا ودعوا إذ ذاك لربّهم
غفرت بالبيت ذنوبهم عند الإقرار بذنبهم
جسمي بتلمسان دنف والقلب رهين بالحرم
ولأني أمير الخلق فلم أسطع سَيْراً [5] من أجلهم
فأقمت أصلح ما أفسدت [6] بالغرب الفتن الدهم

---

(1) وفي واسطة السلوك : وبقى .
(2) نفسه : من حكم .
(3) نفسه : والذنب قد أقعدني .
(4) وفي بغية الرواد : الزوار .
(5) وفي واسطة السلوك : سفرا .
(6) وفي بغية الرواد : ما خرقت .

وبعثت رسالة مكتئب لشفيـــع العرب مع العجم
أرجو في الحشر جوائزها من خـــير وفيٌّ بالذمــــم
ندمي إن [1] لم أعمل قدمي عوض القرطاس أو [2] القلم
بدعا عيسى وبادريسا يرجـو مـوسى كشف الألم
ويخصّـك [3] يا أســـنى قمر بصلاة فائقــة العظم
وسلام يفضح كل شذى يزري بالزهـــر المبتسم [4]

---

(1) وفي واسطة السلوك : اذ .

(2) نفسه : مع .

(3) نفسه (النسخة المطبوعة) : ونخصك .

(4) وفي بغية الرواد : ما دار لسان بالكلم .

11- قفا بين أرجاء القباب [1]

قفـــا بين أرجاء القباب وبالحيّ … وحي دياراً للحبيب بهـــا حيّ
وعرج على نجد وَسلْـع ورامة … وسائل فدتك النفس في الحي عن مَيّ
وقل ذلك المضنى المعذب بالهوى … يموت ويحيى فارث للميت الحيّ
وبث لهم وجدي وفرط صبابتي … ورو [2] حديثي فهو أغرب مرويّ
يعذّبني شوقي ويضعفني الهوى … وقلبي على جمر من الشوق محميّ
لبست ثياب السقم في دوحة الهوى … وقد صبغت في حبهم لون عوديّ
تحلّيت في أهل الهوى بهواهم … فما لي سوى زيّ المحبة من زيّ
وصرت اذا هبت نسيمات أرضهم … على شجرات البان أو فضب نسريّ
أميل بهـــا شوقا اليهم وأنثني … كما ينثني قدّ الحسام الفرنديّ
وأصبو الى أرض الحبيب ومن بها … متى ماسرى عرف النسيم الحجازيّ
رعى الله داراً بالحمى قد عهدتهـــا … وسقى [3] ثراها صوب مزن سماويّ

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بمناسبة الاحتفال بمولد سنة (761هـ)، وهي من بحر الطويل .

(2) كذا في الأصل .

(3) وفي بعض النسخ : ويسقي .

وكم نفحة تحيي الفؤاد بنشرها اتت بنسيم عاطر النشر مسكيّ
أعلّل نفسي بالنسيم اذا سرى وبالبرق إذ يسري وسجع القماريّ
أحبة قلبي ما امرّ فراقكم على قلب صبّ لا يطيق على شيّ
حياتي وموتي في هواكم وانني أعلل نفسي فيكم بالاماني
لقد اقعدتني عن حماكم قلائد وليس عناني عن هواكم بمثنيّ
فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى فإنني في بحر من الشوق لجّيّ
مقيم باقصى الغرب أشكو به الجوى وحالي على حكم النوى غير مخفيّ
ويا حاديا يحدو الركاب اليهم أنخ بربي نجد وسلم على طيّ
وأخبرهم اني أراعي ذمامهم فما لذمامي عندهم غير مرعيّ
تناسيتم عهدي وطول مودتي وحبكم في القلب ليس بمنسيّ
فيا ليت شعري والديار قصية متى تسمح الأيام لي بلقا الحَيّ
عسى الدهر يدنيني ويسمح باللقاء فيشفي غليل القلب من ذلك الرَيّ
فقد طال هجراني وأعيا تعلّلي وأذكى أوار الشوق لاعج جمريّ
وقد قطعت قلبي القطيعة والنوى بابيض هندي واسمر خطيّ
وتالله مالي غيركم ان هجرتم فهجركم يردي ووصلكم يحيي
سلام على الدنيا اذا لم أراكم (1) فمرآكم في الحسن أبدع مرئيّ
ويا أسفي يوم الحساب ويا أسى اذا كان سعيي عندكم غير مرضيّ
وما أرتجي الا شفاعة خير من أتى بالهدى يهدي لدين حنيفيّ
به يرتجي العاصون غفران ذنبهم وما عملوا في الدهر من عمل سيّ

---

(1) كذا في الأصل .

فمولده قد أشرق الكون كله وكل سَنَى شمس وبدر ودرّي
سلام على من بالبقيع وبالحمى سلام على البدر المنير التهاميّ
سلام من المشتاق موسى بن يوسف على خير خلق الله هاد ومهديّ
سلام مشوق أثقلته ذنوبه وأخّر عن سير وقيّد عن سعي
بيثرب قلبي والحجاز مودتي وان عاقني عن كل رشد به غيّي
بنفسي وروحي أهل طيبة انها شفاء عن الآثام والزيغ والبغي
فيا ليت شعري هل أزور محمدا وأمنح ما أهواه من منزل الوحي
لئن أخرتني عن زيارة أحمد قلائد أمر قيّدتني عن السعي
فربي أرجو أن يمنّ بقربه قريبا وشوقي لا يقابل بالناي
عليه سلام الله ما حنّ شيق الى قبره يطوي الفلا أيما طيّ

12 ـ نزلتم من فؤادي منزلا حسنا (1)

نزلتم من فؤادي مــــنزلاً حسناً   وكل مـا ساءني في حبكم حسُنا
بنتم فلم أتّخذ من بعدكم سكنا   وحبكم في صميم القلب قد سكنا
وبُعْدُكم صار عندي ساعة بسنا

سرتم ولم تعلموا بالبين ما فعلا   بهائم مدنف لا يبتغي بــــدلا
هلا رحمـــتم محبّاً بالنّـوى قتلا   متيّـماً صار في أهل الهوى مثلا
لم يتخذ بعدكم خلاّ ولا وطنا

يا راحلين وللتوديع ما عطفوا   وسائلين وبالمشتاق مـــا عرفوا
قفوا قليلاً على مضنى الغرام قفوا   خذوا فؤاد المعنّى الصبّ وانصرفوا
لا أبتغي منكم رهنا ولا ثمنـــا

---

(1) اعتاد أبو حمو أن ينظم قصيدة بمناسبة الاحتفال بالمولد الشريف ، في كل سنـــة فنظم هذه القصيدة في مولد سنة (762 هـ) . وقد وردت في بغية الرواد ، ج 2 ، ص 84 ـ 87 : وهــــي من بحر البسيط .

هجرتم دون ذنب لا ولا سبب قطعتم القلب بالتبريح والوصب
فظلت[1] من حرّ نار الشوق في لهب أعاتب الدهر فيما جر من نوب
يا دهر أفجعت قلبي بالنوى زمنا

لو أنصف الدهر ما فارقتكم أبدا ولا رضيت سواكم في الهوى أحدا
لم يبق لي بعدكم صبرا ولا جلدا والنوم عن مقلتي من بعدكم شردا
وقد حرمت لذيذ العيش والوسنا

هلا كفوني أهيل الحب هجرهم ما ضَرَّ لو انهم جادوا بوصلهم
ما كنت أدري الهوى حتى عرفتهم وعبرتي ما رقت من بَعد بُعدهم
والقلب في حبهم ما زال مرتهنا

يا حادِيَيْ ظعنهم نحو الديار قفا ننشد فؤاداً بذاك الحي قد تلفا
وسائلا بربى نجــد لمن عرفا قولا لهم ذلك المشتاق قد شغفا
وقلبه بأليم الشوق قــد طعنا

هل مخبر كيف أحبابي وما صنعوا أبا لحمى خيموا أم عنه قد رجعوا
ساروا بقلبي وشملي بالنوى صدعوا يا ليت شعري بذاك القلب هل قنعوا
أم هل أبشر في نجــد بالفتنا

يا هاجرين وهجر الصب ما وجبا أبعدتموني ولم أدر لذا سببــا
وصرت في حيكم من جملة الغربا وقلت يا دهر جد لي بالرضى فأبى
يا دهر هلا كفتك اليوم فرقتنا

(1) كذا في الأصل ، أي ظللت .

شدوا عشية يوم البين وارتحلوا ولا درى الصب بعد البين ما فعلوا
هل بالنقا خيموا ام بالحمى نزلوا ناديت من شدة الاشواق يا رجل
ردوا الركاب فان القلب قد ظعنا

أنا المشرق فهل خل يساعدني على البكاء مـــدى الأيام والزمن
قد خانني فيكم من كان يألفني لعل دهري بكم حينا سيجمعني
فيشتفي قلب صب بالغرام فنى

لقـد أضر بقلبي لاعج الوهج وقـد مزجت بدمعي كل ممتزج
والشوق اثر في الاحشاء والمهج فالله يعقب بعد العسر بالفرج
فيسعد السعد والأيام تجمعنا

ما كان احسن عهد بالحمى سلفا وطيب عيش حلالي ورده وصفا
ضيّعت عمري في التسويف وأسفا فها أنا بعـــد شمل كان مؤتلفا
أبكي الربوع وطورا أندب الدمنا

كم ذا أكابد حر الشوق في كبدي وكل شَيْءٍ بعين الواحد الصمد
يا نفس لا ترج غير الله من أحد يغنيك عن عدد في الحرب أو عدد
فلم يزل بجميل اللطف ينصرنا

رحماك يا رب ان الذنب من قبلي فوفق العبد للاخلاص في العمل
وهب له فرجا ياتي على عجل بحق أحمد خير الخلق والرسل
من في غد من عظيم الذنب ينقذنا

يانفسْ لا تقنطي يا نفسْ واصطبري ولازمي الجد في ورد وفي صدر
لزورة المصطفى المختار من مضر فان ختمت بهذا منتهى عمري
فقد ظفرت بعزّ دائم وهنـــا
وهبت نفسيَ للحادي اذا قبِلا كي أبلغ القلبَ من ذاك الحمى أملا
وأبصر البيت والأركان والحللا أطوف سبعة أشواط به رملا
وانثني لِمنًى قد حزت كل مُنَى
يا أكرم الخلق عند الله منزلة كم لي أروم الى مغنـــاك مرحلة
لكن أمور عدتني عنـــك معضلة منها ذنوب غدت للظهر مثقلة
وما من الحكم رب العرش قلّدنا
يا رب عبدك موسىٰ ذنبه عظما فهب له العفو جودا والرضى كرما
وارحم ضراعته يا خير من رحما يا رب لا تبعد الجاني بما اجترما
أنت الغنيّ وما للخلق عنك غنى
أهلا بمولد خير الخلق حين بدا وفاض منه على الآفاق نور هدى
أرجو شفاعته يوم الحساب غدا يارب صل عليه دائمـــاً أبدا
ما صافح الريح روضا أو ثنى غصنا

13 ــ مشوق تزيا بالغرام [1]

مشوق تزيّـا بالغرام وشاحا
متى ما جرى ذكر الأحبّة باحا

تعذّبه أشجانه وهـــو صابر
ويبـدي اشتياقاً زفرة ونواحا

محب مشوق قيّـدته يد الهوى
أسير لديكم لا يريد سراحـا

عذابي صلاح في رضاكم فانكم
رأيتم صدودي في الغرام صلاحا

رميتم بأكبادي سهام نوالكم
واودعتم قلبي أسى وجراحا

فتكتم بالحاظ مراض فواتر
لقد خلتها يوم الصدود رماحا

تقطّـع ما بين الحشا وبمقلتي
دموع جرت فوق الخدود سفاحا

ركبت لَـكُـمُ مركبَ الشوق رائضا
كما قد ركبتم للصدود جماحـا

مزحتم بهجري يوم جدّت بي النوى
فعاد النوى جدّاً وكان مزاحا

وسلت سيوف البين بيني وبينكم
فلم يغن عني ما اتخذت سلاحا

---

(1) انشدت هذه القصيدة في الاحتفال الذي أقيم أثناء مولد سنة (763هـ) ولم ترد هذه القصيدة الا في كتاب بغية الرواد ، ج 2 ، ص 97 ــ 99 ، وهي من بحر الطويل .

اهيم بمغناكم وأندب ربعكم ويشتاقكم قلبي مساء صباحـــا

اكافح دهري بالتجلد فيـــكم وأفني زماني بالغرام كفاحا

فلا تنكروا مني التنهـّد في الهوى فلم ير أهل الحب فيه جناحا

لكل محب في التأوّه راحة اذا أنَّ من فرط الغرام وناحا

فكم زفرة في القلب أحرقت الحشا كنار تلاقي في الهبوب رياحا

أبحتم صدودي في الغرام ولم تروا وصاليَ في شرع الغرام مباحا

وحرمةِ وجدي لاسلوت سواكم ولا رمت عنه ما حييت براحا

اجود بنفسي في رضاكم صبابة فهلا مننتم بالوصال سماحـــا

يخط كتاب الشوق دمعي بوجنتي ويروي احاديث الغرام صحاحا

جفوني بماء الدمع جادت وأضلعي بنار غرامي لم يزلن شحاحا

وكم قد شجاني بارق من جنابكم يذكر دهرا بالأحبـّة راحا

الا ليت شعري هل أزور بطيبة ربوعا بها حلّ الهدى وبطاحا

اسكن أشواقي بقرب لقـــائهم وأنشد قلبـــا بالابيطح طاحا

لعمري لقد قضيت عمري في الصبا وأجريت خيل اللهو فيه مراحا

وولى شبابي في التصابي ولاح لي مشيب به عاد المساء صباحا

فيا حاديا يحدو الركاب لطيبة يجوب بها بحر الفلاة طلاحا

إذا جئت نجدا أو نشقت نسيمها وشمت عرارا ربوة وبطاحا

فصرح بذكري في الخيام وأهلها وناشدهم شوقي هناك صراحا

وبلغ الى خـــير الانام تحيـّتي كما نمّ زهر في الرياض وفاحا

نبي له فضل على كل مرسل أتت ألسن الذكرى بذاك فصاحا

سرى فسما بالقرب من ربه إلى … مقام رأى الاملاك عنه نزاحا
وشقّ له البدر المنير وقد غدوا … له لا إلى البدر المنير طماحا
اذا ظمىء الأقوام يوما سقاهم … بماء معين بالانامــــل ساحا
بمولده صبح الهداية قــــد بدا … فزال به ليل الضلال وزاحا
وأشرقت الآفاق بالنور عندما … بدا وجه خير المرسلين ولاحا
الا يا رسول الله دعوة شيّـق … يؤمل آمالا لديك فساحا
مقيم بغرب[1] كاد من فرط حبه … يطير اشتياقاً لو أعير جناحا
ومالي سوى حبي اليك وسيلة … أمُـدُّ بها نحو الشفاعة راحا
عُبَيْـدك موسى منك يرجو شفاعة … ينال بها يوم الحساب نجاحا
عليك سلام طيب النشر عاطر … يروح ويغدو بكرة ورواحا

(1) كذا في الأصل : يعني : في المغرب .

14- ذرفت لتذكار العقيق دموعي [1]

ذرفت لتـذكار العقيق دموعي وازداد شوقي للحمى وولوعـي
والحب شب أواره بضلوعي من لي بشمل بالحمى مجمـــوع
ويجبر قلب بالنوى [2] مصدوع

هب النسيم من أرض نجد شاقني والبرق أرقــني بسناه وراقني
والذنب عن وصل الأحبة عاقني وجرت دموعي كالعقيق وخانني
صبري وكان الشوق أصل [3] خضوعي

حبي شفيع للحبيب إن أعرضا والحب باب للشفاعة والرضى
لاكنني ضيعت فيا قد مضى رمت المسير فلم يساعدني القضا
ولكم نشرت إلى الرحيل قلوعي

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة المخمسة بمنــاسبة الاحتفال بمولد سنة (764 هـ)، وقد وردت في بغية الرواد ، ج 2 ص 125 ـ 127 ، وفي واسطة السلوك مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، وهي من بحر الكامل .

(2) وفي واسطة السلوك : بالهوى .

(3) نفسه : باب .

قضّيت عمري في لعل وفي عسى   والعبد يرغب في الصباح وفي المسا
في زورة تمحو له ما قــد أسا   والقلب منفطر يذوب له أسى
والدمع منحــدر كما الينبوع

شان المحب على زيادة حبــه   عزم المسير إلى زيارة حبــه
لو كان ساعدني الزمان بقربه   لحططت رحلي في مقدس تربه
وهجرت خــلاني له وربوعي

أخطات مرباي [1] وغيري ماخطا   وتبعت غيّي في الذنوب وفي الخطا
والشيب وافى والشباب تفرطا   يا سعد ساعدني على زمن سطــا
هل للزمان مساعد برجوع

أسقي الثرى من مدمعي لما همى   والقلب هام وثار شوقي أضرما [2]
شوقا لمحبوبي منامي قــد حمى   ولقد شغفت بحب من سكن الحمى
وحرمت لذاتي بــه وهجوعي

قد زاد شوقي للعقيق وللصفا   ولروضة الهادي النبي [3] المصطفى
يا أهل ودّي انتم أهــل الوفا   وانا المحب لــكم وقد برح الخفا
واليــكم دون الأنام رجوعي

صبصبا [4] قلبي ودمعي قد جرى   وهجرت سلواني ولذات الكرى

---

(1) المربأ هو المرقاة ، يريد الرشاد والصلاح .
(2) كذا في واسطة السلوك . وفي بغية الرواد : ضرما .
(3) وفي واسطة السلوك : الشفيع .
(4) كذا في الأصل ، وفي طبعة الفرد بيل لبغية الرواد : سبى .

وبحالتي من شوق نجد ما ترى   شوقاً لمن ركب البراق وقد سرى
لمقـــام عِزٍّ في السماء رفيـع

يا ليلة الاثنين نورك قـــد سما   وانجابت الظلماء عـــن افق السما
وانهد ايوان لكسرى عندمـــا   خلق [1] النبي الهاشمي معظما [2]
في ليـــلة غرا بشهر ربيـع

والبدر شقّ بغير إفك يفترى   لمحمد المختـــار من خير الورى
والجذع حنّ اليه من غير امتِرا   والماء نبعـــا من أنامله جرى
من غير ممنون ولا ممنوع

سعد الزمان بخير من وطيء الثرى   في ليـــلة الاثنين لاح وأقمرا
يا حاديا يطوي الفلا بيد السرى   رفقـــا علي فما أطيق تصبرا
عمن تحكّم حبـــه بضلوعي

بهدى رسول الله أمته اهتدت   بظهوره الأصنام خرت وارتدت
وبنوره نيران فارس أخمدت   ودلائل [3] بانت وآيات بـــدت
وشفاعـــة جاءت لكل مطيع

يا رب كم لي بالذنوب أنوسا   ولكم أطلت مع العصاة جلوسا

---

(1) وفي واسطة السلوك : ولد .
(2) نفسه : الأكرمـــا .
(3) نفسه : وعجائب .

وسقيت من فقد الحبيب كؤوسا　　يا رب يرجو منك عبدك موسى
عفوا يبلـــغ منزل الترفيـع

أدعوك دعوة مستهـــام واله　　أوليتني الاحسان منـــك فواله
واسمح لعبدك عن قبيح فعاله　　فوسيلتي حب النـــبي وآله
خير البرية وهو خير شفيـع

15 ـ هوينا الظبا [1]

هوينا الظِبا وألفنا الظُّبا　　وكم من فؤاد اليها صبا
إلى أن بدا الشيب في مفرقي　　وأجريت من خيله أشهبا
فأيقظني الشيب من غفلتي　　ففي لمّتي من حديثي نبا
وقد عاد غضّ شبابي به　　محيلاً ولوني غدا مذهبا
فوا أسفي من ذنوب مضت　　تقضّيتها في زمان الصّبا
وكم لمت نفسي فما أقلعت　　وعاتبت قلبي فما أعتبا
وكم قد بكيت لذنب جنيت　　وقلبي نهيت ولاكن أبى
مسيء قسا قلبه إذ أسا　　فذاب أسى عندما أذنبا
لقد حِق أبكي على زلتي　　فذنبي لهجري قد أوجبا
وليس لخطبي وتمحيص ذنبي　　سوى فرط حبي لأهل العبا
فيا أهل ودّي لقد زاد وجدي　　إلى أهل نجد وأهل قبا
فذكرهم عاد لي عادة　　وحبهم صار لي مذهبا

(1) أنشدت هذه القصيدة بمناسبة الاحتفال بمولد سنة (765 هـ) ، ولم ترد الا في كتاب بغية الرواد (ج 2 ، ص 137 ـ 138) . وهي من بحر المتقارب .

وحسنهم كم محبّ صبـــا إليـه وكم من فؤاد سبى
فـــان يرحموني فمن فضلهم وان يهجروني فيـــا مرحبا
وإن هم يجـودون لي بالرضى فيا ما ألذّ ومـــا أعذبا
فيا حادي الركب نحو الحمى إذا جئت نجداً وتلك الربى
فابلـــغ سلامي لسكانهـا ذكيّ الشذا عاطراً طيّبـا
وقل لهم يرحمون المحب فما اختار غيرهم مطلبـــا
فرقّوا لقلب غدا مشرقاً وحنّـوا لصبّ ثوى مغربا
فواكف أجفانـه مـا رقا [1] ولاعج أشواقـــه ما خبا
حمى النوم عنّـيَ برقُ الحمى وشاق فـؤادي نسيم الصبا
فجدّوا السرى لشفيـعالورى عسى أنـ ترى مقلتي يثربا
فالتمـــح النور من أرضها واستنشق المسك بل أطيبا
بـــلاد مقدّسة حلّـهـــا نبيّ الهـدى المصطفى المجتبى
فشهر ربيـع أتى برفيـع نبيّ شفيـــع لمن أذنبـــا
فاهـــلا وسهلا لمولى أحلاّ وبدر تجلّـى جلا غيهبـــا
نبيّ أتى رحمـــة للعباد وأظهر للحقّ نوراً خبـا
ونـيران فارس قد أخمـدت فلله ذلـك مـــا أعجبـا
وكسرى تساقط إيوانـــه وذاق من الرعب كاس الظبا
وخرّت قـــواعد إيوانـه وصارت رمياً كمثل الهبـــا
وكلّـمت الوحش للمصطفى ونطق الذراع له أعجبـــا

---

(1) كذا في الأصل (ورقأ الدمع اذا جف وانقطع) .

وحنّ له الجذع مستوحشاً وكلّمـــه الظبي مستغربا
وشقّ له البدر عنـد التمام وردّت له الشمس أن تغربا
وأسرى به ليـــلة الارتقا تجـلّ عن الوصف أن تحسبا
فيــا سيّـداً قد حباه الإله على الخلق طرّاً بما قد حبا
ويا من سما قدره رفعـــة ويا من علا في العلى منصبا
يخصّـك موسى بازكى سلام يروق النفوس كنشر الكبا
ومسك فتيـق وزهر أنيق بروض شريق حوته الربى
فربّـي حسبي لوجدي وكربي ومـا لي لذنـبي سوى المجتبى

16– يا من يجيب ندا المضطر [1]

يا من يجيب ندا المضطر في الدّيج ... ويكشف الضر عند الضيق والهوج [2]
ولطف رحمته يـــأتي على قنط ... اذا القنوط دعا يا أزمة انفرجي
ومن اذا حل خطب واعترت نوب ... أبدى من اللطف ما لم يجر في المهج
انى دعوتك جنح الليــــل يا أملي ... دعاء مبتهـــل بالعفو منتهج
يا كاشف الضر عن أيوب حين دعا ... قد مسّني الضر فاكشف كرب كل شجي
انت المنجي لنوح في سفينتـــــه ... ومخرج يونسا من ظلمة اللجج
يامن وقى يوسف الصدّيق كلّ أذى ... لما رموه بجُـبّ ضيّـق حرج
أجاب يعقوب لما أن بكي وشكا ... وجاءه منـــه لطف لم يخله يجي
وعاد بعـــد بصيرا حين هب له ... نسيم نشر القميص الطيب الأرج
أنجى من النار إبراهيم حين رمي ... فيها وعادت سلاما دون ما وهج
يا من تكفّل موسى وهو منتبذ ... باليمّ في جوف تابوت على لجـــج

---

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بمناسبة الاحتفال بمولد سنة (766 هـ) .
وقـد أوردها صاحب بغية الرواد (ج 2 ، ص 152 – 153) ،
وهي من بحر البسيط .
(2) وفي نسخة : والهرج .

وأمـــه من أليم الشوق والهة　　فؤادهـــا فارغ من شدة الوهج

يا من أعاد لها من بعد ما يئست　　موسى وقربه في المرسلين نجي

يا من كفى المصطفى كيد الأولى كفروا

اذ　جاءهم بكتاب غير ذي عرج

يا من وقاه الردى في الغار إذ نسجت

ببابـــه عنكبوت خير منتسج

وكلما حاولوا مكرا به انقلبوا　　بالرعب ما بين مكبوت ومنزعج

من قد أتى رحمـــة للعالمين وقد　　أحيا القلوب بوحي واضح الحجج

من عطّر الكون طيباً عند مولده　　وأشرق الأفق من دور له بهج

من أنزلت فيـــه آيات مطهرة　　انوارها كصبـــاح لاح منبلج

يبلى الجديدان اخلاقـــا وجدّتها　　مـــع الجديدين في نور وفي بهج

في طيها كل علم ظل مُنْدَرِجا　　وأيّ علم لديهـــا غير مندرج

وكم له معجزات مالهـــا عدد　　جلت عن الحصر من فرد ومزدوج

عمت شفاعتـــه للخلق كلهم　　وبالوسيلة يرقى أرفـــع الدرج

محمد خير خلق الله قاطبـــة　　نور الهدى وامام الرسل والسرج

يا حادي العيس عرّج نحو أربعه　　بالله عج بي على ذاك المحـــل عج

لله قوم الى مغناه قـــد وصلوا　　بالعزم إذ وصلوا الروحات بالدلج

ساروا فزاروا وفرط الذنب أقعدني　　وقد مزجت بدمعي كل ممتزج

فالجسم منتحل والدمع منهمل　　والقلب مشتعل من حرّه الوهج

وقد تقلّدت مـــا لا يستطاع له   من الخلافة أوهت من قوى حججي
يارب عبدك موسى قد دعاك عسى   تنيله نفحة من نصرك الارج
فكن نصيري فقد أصبحت مكتئبا   والقلب من نكث الاوزار كالسبج
قد ضقت ذرعا بزلاّتي وكثرتها   فما اعتذاري اذا طولبت بالحُجج
وكم قطعت من الايام في لعب   وفي ضلال وكم ضيعت من حجج
وفي البطالة لهوا قد مضى عُمُري   آه لتضييعـــه في اللهو والمرج
وكم عصيتك جهلا ثم تسترني   وباب فضلك عني غير مُرْتَتَج (1)
مني الاساءة والاحسان منك بدا   مني الذنوب وكل الفضل منك رجي
كم جدت بالفضل والاحسان منك وكم   سترت بالفضل من أفعـــالِيَ السمج
اني سألتك بالسر الذي ارتفعت   به السماوات والأرضون لم تمج
اصلح بفضلك ما قد كان من خلل   واجبر بحلمك ما قد بان من عوج
واجعل لنا مخرجا في اثره فرج   فكم تعامل بعـــد الضيق بالفرج
وصل صلاة على المختار من مضر   ما لاحت الشهب في الآفاق كالسرج

---

(1) ارتتج الباب : أغـلِــق .

17 ـ ألفت الضنى [1]

ألفت الضنى وألفت النحيبا | وشبّ الأسى في فؤادي لهيبا
وحقّ لنفسي أسى أن تـذوبا | وللدمـع من مقلتي أن يصوبا
وقد كنت بالوصل منكم قريبا | فأصبحت بالهجر منكم غريبا[2]
جفاني الحبيب فسرّ الحسود | وأدنى البعيد وأقصى القريـبـا
وذنبي أوجب هجري فمـــا | جفـاني حتى جنيت الذنوبا [3]
فيا ليت شعري هل عطفـــة | يكون بها الدهر عيشي خصيبا[4]
فما لي على الهجر من قـــدرة | فقد آدَ جسمي وأفنى القلوبا [5]
وقفت رجائي بكم فارحمـوا | وقوفي على بابكم مستريبـــا
غريب فريـــد أنا بينـــكم | وحاشاكم تفردون الغريبـــا

---

(1) نظمت هذه القصيدة بمناسبة مولد سنة (767 هـ) ، وقد وردت في بغية الرواد وكذلك في واسطة السلوك ، وهي من بحر المتقارب .

(2) وفي واسطة السلوك : بالهجرة أخشى الرقيبا .

(3) هذا البيت ساقط في واسطة السلوك .

(4) وفي واسطة السلوك : بوصل وعيش يكون خصيبا .

(5) نفسه : يذيب النفوس ويغشي القلوبا .

وما لي ذنب سوى حبكم وتالله عن حبكم لن أتوبا
فإن تقتلوني حلال لكم أنا أرتضي ما يرضّي الحبيبا [1]
وإن تبعدوني على زلّتي فشيمتكم [2] تغفرون الذنوبا
وإن ترحموا ترحموا صبّكم فظل رضاكم يغطي العيوبا
أسير هواكم قتيل نواكم لعلّ رضاكم يكون قريبا
فؤادي عليل وجسمي نحيل وسقمي طويل قد أعيى الطبيبا
هجرت الهجوع نثرت الدموع فسرّي أذيع وقلبي أذيبا
أبكّي الرسوم وأرعى النجوم أقاسي [3] الهموم معاً والخطوبا
أعاتب نفسي على زلّتي فيزداد جسمي ضنى وشحوبا
مسيء ألمَّ بذنب أذمّ وأجمع لمّا أسا أن يتوبا
سألتك يا خالقي توبة فما زلت للسائلين مجيبا
خشيت المعاصي بيوم القصاص إذا ما النواصي تشيب مشيبا
وأنت رَقيبي يوم الحساب كفى بك يوم الحساب رقيبا
فكم قد لهوت وكم قد سهوت ولكن دعوت سميعاً مجيبا
علياً بخطبي يفرّج كربي فما زال ربي يزيل الكروبا
مضى العمر يا حسرتي في الظلا ل واشتعل الرأس منه مشيبا

---

(1) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .
(2) وفي بغية الرواد : فشأنكم .
(3) نفسه : أداري .

وأضحى من الشوق جسمي عليلا ... وأمسى من الهجر قلبي كئيبا[1]

أحن إلى الفجر عند الطلوع ... وللشمس حين تروم الغروبا

إذا هبّت الريح من طيبة ... تعطّرت الأرض مسكاً وطيبا

فأصبو اليها ومن أجلها ... أحبّ الصّبا وأحبّ الجنوبا

تهبّ النواسم من أرضها ... فيزداد نار اشتياقي لهيبا[2]

حنيناً وشوقاً الى المصطفى ... الى من به الله يمحو الذنوبا[3]

إلى خير هادٍ هدَى للرشاد ... جميع العباد وجلّى الخطوبا

أجل[4] شفيع مكين رفيع ... أتى في ربيع فأحيا القلوبا

فاكرم بشهر حوى كل فخر ... بميلاد[5] بدر بدا لن يغيبا

كريم السجايا عظيم المزايا ... جزيل العطايا جميلاً مهيبا

فيا حادي العيس[6] نحو الحمى ... إذا جئت ذاك الجناب الرحيبا

وزاد الهوى حين زال النوى ... وجئت اللوى واعتمدت الكثيبا

لقبر التهامي لبدر التمام[7] ... لخير الأنام[8] شفيعاً حبيبا

---

(1) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد .

(2) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(3) وفي واسطة السلوك : آثار الغليل وأذكى الوجيبا .

(4) وفي بغية الرواد : لخير .

(5) وفي واسطة السلوك : بمولد .

(6) وفي بغية الرواد : الركب .

(7) نفسه : وخير الأنام .

(8) نفسه : وبدر التمام

فبلّغ إليه سلامي عليه فإن لديه لسقمي طبيبا
وإن جئت نجداً وأعلامها فشق ثراها بدمعي سكيبا [1]
فقبر الرسول مناي وسؤلي عسى بالوصول سأحظى نصيبا
فيا سعد قوم حدوا كل يوم وعن وضع نوم تجافوا جنوبا
حدوا بالنياق فزاد اشتياقي وسالت سواقي دموعي صبيبا [2]
تسنى لهم قصدهم عندما تسنّم كل نجيب نجيبا
وزمّوا الحمول وأمّوا الرسول فجابوا السهول معاً والشعوبا [3]
سروا في الدجون [4] ففاضت جفوني
وقد خلفوني مشوقاً كئيبا
فقلبي من الشوق في مشرق
وجسمي في الغرب أمسى غريبا [5]
سقوني كؤوساً تذيب النفوسا ويرجوك موسى تزيل الكروبا
بحرمة أحمد خير الورى رجائي وظني به لن يخيبا
نبي أتى رحمة للعباد فمحّى ومحّص عنا الذنوبا

---

(1) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد .

(2) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد .

(3) كذا في واسطة السلوك (المخطوط المذكور سابقا) وفي النسخة المطبوعة منه: نعم والشهوبا ، وفي بغية الرواد : له والشهوبا (والمراد بالشعوب الشعاب وهي الطرق في الجبال).

(4) وفي بغية الرواد : بالدجون (والدجون هو سواد الليل) .

(5) وفي واسطة السلوك : وجسمي بالغرب اضحى غريبا .

وسنّ الشريعة للمؤمنين وشنّ على الكافرين الحروبا [1]
بمولده أشرق الأُفق نوراً وألبست الأرض حسناً قشيبا
وكسرى تساقط إيوانه وكاد من الرعب يلقى شغوبا [2]
ونيران فارس قد أخمدت وإخمادها كان سراً [3] عجيبا
وجفّت موارد أنهارهم وقد أعقبت بعد ريّ نضوبا [4]
وحنّ له الجذع مستأنساً [5] وأبدى إليه الأسى والنحيبا
دعا بالعباد لسقي البلاد فأخصب ما كان منها جديبا [6]
وشق له البدر عند التمام وكلّمه الظبي يشكو الخطوبا

---

(1) هذا البيت ساقط في بغية الرواد .

(2) كذا في مخطوط واسطة السلوك ، وفي النسخة المبطوعة : شعوبا (وكذلك في بغية الرواد) .

(3) كذا في مخطوط واسطة السلوك ، وفي النسخة المطبوعة : أمرا ، (وكذلك في بغية الرواد) .

(4) في الأصل : نصوبا ، وقد سقط هذا البيت في بغية الرواد .

(5) وفي بغية الرواد : مستوحشا .

(6) هذا البيت لم يرد الا في مخطوط واسطة السلوك ، وقد سقط في النسخة المطبوعة وفي بغية الرواد .

وكـم معجزات له أعجزت جميـع الورى شاعراً أو خطيبا
عليـه السلام[1] مـا تبكّـى حمـام
وما أضحك الروض ثغراً شنيبا [2]

---

(1) لا يستقيم الوزن الا بتسكين الميم .

(2) وفي النسخة المطبوعة من واسطة السلوك : قشيبا .

18- الحب أضعف جسمي[1]

الحب أضعف جسمي فوق ما وجبا والشوق ردّ خيـــالي بالسقام هبا
والبين أشعل نار الوجد في كبدي والدمع يضرمها في القلب واعجبا
ماء ونار وأكبـاد لهـــا شعل والقلب بينهما قد ذاب والتهبا
ضدان قد أجمعا عونا على سهري لكن عذابي بها في الحب قد عذبا
ما كنت أدريها حتى صحبتها كرها وقد يكره الانسان من صحبا
احداهما قاتـــلي آه اذا اجتمعا وبعض خطبها للصب قد صعبا
سهد وبعـــد وأشواق تلازمني وكلها لعذابي قـــد غدا سببا
أكابد الليل بالتسهيد مفتكرا ولا أبالي به إن طـــال أو قربا

(1) نظم أبو حمو هذه القصيدة بمناسبة احتفاله بمولد سنة 768 هـ ، وقد وردت في بغيـــة الرواد، ج 2 ، ص 186 – 189 ، وفي واسطة السلوك (النسخة المطبوعة) ، ص 169 – 171 ، أمـــا مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر ، فانه لا يحتوي على هذه القصيدة ، وقد عوّضت بالقصيدة المخمّسة التي نظمت بمناسبة مولد سنة 764 هـ ، وهذه القصيدة من بحر البسيط .

ليلي نهار [1] ويومـــي كله فكر والنوم عن مقلتي من بعدهم سلبا
وقد شغلت بقلبي كل مشتغـــل وقد مزجت دما بالدمع منسكبا
وكلها لعذابي في الهوى سبب ولم أجـــد لوصالي بالنوى سببا
أكفكف الدمع من عيني فيغمرها كم بين من بات مسرورا ومنتحبا
من بعد ما كان دهر الانس يجمعنا والسعد يسعدنا والوصل قد عذبا
ولا رقيب ولا واش بحضرتنا واليوم بالبين حالت بيننا الرقبا
ما كنت بالوصل قبل اليوم مقتنعا واليوم أقنع إن هبت نسيم صبا
كانوا وكنا وحـــكم الدهر فرقنا وكم عسى يبلغ الانسان ما طلبا
وهكذا الدهر ما زالت عوائده فلا تثق بزمـــان بان أو قربا
يدني ويبعد في أحكامه أبـــدا هذا بذاك ولا عتب لمـــن عتبا
كم نفحة بعد قطع الياس نافحة تهدي لنـا عاطرا من ثغره شنبا
وكم أعلل قلبي بعـــد فرقتهم ان التعلّل للاحباب فيـــه نبا
وقد تعلمت من حبيّ لهـــم خببا وخيل راحتنا تجرى بنـا خببا
ما للمحب دواء غير وصلهـــم يبري له السقم والتبريح والوصبا
وقد تقطع قلبي بعـــدهم قطعا لما نأوا وقصوا في سيرهم اربـــا
سار الاحبة نحو الرقمتين ضحى وخلفوني رهين القلب مكتئبا
ساروا على البزل والحادي يجد بهم والقلب مني إلى أرض الحجاز صبا

---

(1) وفي واسطة السلوك : نهاري .

هذي الأحبـــة قد شدوا مطيهم وأسرعوا بقباب الحي[1] نحو قبا
ولا رضيت لنفسي غـــيرهم بدلاً ولا وجدت لقلبي دونهم طلبـــا
ولا سلوت ولا أســـلو لبعدهم إن السلو عن المهجور قد حجبا[2]
زمّـوا إلى زمزم والقلب يتبعهـم والصبر بعدهم عـــني لقد عزبا
وخلفوني بغرب مغرمـــاً بهم أشكو لهم وبهـم من عبرتي عجبـا
فقلت يا حادياً والركب يسمعني رفقـاً على الصب يا حاديهـم فأبى
مزجت دمعي دماً من بعد رحلتهم فانظر تر عجبـــاً للدمع مختضبا
وكم سحبت ذيولي في الهوى مرحاً وكم سفحت دموعي[3] بعدهم سحبا
لا تنكروا حـال قيس في محبتـه إن الهوى لم يزل للحـــر منتسبا
يا حادي العيس قف بالله تخبرني بيني وبينهـــم عهداً ترى قربا
في كل عـام يسير الركب مرتحلاً وقد تقيّـدت عن فرضي الذي وجبا
لولا الخلافـــة شدّتني قلائدها لم أقتنع بخيال أو بريح صبـــا
الا يجـدّ السرى والسير نحو ربى نَجْـد وكاظمة أكرم بهن ربـــا
لو كان لي قدرة مـا كنت أتركهم حـتى أموت بفرط الحب محتسبا
فليس يطفي لهيب الشوق من كبدي
إلاّ بما زمزم يا سعد من شربـــا
منّـي السلام على أهل الحطيم ومن أم المقام وطاف البيت مرتقبـــا

---

(1) وفي واسطة السلوك : الحب .
(2) نفسه صعبا .
(3) وفي نسخة من بغية الرواد : دموعا .

من مدنف هائم في الغرب مسكنه موسى بن يوسف أفنى عمره لعبا
لكنني أرتجي يوم الحساب غداً شفاعة لشفيع جلّ ذا طلبا
فهو الحبيب بأقصى الشرق شوقني
والقلب من أجله في الركب قد نسبا
صلى عليه إله العرش خالقنا ما غنت الطير في أفنانها طربا
ثم السلام عليه دائماً أبداً ما أطلع الأفق من أنواره شهبا

19- قفا خبراني [1]

قفا خبراني عــن رسوم نواهج وعن معلمــات طيبات الارائج
وعن أرض نجد والعذيب وبارق ولا تخبراني عن ذوات الدمالج
وجوبا الفيـافي والمهامه واستعن على قطع أسباب النوى باللواعج
وعوجا[2] بوادي الطلح من أرض رامة
وزفّا الهوادي عنــد رملة عالج
وان جئت نجدا فانتشق من ترابها كعرف عبير أو كطيب النوافج
وان أبصرت عيناك أرض تهامة فبشراك قد وافيت أسنى المناهج
فسرح بطَـرف فوق طِرف مضمر وحط حمول البزل بين الغوانج

---

(1) لم ترد هذه القصيدة الا في واسطة السلوك ، وقد جاءت تامة في مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر . أما النسخة المطبوعة ، فينقصها الأبيات السبعة الأولى منها ، وأما عن تاريخ نظمها ، فليس لدينا من النصوص ما يثبته . وقد يكون ذلك في مولد سنة 769 هـ ، والقصيدة من بحر الطويل .

(2) وفي الأصل : عرجا ، وهو غير مناسب من ناحية الوزن . وعاج بالمكان : أقام فيه .

وقل لسليمى لست أسلو بحبهـــا وأن طريـق الغي لست بناهج
وان برقت من أرض نجد بوارق تذكرنا [1] عهد الهوى والهوادج
فصرح باذكار [2] العقيق وحاجر لأن بها يشفى غليـــل اللواعج
وان جئت أرضا بالحجاز عرفتها فشق [3] ثراها بالدموع الموارج
وقضّ مناسيك الحجـاز باسرها وزر زورة تقض جميع الحوائج
وشدّ القوى من متن ضامرة الحشى لخير شفيـع خصصته المعارج
نبي كريم جاء بالرشد والهدى الى كل قلب في الضلالة مارج
جلى بالهدى والرشد كل ضلالة ومحّـى بـدين الله دين الخوارج
به انهدّ إيوانٌ لكسرى وأخمدت لفارس تلك النار ذات الوهائـج
وأشرقت الأنوار من نور أحمـد فمنه استفاد الكون كل المباهـج
فبدر الدجى والأنجم الزهر كلهـا وشمس الضحى من نوره المتبالج
رسول أتى بالمعجزات فـلم تـدع براهينهـا من حجـة للمحاجج
له آية في الـــغارحين استتاره عن اعينهم بالعنكبوت النواسج
ولله من قلب له غير نائـــم وجسم إلى السبـع السماوات عارج
ومن نهر ماء قد جرى من بنانـه وبحـر عطـاء بالندى متماوج [4]
أجل نبي في الخلائـــق شافع وللجود بذال وللكرب فـارج

---

(1) كذا في المخطوط . وفي النسخة المطبوعة : تذكرني .
(2) كذا في المخطوط . وفي النسخة المطبوعة : بتذكار .
(3) كذا في المخطوط . وفي النسخة المطبوعة : فسق .
(4) هذا البَيت ساقط في المخطوط المذكور .

وما الرسل إلا تحت ظل لوائــــه　　وكلهم عـــن جاهه غير خارج

وسيلتنا لله حب نبينــــا　　بصدق قلوب للقبول محاوج (1)

لقد شغلتني عن حماكم قلائـد　　شغلت بها عن قطع تلك المعارج

ســـلام كريم من محب متيّـم　　بحبك مشغوف بذكرك لاهـج

سلام من المشتاق موسى بن يوسف　　مقيم بأقصى الغرب سدت نواهج

على المصطفى والآل والصحب كلهم　　والانصار طراً أوسها والخزارج

---

(1) وفي المخطوط المذكور : مخارج .

20 - الا ما لصب مشوق [1]

ألا ما لصب مشوق صبـــا إذا ما تذكر عهد الصبـــا
غداً بالغواني يغنّـي هـــوى فيـا ربـع أين الغواني الظّـبـا
لقد قدّ قلبيَ شوقي لهـــم وبَيَّـن بَيْنُـهُـمُ مـا خبـــا
ومزّق صبرِيَ من بعـــدهم فما البيض ما السمر أو ما الظبا
ونوح حمـام الحمى شاقـــه وأطربه كل مـا أطربـــا
فيـا عاذلي كف عن لومـــه فلم تُلْـف أهلاً ولا مرحبـــا
شجون تهيج لهيب الحشى فوقـد الجوى فَوْده شَيَّبَا
فـكم ذا أواري أواري وقـد تبين مِنّـيَ ما قد خبـــا
فصبر يقدّ ووجد يجـــدّ وسهد يزيـد وشوق ربـــا
فمـن لِيَ بالصبر من بعدهم أبى الصبر في الحب أن يصحبا

(1) لم ترد هذه القصيدة الا في بغيـة الرواد ، ج 2 ص 208 ــ 209 وقد ذكر يحيى بن خلدون أنها أنشدت بمناسبة الاحتفـال بالمولد الشريف من سنة 770 هـ . وقد حضره بنفسه ، إذ كان آنذاك في خدمة السلطان العبد الوادي . والقصيدة من بحر المتقارب .

فيا سعد من مسعدي في البكا ... فقال تعال بنا نندبا
ونجري دموعاً كمثل الدِّما ... رضى من رضى[1] أو أبى من أبى
نعلّم فيها لأهل الهوى ... علوم جرى[2] قلَّ أن يكتبا
فمن شاء يروي غريب الغرام ... فأمر غرامِيَ ما أغربا
لقد كنت والدهر لي مسعد ... فأغضبني ليت ما أغضبا
فما باله اليوم مُحْلَوْلِكاً ... وما زلت أعهده مذهبا
فخان وأخنى وجوراً جفى ... وظهر المجن لنا قلبا
فصرت أعاتبه إذ عتا ... فأسلمني بعدما قربا
فلا دَرَّ دَرُّكَ يا دهر قل ... أيرجع منك الذي قد نبا
فقال مجيباً ألست الذي ... على الرغم فرقت آل سبا
وأرزأتهم كل ما ملكوا ... وأضحت معاهدهم سبسبا
تفانوا جميعاً وما جَمَّعُوا ... فأين سبا والذي قد سبى
توالت عليهم أكف الردى ... فولوا وما أن قضوا ماربا
وأنت أخا الصبر مهلاً إذا ... بساحك خطب الدنى طنبا
فمفتاحها الصبر إن ضيقت ... فصبراً فبالصبر يرجى الحبا
فكم من جواد جواد كبا ... وكم من حسام حسام نبا

---

(1) كذا في الأصل .

(2) كذا في الأصل ، وفي الطبعة المذكورة : علو ما جرى . ولعل الصواب أن يقال : علوم جوى (والجوى شدة الوجد من الحب) .

وأعقبه صبره بعدها نجا حافياً جلّ ما أعقبا
فبشراك موسى بنيل المنى بفضل الإله فما أقربا
ويا نفس بشرى بما نلته وإياك إياك أن ترهبا
وبادر إلى الله مستعجلاً ووال الصلاة على المجتبى

21 - خليلي قد بان الحبيب [1]

خليلي قد بان الحبيب الذى صدّا وقد عاقني صبري فلم أستطع ردا
وسالت دموعي فوق خدّي هواملاً وقد صيّـرت فوق الخدود لها خدا
قد اصفرّ لوني بعد حسن شبيبتي كما ابيضّ رأسي بعد ما كان مسودا
وقد مرّ عمري في عسى ولعلّما[2] تواصلني لبنى وتهجرني سعدى
وتزري بِيَ الدنيا بزور غرورها فكم نقضت عهداً وكم نثرت عقدا
وهــذا نذير الشيب لاح بمفرقي يذكرني خوفاً وينجز لي وعدا
هويت من الدنيا زخارفها التي بفرط هواها لا أطيق لها ردا
شغفت بها دهرا ولم أر ما مضى وقد بذلت من بعد قربي لها بعدا
تشاغلني نفسي ودنياي[3] والهوى وتبعدني من بعد ما أظهرت ودا
ولست بسَالٍ عن هواها كأنني أشابه بشرا في محبتــه هندا

---

(1) وردت هذه القصيدة في بغية الرواد (ج 2 ص 224 – 226) وفي واسطة السلوك (ص172 – 173) وقد أنشدت اثناء الاحتفال الذي أقيم في مولد سنة 771 هـ ، وهي من بحر الطويل .

(2) وفي واسطة السلوك : في لعل وفي عسى .

(3) نفسه : تشاغلني الدنيا ونفسي .

لبانة دهري قد تقضّت[1] وقد مضت
وجيش شبابي بالمشيب لقد قدا

ويا ليت شعري للزمان[2] الذي مضى
أيرجع مُرّ العيش من بعده شهدا

وتغفر أوزاري وتمحى جرائمي وحصر ذنوبي لا أطيق لها عدا
أنا المسرف الجاني أنا المذنب الذي أشاهد باب العفو بالذنب قد سدا
لقد حقّ لي أبكي على فرط زلّتي وأسكب دمعا كالعقيق علا الخدا
اذا ذرفت عيناي زاد تفكّري وتعظم أفكاري ووجدِي لو أجدي
أعاتب نفسي في زمان بطالتي وقلبي على كسب المآثم قد جدا[3]
وجيش شبابي قد مضى بسبيله وجيش مشيبي قد تقدم لي وفدا
وحالِيَ بين الحالتين كما ترى فتطمعني[4] شوقا وتقلقني صدا
إلهِيَ هب لي منك عفوا ورحمة فما زلت يا مولايَ تبلغني القصدا
وعبدك موسى لم يزل فيك راجيا ومن شِيَمِ المولى بأن يرحم العبدا
توسلت بالمختار من آل هاشم أجرني من النار التي أضرمت وقدا
نبي أتى والكفر باد ضلاله فاهدى الهدى للخلق ياحسن ما أهدى

---

(1) في واسطة السلوك : نقضت .
(2) نفسه : بالزمان .
(3) نفسه (النسخة المطبوعة) حدا .
(4) نفسه : تطمعني .

هو الرحمة الهادي الشفيع لنا غدا[1] هو المصطفى المختار يلهمنا الرشدا
هو الذخر للهول الشديد اذا أتى ومن ذا سواه للمخاف اذا اشتدا
الا يا ربيع الخير لا زلت رائقا
لقد [2] جئت بالرحمى وخولتنا السعدا
لك الفخر[3] صل وافخر على الحول كله
فانت لنـــا عيد نوفي لك العهدا
أتيت بمن لم يات دهر بمثله [4] أبر بميثـــاق وأزكاهم مجـــدا
وأعظم عند الله جاها وحرمة [5] واندى الورى كفا اذا سئل[6] الرفدا
سلام عليه[7] طيب النشر عاطر يفوق برياه الرياحين والرندا
سلام مشوق من بـــلاد بعيدة يموت ويحيا من صبابته وجدا

---

(1) في واسطة السلوك : المشفع في غد
(2) نفسه : فقد
(3) نفسه : المجد
(4) نفسه : بمن لم تأت أنثى بمثله .
(5) نفسه : ورفعة
(6) نفسه : سئلوا
(7) نفسه : عليه سلام

المراجع

(1) الأحكام السلطانية ، للماوردي ، القاهرة 1298 هـ .

(2) الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة ، لابن المقفع ، بيروت 1960 م .

(3) أدب الوزير ، للماوردي ، القاهرة ، 1348 هـ .

(4) أزهار الرياض ، للمقري ، القاهرة ، 3 ج ، 1939 هـ .

(5) الاستقصا ، للناصري ، الدار البيضاء 9 ج ، 1954 – 1956 م

(6) أنس الفقير وعز الحقير ، لابن قنفذ القسنطيني ، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور ، الرباط ، 1965 م .

(7) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، لابن مريم ، نشره محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، 1918 م .

(8) بغية الرواد ، ليحيى بن خلدون ، تحقيق الفرد بيل ، الجزائر ، جزآن ، 1903 – 1910 م .

(9) بغية الرواد ، ليحيى بن خلدون ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 5031 (قسم عربي) .

(10) التاج في أخلاق الملوك ، للجاحظ ، تحقيق أحمد زكي القاهرة 1914 م .

(11) تاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمار ، الجزائر ، 1969 م .

(12) تاريخ الدولتين للزركشي ، تونس ، 1289 هـ .

(13) تاريخ المغرب في العصر الوسيط (القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام) لابن الخطيب تحقيق أحمد مختار العبادي، وابراهيم الكتاني الدار البيضاء ، 1964 م .

(14) التبر المسبوك في حكايات وحكم ونصائح الملوك ، للغزالي ، القاهرة، مطبعة التقدم ، بدون تاريخ .

(15) التشوف الى رجال التصوف ، للتادلي ، الرباط ، 1958 .

(16) تعريف الخلف برجال السلف ، للحفناوي ، الجزائر ، جزآن ، 1909 م .

(17) التكملة ، لابن الأبار ، مدريد ، 1887 – 1889 م

(18) جذوة الاقتباس ، لابن القاضي ، فاس ، 1309 هـ .

(19) كتاب الجعرافيا ، للزهري ، تحقيق محمد حاج صادق ، مجلة الدراسات الشرقية للمعهد الفرنسي بدمشق ، 1968 م ، ص 7 – 310 .

(20) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني حيدر آباد ، 4 ج ، 1349 – 1350 هـ .

(21) الديباج المذهب ، لابن فرحون ، القاهرة ، 1351 هـ .

(22) الذخيرة السنية لمؤلف مجهول ، نشره محمد بن ابي شنب، الجزائر ، 1921 م .

(23) الرحلة المغربية : للعبدري ، الجزائر ، 1964 م .

(24) الانيس المطرب بروض القرطاس ، لابن أبي زرع ، أوبسال 1843 – 1846 م .

(25) روضة النسرين ، لابن الأحمر ، مطبوعات القصر الملكي ، الرباط 1962 م .

(26) ريحانة الكتاب، لابن الخطيب ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 2010 .

(27) زهرالبستان،لمؤلف مجهول،مخطوطمكتبة ريلاندز بمانشستر(انجلترا) رقم 283 (قسم عربي) .

(28) سراج الملوك ، للطرطوشي ، بولاق ، 1289 هـ .

(29) سلوان المطاع ، لابن ظفر الصقلي ، القاهرة ، 1278 هـ .

(30) سلوة الانفاس ، للكتاني ، فاس ، 1310 هـ .

(31) الصلة ، لابن بشكوال ، مدريد ، 1883 م .

(32) صلة الصلة لابن الزبير ، الرباط ، 1938 م .

(33) الضوء اللامع ، للسخاوي ، القاهرة ، 12 ج ،1354 – 1355 هـ.

(34) العبر ، لعبد الرحمن بن خلدون ، بيروت ، 7 ج ، 1959 .

(35) عصر المرابطين والموحدين ، لمحمد عبدالله عنان ، القاهرة 1964 م

(36) عصر المنصور الموحدي ، لمحمد رشيد ملين ، الرباط ، 1946 م .

(37) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية تحقيق رابح بونار ، الجزائر ، 1971 م .

(38) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، مصر 7 ج ، 1940 .

(39) الفارسية ، لابن قنفذ القسنطيني ، تونس ، 1968 م .

(40) فوات الوفيات ، لابن شاكر ، بولاق ، 1283 – 1299 هـ

(41) كنز الملوك في كيفية السلوك ، لسبط ابن الجوزي تحقيق غوستة فيتستام ، لوند (السويد) 1970 م .

(42) المؤنس ، لابن أبي دينـــار القيرواني ، تحقيق محمد شمام ، تونس ، 1967 م .

(43) المسالك والممالك ، للبكري ، الجزائر ، 1911 .
(44) مستودع العلامة ، لابن الأحمر ، تحقيق محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت التطواني ، تطوان ، 1964 م .
(45) المسند ، لابن مرزوق ، مخطوط الخزانة العامة ، بالرباط ، رقم ق 111 .
(46) المعجب ، لعبد الواحد المراكشي ، القاهرة ، 1949 م .
(47) مفتـــاح الوصول في علم الأصول ، لابي عبدالله الشريف التلمساني ، الدار البيضاء بدون تاريخ .
(48) المنتخب النفيس من شعر أبي عبدالله بن خميس ، لعبد الوهاب ابن منصور ، تلمسان 1365 هـ .
(49) مظاهر الثقافة المغربية ، لمحمد ابن شقرون ، الرباط ، 1970 .
(50) المعيار ، لابي العباس الونشريسي ، فـــاس ، 12 ج ، 1314 ـ 1315 هـ .
(51) النجم الثاقب، لابن صعد التلمساني، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.
(52) نحلة اللبيب ، لابن عمّار الجزائر ، 1904 م .
(53) نظم الدر والعقيان ، للتنسي ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس ، رقم 1875 (قسم عربي) .
(54) نفاضة الجراب، لابن الخطيب، تحقيق أحمد مختار العبادي ،القاهرة بدون تاريخ .
(55) نفح الطيب ، للمقري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت 10 ج ، 1949 .
(56) نيل الابتهاج ، لأحمد بابا التنبكتي ، طبع على هامش الديباج المذهب لابن فرحون ، القاهرة ، 1351 هـ .

(57) واسطة السلوك في سياسة الملوك ، لأبي حمو موسى العبد الوادي ، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر .

(58) واسطة السلوك لابي حمو موسى العبد الوادي ، تونس ، 1279 هـ .

(59) ورقات من الحضارة العربية بافريقية ، لحسن حسني عبد الوهاب تونس ، جزآن ، 1965 م .

(60) الوفيات، لابن قنفذ القسنطيني،تحقيق عادل نويهض بيروت1971م.

(61) وفيات الاعيان، لابن خلكان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، 6 ج ، 1948 .



فهرست

الباب الثاني

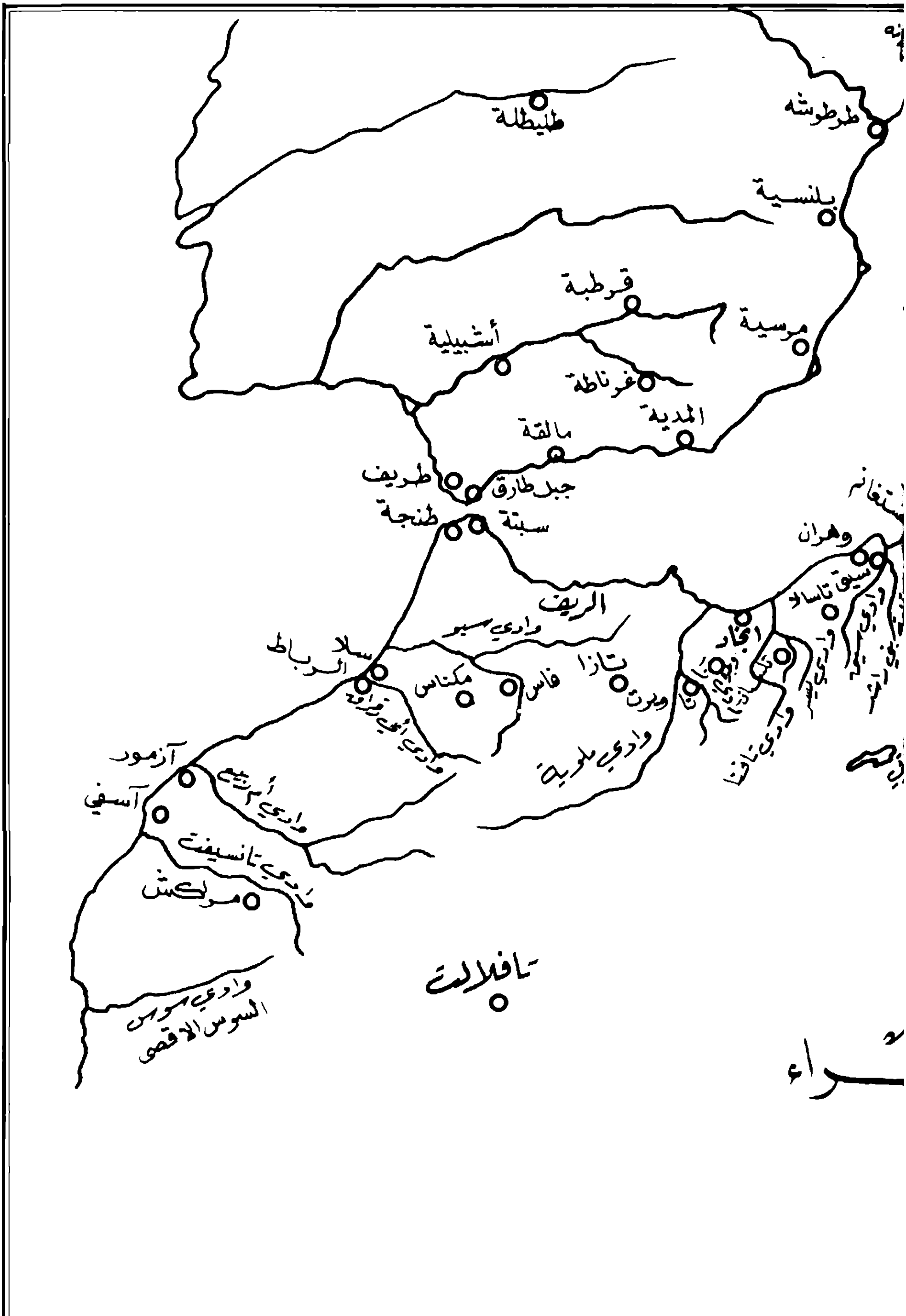
الباب الثالث

القسم الثالث

الباب الأول



خريطة المغرب والاندلس
في القرن الثامن عشر.



طليطلة
طرطوشه
بلنسية
قرطبة
أشبيلية
مرسية
غرناطة
المدية
مالقة
طريف
جبل طارق
طنجة
سبتة
وهران
الريف
وادي سبو
سلا
الرباط
مكناس
فاس
تازا
وادي ملوية
آزمور
آسفي
وادي أم ربيع
وادي تانسيفت
مراكش
تافلالت
وادي سوس
السوس الاقصى

جـدول التصـويب

صفحة	سطر	خطا	صواب
6	10	لا يستغني عنها	لا يستغنى عنها
6	19	مرار	مرارا
14	4	703 هـ	(681 – 703 هـ)
28	14 – 15	الاول ربيع	ربيع الاول
43	16	بغية لرواد	بغية الرواد
44	4	المقري	المقري
44	17	لمـن	عـن
45	17	ص	ص 215 – 217 .
45	19	نفخ الطيب	نفح الطيب
46	13	المقري	المقري
47	2	المقري	المقري
47	9	المقري	المقري
54	6	استعلمه	استعمله
57	9 – 10	عهد يعقوب	عهد أبي يعقوب
79	8	لاحداهما	لاحدهما
87	12	الصفيصف	الصفصيف
100	3	أبي زياد	ابي زيـان
100	11	واخطر	واضطر
104	1	بن السلطان	ابن السلطان
114	15	عنيها	عنهـا
123	15	لاستقصاء	لاستقفضاء
135	5	نفزم	فعزم
145	5	والمعتصم	والمنتصر
159	9	وغيرهما	وغيرهـا
161	10	(يحب	« يحب
161	12	لدولته)	لدولته » .
176	17	ص 100 – 102	ص 139 – 140
178	1	بن العطار	ابن العطـار
178	2	بن محمد	ابن محمـد
187	12	والتفويض له .	والتفويض له » .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
190	5	أن يتصلوا بها	ان يتحلوا بها
193	15	والمحلمومة	والمذمومة
197	9	يريده	يريد
217	11	طيبها	وطيبها
220	17	ج 9 و ،	ج 9 ،
223	8	الظبا	الظبى
225	1	مولده	مولد
234	18	بأجماعهم	باجمعهم
235	14	عند الحق	عبد الحق
240	19	هكذا فى	وفى
242	6	ومكانه	ومكانة
253	5	خدعه	خدعة
261	10	اخرج	اخرج
265	19	تواتر	تواتر
267	3	بدار لمكه	بدار ملكه
268	12	لا تلي العدد	لا تلي العدو
272	13	جيش	جيشك
274	3	حاصتك	خاصتك
280	19	كذا فى	كذا فى المخطوط ، وفى
281	17	كذا فى	كذا فى المخطوط ، وفى
281	18	كذا فى	كذا فى المخطوط ، وفى
282	18	كذا فى	كذا فى المخطوط ، وفى
284	3	يكسو	يكسوه
288	11	وننره	ونغره
288	19	النسخة	كذا فى النسخة
299	14	مفاعيل	مفاعيلن
309	9	اتمي	المي
313	2	غزمتم	عزمتم
315	2	قد أعياك	قد اعياك
315	9	قبل ناصرها	قل ناصرها
324	12	قتلت	قتلت

صواب	خطا	سطر	صفحة
ملـويـة	ملـويه	2	326
ابن عريف	بن عريف	14	326
وزنـاتة	وزنـانة	10	329
لكنـه	لاكنـه	5	333
ابا حمـو	أيا حمـو	14	336
في غـيره	في غيرهـا	15	336
(اصـابه)	أصابه	6	337
قضب	نضب	9	345
اشجـانه	أشجـائه	3	352
وطـيء	وطـيء	9	357
والفنا الظبى	والفنا الظبا	2	359
كاس الظبى	كأس الظبا	17	360
انـي	انـي	5	362
الضـلال	الظلال	16	366
تجـري	تجـرى	13	372
الفت الضنى	الفت لفتي	22	396
لحـب	لعب	3	397
القرن الثامن الهجري	القرن الثامن عشر	الخريطة	400
المـديـة	المـرية	—	400
المـريـة	المـدية	—	401
تـاوريـرت	تـاويـرت	—	401